

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سَائِلُ الثَّقَلَيْنِ

مَجَلَّةُ اَلْاِثْمِيَّةِ جَامِعَةِ

العدد التاسع والخمسون • السنة الخامسة عشرة • ربيع سنة ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران - قم. ص. ب: (٨٩٤ = ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

WWW.ahl-ul-bayt.org

البريد الإلكتروني للمجلة: Tahrir-thaqalayn@hotmail.com

البريد الإلكتروني لإدارة المجلات: Bc@ahl-ul-bayt.org

محتويات العدد

□ كلمة التحرير

* الأئمة، وتحديات الواقع المعاصر

رئيس التحرير ٤

□ من أريج القيادة الحكيمة:

* في زمن الخضوع، إبداع وازدهار

إعداد: ش. علي محسن ١٤

□ دراسات فكرية:

* وقفة مع الدكتور البراك

ش. مُحَمَّد مهدي الآصفي ٣٤

* الإسلام.. عقيدة وشريعة، نظرة في الفكر

الإسلامي

ش. مُحَمَّد جاسم الساعدي ٨٤

* حديث الغدير في ميزان علماء اليمن

ش. علي عبد الله الثاليا ١١٦

* معرفيات الإشراق في الحوار الحضاري

المشترك بين روسيا والإسلام

د. عبد الله أبو هدف ١٤٣

* قيم وحقوق المرأة في الإسلام

د. رقية العلواني ١٧٤

- تعنى بالدراسات والنتائج الفكرية، خصوصاً التي تصب في خانة الدفاع عن حريم القرآن الكريم والنبى ﷺ، وآل بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد المختلفة.
- تستقبل رسالة الثقلين نتاجات العلماء والمفكرين المشتملة على الشروط التالية:
 - ◀ أن تكون خاضعة لأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجياً ومضموناً.
 - ◀ أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.
 - ◀ أن لا تكون عملاً مكرراً، بل لا بد أن تحتوي على شيء من التجديد والحداثة. والأولوية دائماً للدراسات الفكرية المستحدثة.
 - ◀ أن لا تتقص عن عشر صفحات، ولا تزيد على الخمسين، والصفحة الواحدة تتضمن (٢٥٠) كلمة.
 - ◀ أن تُرفق المقالة بخلاصة لها في صفحة واحدة.
- الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع أو المجلة.
- تسلسل الموضوعات المنشورة يخضع لاعتبارات فنية محضة.
- لا تعاد المقالات المرسلة إلى المجلة، نُشرت أم لم تشر.



المجمع العالمي لأهل البيت

المشرف العام
الشيخ محمد حسن اختري

تصدر عن
المعاونية الثقافية - إدارة المجلات

رئيس التحرير
الشيخ معين دقيق

مدير التحرير
السيد علي الموسوي

العدد التاسع والخمسون
السنة الخامسة عشر
ربيع سنة
١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م

المطبعة: إسراء - قم
٠٠٩٨ - ٢٥١ - ٦٦٤٤٥٤٨ ☎

□ قراءة في كتاب:

* ابن شهر آشوب وكتاب المناقب

..... ش. مُحَمَّد العبادي ١٨٧

□ وجهة نظر:

* تساؤلات برسم من يهمله الأمر، وثيقة إعلان
النوايا لمصلحة من؟!

..... أ. سعيد ماجد البغدادي ١٩٩

□ المصدر السياسي والثقافي:

* العواقب الوخيمة لخارطة طريق الاستبداد

..... أ. هلال آل فخر الدين ٢١٧

* ظاهرة الشيعة - فوبيا، أخطر داء يصيب الوعي
العربي

..... أ. ناصر البخيتي ٢٢٣

* حقيقة الصراع بين الإسلام والغرب، إطلالة على
أطروحة هنتجتون

..... أ. حفيظ الرحمن الأعظمي ٢٣٦

□ متابعات متنوعة:

* منشور الوحدة، نقد ومراجعة

..... هيئة التحرير ٢٤٧

* المؤتمر الدولي حول الإمام الخميني وآفاق الدين

..... ٢٤٨

* المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام وتأبين الشهيد
مغنية

..... ٢٤٩

الأمة

وتحديات الواقع المعاصر

(الأمة) ..



ما أعذبها من كلمة، وما أحلى صوتها، وأجمل حروفها، وأحسن وقعها!! كلمة كم هي محبة إلى نفوسنا.. كلمة لها نغمة موسيقية لذيذة، تفعل فينا فعل السحر، تطربنا، فنسكر لها، وتترك في قلوبنا هدوءاً وسكينة وطمأنينة، تعيد إلينا ذكريات الماضي الجميلة، تذكّرنا بأحسابنا وأنسابنا كإسلاميين..

كلمة توقفنا مجدداً على أعتاب غار حراء بأجوائه التورانية الخاشعة؛ لنصغي هناك إلى صوت الوحي الرّخيم وهو يُلقى على مسامع قلب نبينا الكريم محمد ﷺ، مناجياً له بخير كلام صادرٍ من الملائ الأعلى، فيه تارة: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وفيه ثانية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وفيه أخرى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

إنّها أمتنا، وهي حلم يقظتنا ومنامنا، الذي عشناه مرّة على يدي نبينا ﷺ الشهيد علينا. هي الحلم الذي عشنا تحقّقه يوماً، فاختبرنا آثاره بأنفسنا، ورأينا رأي العين، ورأى العالم كلّ معناه، بركاته وثماره التي لا تُعدّ ولا تُحصى، عندما

تحوّلنا من عرب جهلٍ وجاهليّةٍ، إلى أهل إبداعٍ محلّقين في سماء المجد والعلم والمدنيّة، ومن عصبيّات القبيلة والعرق واللّغة ودوائرها الضيّقة، إلى أفق الإنسانيّة الرّحب، ومن شتاتٍ في الصّحراء ومرترقةٍ لدى الملوك، إلى دولة العدل والقوّة والفتوحات، ومن التّهتّك والتطبّع على الفواحش والموبقات، إلى التجسيد العمليّ لمفاهيم التضحية والإيثار والجهاد والمسؤوليّة وترخيص الأرواح والأنفس في سبيل المبادئ والقضيّة الحقّة... وكلّ هذا في ظرفٍ محدودٍ، وفي وقتٍ قياسيٍّ خاطفٍ، وفي تجربةٍ إنسانيّةٍ، لم ولا ولن تشهد البشريّة مثيلاً لها. ولسنا نشكّ، ولو لحظةً واحدة، في أنّ الذي له أكبر الأثر في صنّع هذا الإنجاز الكبير، هو نبيّنا الأعظم محمّد بن عبد الله ﷺ، بنفسه الكبيرة، وأخلاقه الإلهيّة العظيمة، وقدرته القياديّة البارعة، وبركات وجوده ومحضره الشّريف.. وإلى جانبه الذين اتّبعوه وأحاطوا به، من خيرة أهل بيته عليه السلام، وخُلص الصّحابة والمسلمين الأوائل، الذين قدّموا رغباته، التي لا ينطق بها عن الهوى، على حاجات أنفسهم وأهليهم، وضحّوا في سبيل إقرار دعوته ونشر تعاليمه بكلّ غالٍ ونفيس، مسطّرين في ذلك أروع الملاحم والبطولات، في معركتي العدوّ والنفس على حدٍّ سواء. قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّاعًا سَاجِدًا يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩].

هذا كلّهم مسلّمٌ عندنا، ونعرفه، ونقدّسه، ونؤمن به.

ولكنّا في الوقت عينه، لا يسعنا أن ننظر إلى عظمة شخصيّات تلك المرحلة نظرةً سلبيّةً، نظرةً تُضعفنا وتخطّمنا من الدّاخل وتقهر الثّقة في نفوسنا؛ إذ حتّى نبيّنا ﷺ، وهو أعظمهم شأنًا وأرفعهم مكانةً، وخير البشر على الإطلاق، ومنّ تعهّده الباري تعالى بعنّيته، وصنعه على عينه، حتّى محمّد بن عبد الله ﷺ في عظمته التي لا تُبارى، وفي علوّ شأنه وارتفاع قدره، حتّى هو، يقول عنه تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ففي عظيم أخلاقه

وسجاياه دروس لنا، وفي تضحياته وجهوده خير عبرة لنا، وفيما أوعدنا الله به من عز الدنيا ونعيم الآخرة المقيم خير محفز لنا على التمثل بسيرته والاستئناس بسنته، وإنه ليكفينا عزاً وفخراً أن ينسبنا العالم إليه أو أن يرى فينا تجسيدا ومتابعة لخطئه ومنهجه ودينه.

ولئن لم يكن رسول الله ﷺ بيننا اليوم، فإن هذا لا يعني أن أمة الإسلام فقدت بفقده - على عظيم الخطب وجليل الرزء - دورها الريادي والعالمي، أو أن المسؤولية الثقيلة التي اضطلع بها السلف الصالح من قبل لا يتوجه إلينا مثلها، أو أشد منها، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

أليس ظلماً منا لنبينا ﷺ أن يرى منا الكسل والانزواء والركون إلى الذين ظلموا في عصرنا الحالي؟! مع تعاظم الأخطار المهددة، وتكالب الهجمات الكيدية الشرسة على إسلامه الذي جُبل بقطرات دمائه الطاهرة بعدما رماه كفار الطوائف وسفهاؤهم بحجارتهم وهو يجول بين أحيائهم ويدعوهم إلى الإسلام^(١).

وبما أن مسؤولية كل على قدره، وبما أن الأمة جسد واحد تتقاسم وظائفه كافة أعضائه، وبما أن الفقهاء والعلماء والنخب هم حصون الإسلام المنيع، وقلب الأمة النابض وعقلها المفكر، فإن وظيفتهم ومسؤوليتهم، هي لا محالة، أكبر المسؤوليات، وأثقلها عبئاً، وأكثرها حساسية ودقة وخطراً على الإطلاق، فلا سلامة لجسد الأمة، إذا تمكنت الأمراض والفيروسات القاتلة من النفوذ إلى فكر العالم أو لسانه أو قلمه.

وفي منطق الأمور، شرعاً وعقلاً وعرفاً، أن المسؤولية كلما ثقلت واشتدت، دق ميزان المحاسبة، وأن المنصب كلما علا وارتفع، أحيط صاحبه والمتصدّي له

بمعايير أكثر دقةً وتعقيداً وشموليّةً، فالعالم لا زلّة له، ولا سهو منه ولا اشتباه، لا عن حُسن نيّة ولا غير ذلك..

بل زلّته كبيرة، والسّهو منه جريرة، وحُسن النيّة سداجّة لا تُبرّر ولا تُغتفر، والأخطاء منه قاتلةٌ ومميّة. أرايت يوماً قلباً ساعحه الجسد على سلّبه الحياة منه بضخه السّموم بدل الدّم في شرايينه وعروقه، بحجّة أنّه حسبها دواءً وترياقاً، وأنها (زلّة) لن يُعيدها، أو (سهو) لن يتكرّر، أو بأنّ له (نيّةً حسنة) و(قلباً طيباً)!!؟!

إنّ العالم هو الجبهة الأولى وخطّ الدّفاع الأماميّ الذي يحفظ للأمة مناعتها، ويقيها ويُقيها في مأمنٍ من أخطار المخطّطات السّوداء، والتي يعمل الأعداء، ليل نهار، على وضعها، وعلى حياكة المؤامرات التي تتيح لهم اختراق صفوفها وأن يتوغّلوا بين أفرادها لبثّ سمومهم وأفكارهم الفاسدة بينهم، وتخديرهم بها وتطويرهم وإخضاعهم، تمهيداً لنهب ثرواتهم وسلب حقوقهم والسيطرة على بلدانهم.

ولا شكّ في أنّ الأداة الأهمّ والأخطر التي يعتمدونها لتحقيق أغراضهم الدّنيّة، والترويج لسمومهم، ونشر بذور الفتنة والشقاق، وتعويم ثقافة التصادم والنزاع، وطرحها كبديلٍ عن لغة الحوار والتلاقي وتلاقح الأفكار، هي وسائل الإعلام، بمختلف مجالاتها: المرئيّة والمسموعة والمكتوبة، وذلك نظراً لعموم تأثيرها، وسعة انتشارها، وصعوبة مواجهتها، وسهولة التضليل بها.

ولقد بلغ التضليل الإعلاميّ حدّاً من الخفاء والتلوّن حتى صار تمييز الحقّ من الباطل معه أمراً في غاية الصّعوبة، حتّى رأينا، وفي كثيرٍ من الأحيان، أنّ بعض الإسلاميين، وفيهم علماء ومفكّرون، يلتبس عليهم الأمر، فينجرون وراء أفكار ضالّةٍ مُغرّضةٍ تمّ الترويج والحشد الإعلاميّ لها. والأخطر من هذا كلّهُ،

عندما ينشغلون بها ويجعلونها همهم الوحيد وشغلهم الشاغل؛ ليتحولوا إلى أناسٍ يجرفهم التيار الدّخيل، وليغرقوا في متاهاتٍ وحلقاتٍ مفرغة لا تؤدّي إلاّ إلى تخلفهم، والأمة معهم، عن الرّكب الحضاريّ المتسارع الوتيرة، في وقتٍ الأمة فيه في أشدّ الحاجة إليهم، وإلى علومهم، وفي وقتٍ يُفترض فيه أن يكونوا المحامين عن فكر الإسلام الأصيل، والحريصين على إعلاء كلمته وإرساء أهدافه.

ومن أبرز مشاهد ذلك، ما نراه ونسمعه ونقرأه في كلّ يوم على شاشات التّفزة الموجهة، وأثير المذياع المسلّط على أدمغة البسطاء، وأعمدة الصّحف والمجالات، ناهيك عن الكتب المقدّسة التي تدعم بأموالٍ دونها أموال قارون. وقد كانت المقابلة التي أجرتها صحيفة (المدينة) مع الأستاذ الشيخ محمّد بن سليمان البراك، أحد أساتذة جامعة (أم القرى) في مكة المكرمة حول مشروع الوحدة الإسلامية، على أعتاب انعقاد المؤتمر العالمي للوحدة الإسلامي التي تعقده الجمهوريّة الإسلاميّة في كلّ عام، في ذكرى الولادة الميمونة للنبيّ الأعظم ﷺ، قد كانت تلك المقابلة تصبّ في سياق ما أشرنا إليه من الانجرار. ونحن، في هذه الافتتاحيّة، لا نريد، بل ولا يهمنّا أصلاً، الدّخول في النّوايا؛ لأنّ عقيدتنا، كما أسلفنا، أنّ الخطأ المميت لا ينفع معه ندمٌ، ولا نيّةٌ حسنةٌ، ولا يُجدي في التخفيف من وطأته عُذرٌ ولا توبة. كما أنّنا لسنا هنا بصدد محاكمة الأستاذ البراك ولا الصّحيفة التي أجرت معه هذه المقابلة، ولا يهمنّا أيضاً أن نعرف من يدعمهم ويقف وراءهم ويؤيّد أفكارهم ومقاصدهم. وإنّما يعيننا أن نشدّد على خطورة مثل هذه الأفكار، وضرورة مواجهتها. لا سيّما وأنّ عدونا المتربّص بنا، بجميعنا، شراً، قد تكشّفت أغراضه ونواياه، ولم يعدْ يخجل من إعلانها، أو يخاف من الجهر بها.

فبالأمس القريب، طالعنا وزيرة الخارجية الأمريكيّة (كونداليزا رايس)

بجدید مشاريعهم ومخططاتهم، والذي أطلقوا عليه اسم: (الشرق الأوسط الجديد)، هذا المشروع الذي يحاولون بشتى الوسائل أن يُزيّنوه وأن يروّجوا له في أوساط الشعوب العربيّة والإسلاميّة، بعدما أفلحوا في إقناع بعض الأنظمة والدّول به، ولو بجعلهم شركاء لهم فيه. مشروعٌ فاشلٌ، لم ولن يُكتب له النّجاح، ما دامت الضّمائر حيّة في النفوس، وما دام وعي الأمّة، وعلى رأسها: علماءؤها ومثقفوها، متّقداً متيقّظاً. كيف لا؟! وأقلّ ما يُمكن أن يُقال في هذا المشروع: إنّه لم يرَ نور الحياة على الرّغم ممّا تطلّبه من مخاضٍ عسيرٍ تمثّل في حرب تمّوز وما خلفته من الدّمار الهائل والضّحايا المدنيّين والأبرياء والآهلين، ولا زال يتمثّل إلى الآن في حصار غزّة وأهلها وقطع الإمدادات والمعونات الأوّليّة عنهم، وفي افتعال الأزمات وتعطيل الحلول هنا وهناك.

وفيما يلي عرضٌ موجزٌ لأبرز معالم هذا المشروع الدّامي نعرضها برسم من كان له قلبٌ، أو ألقى السّمع وهو شهيد:

١. العمل على إغراق بلدان ودول منطقة الشرق الأوسط بالفتن والنّعرات الطّائفيّة والمذهبيّة والعرقية، في سبيل تحويل هذه المنطقة إلى بؤرٍ ومخيماتٍ منفصلةٍ ومتشّتتة، يسودها التوتر والتأزّم، وتستعر فيها نيران العصبية والصّدّام، وكلّ ذلك، لما تتمتّع به هذه المنطقة من مركزيّة وأهميّة في منظور الجغرافيا السّياسيّة العالميّة؛ لأسبابٍ عدّة، أهمّها: مجاورة الكيان الصّهيونيّ، الطّفّل المدلّل لما يُسمّى: ((الشّرعيّة الدّوليّة))!! وريبب السّياسات الأمريكيّة الاستكباريّة. حتّى إذا ما انشغلت شعوب هذه المنطقة بخلافاتهم ومشاكلهم الصّغيرة التي تفرّق فيما بينهم، رغم المشتركات الكثيرة الأصيلة التي تجمعهم وتوحد مصيرهم ومآلهم، فإنّ بإمكان الصّهاينة - حينئذٍ - أن يناموا قريري العين، وأن يقضوا ما شاؤوا من بلداننا، ويتنهبوا ما شاؤوا من ترابنا ومياها وخيراتنا، دون أن يشعر بهم أحد، دون حسيبٍ ولا رقيب. وكيف لا يرتاحون لذلك؟!!

وهم يرون - لا سمح الله - دماء هذه الشعوب مسفوكة بينهم، وفوهات بنادقهم مصوبة في اتجاه غير اتجاههم، والتخلف والجهل ممعناً في إراداتهم.

٢. نشر ثقافة العمالة للسياسات الغربية المدافعة عن الكيان الصهيوني الغاصب، أو العمالة لهذا الكيان مباشرة، عبر الإعلان عن أسماء بعض عملائهم والتشهير بهم، ورفع الغطاء عن وثائق سرية تثبت تواطؤهم، وتكشف عن تفاصيل مهام أو كلفت إليهم، وهذا، وإن كان ليشكل، في الفترة الماضية، فضيحة كبرى وخيانة عظيمة، إلا أنهم أرادوا في الوقت الراهن، أن تتعود الشعوب العربية والإسلامية، يوماً بيوم، على أن تطرق أسماعهم أخبار هذه العمالة، خصوصاً، وأن بعض هذه الشخصيات المتعاملة يمثل جزءاً أساسياً ويحتل مركزاً حساساً في النسيج السياسي أو الديني أو الاجتماعي في بلدان هذه المنطقة، أملاً في أن يصبح التعامل معهم أمراً طبيعياً، وربما مقبولاً وممدوحاً ومبرراً، وطمعاً بأن لا يجد كل متعامل معهم، ضد شعبه ووطنه وأمتة، نفسه مضطراً إلى تقديم التبرير والأعذار، بل، ولا حتى إلى التكذيب أو الإنكار.

لقد أرادوا هذا ليكون مقدمة لتحقيق حلمهم الأكبر، وهو: تطبيع العلاقات بين هذا الكيان الهجين وبين مختلف شرائح شعوب هذه المنطقة، بعد أن كانوا قد تمكنوا، سابقاً، من التطبيع مع بعض الدول والحكومات والأنظمة؛ لأن هذا التطبيع الشعبي يعني أن الشعوب نسيت فلسطين وقضيتها، ومحت من ذاكرتها الأقصى الشريف، وتقبلت فكرة ((دولة إسرائيل))!!! كأمر واقع يمكن التعايش معه، وأضفت عليها صفة الشرعية التي هي، فيما نراه، عقدة الحقارة الكبرى المهيمنة على ذهنية العقل الصهيوني.

٣. ضمان التبعية والولاء التام لحكام دول المنطقة والأنظمة السائدة فيها، لئلا تشكل إحدى هذه الدول، في لحظة من اللحظات، عقبة وسداً أمام السيل الجارف لأطماعهم ومشاريعهم التي لا تنتهي. حتى ولو أدت هذه التبعية إلى

تدهور اقتصاد هذه الدول، أو إلى قمع الأنظمة لشعوبها، والقضاء على الحرية والديمقراطية لديهم، (الديمقراطية) التي يتشدقون بها كل يوم ويرتكبون باسمها أفظع الجرائم!!

أليس هذا هو ما نشاهده اليوم، في الواقع العربي والإسلامي المعاصر، فالحكومات في وادٍ، والشارع والشعب في وادٍ آخر؟! حكومات تعمل على خلاف رغبات شعوبها ومصالحهم، ولا يرف لها جفن، ولو قام الشعب معظمه، أو كله، ضدها، لا لشيء إلا لأنها لم تعد ترى في الشعب مصدر شرعيّتها، منذ أن صارت الشرعية تأتيهم مع الرياح الغربية دعماً دولياً وزيارات ومدائح بالجملة!!

٤) التفوذ إلى مناهج التعليم والتربية والبرامج الدراسية والأكاديمية المعتمدة والمعمول بها في مدارس وجامعات هذه الدول، والتلاعب بها؛ لبث الأفكار التي تناسبهم وغرسها في عقول الأجيال الشابة؛ لنجد، على إثر ذلك، جيلاً من الشباب المغرر بهم، الخاوية عقولهم من ثقافة أصيلة، وقد اتخذوا الغرب قبلتهم وجعلوه مثالهم الذي يحتذون به، بعدما فقدوا حسهم الوطني وانتماءهم الديني وروحيتهم الجهادية والإيمانية، وابتعدوا عن التعاليم المحمدية، التي لا ارتقاء لهم - وعلى الصعيدين المادي والمعنوي - إلا بمتابعتها والتزامها.

وبحسب ما يرى بعض المراقبين: فإن هذا التلاعب والتدخل المخل لا يقف عند حدود التعاليم الأخلاقية أو القيم والعادات والأعراف الاجتماعية، بل هو يتخطاها ويتجاوزها، ليطال نفس المعلومات في العلوم والمجالات الأكاديمية المختلفة، ولذلك لا نجد مهندسين - مثلاً - كمهندسين، ولا طبيين كطبيبين، وهكذا.. لأنهم قد بثوا في داخل النظام التعليمي نفسه ما يحول بين طلابنا ومتعلمينا وبين الولوج إلى عمق المسائل ودقائق البحث العلمي، وأما من

استطاع من طلابنا، لنبوغ أو موهبة أو اجتهاد، أن يتخطى هذه العقبات، فإنه سريعاً ما يتم استقطابه أو تصفيته!!

٥) القضاء السريع والحتمي والنهائي على أهم عناصر العزة وبواعث الأمل في هذه الأمة، وهو عنصر الممانعة والمقاومة، وثقافة الجهاد ضد المحتل والمستعمر، وهو الطريق الذي لم نر الخير الحقيقي الذي لا زيف فيه إلا بعد اتّباعه...

هذه كانت نبذة بسيطة، ولمحة خاطفة، عن معالم هذا المشروع الفاسد الدّموي.

وبإزاء هذا كله، فإننا لا نجد بداً من تشكيل شرق أوسط جديد، على الطريقة الإسلامية، بحيث يستمد أسسه من كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن تعاليم سيد المرسلين ﷺ، وذلك عن طريق الدعوة إلى توحيد الجهود في مواجهة باطل هؤلاء وكفرهم وضلالهم، بأعلى ما نملك، بالأرواح والأنفس والأموال والأولاد؛ لأننا - باختصار - ندعي أننا محمديون، ونريد أن نبقي كذلك حتى الرّمق الأخير. وهو ما يستدعي منا جميعاً أن نلزم الخطّ المحمديّ، حقاً حقاً، في وعينا، وفي تحرّكنا، وفي وحدتنا، وفي سعينا الدؤوب للرفع من مستوى أمتنا، في مختلف النواحي والأبعاد.

وإننا، وفي هذه الظروف الاستثنائية والعصيبة التي تمرّ بها أمتنا الإسلامية والعربية، وإذ نشد على أيدي علمائنا ومفكرينا ونستصرخهم لنجدتنا بعلومهم ومعارفهم وجهادهم وتضحياتهم، ندعو الجميع للتيقّظ والحذر البالغين، واستنفار كلّ الطاقات لتوظيفها في إطارها الصحيح، وفي وجهتها السليمة، والتعالي عن صغائر الأمور والاهتمامات، وإحياء ثقافة الجهاد والمقاومة، بكافة أشكالها، والعص على الجراح، ورص الصفوف في جبهة واحدة، في مجابهة أعداء الله ودينه ونبّيه، كأننا بنيانٌ مرصوص. فهكذا - والله - كان محمد ﷺ

والخيرة من أصحابه ﷺ، وبهذا - والله - كانت لنا عليهم الغلبة في أيام مجدنا
التليد..

وأخيراً.. نسأله ونبتهل إليه تعالى، أن يرشدنا ويسدّد خطانا ويثبت أقدامنا
لنُصرة هذا الدين وأهله، إنه سميعٌ مجيب.

* * *

الهوامش:

(١) ابن كثير، السيرة النبوية ٢: ١٥١، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر
والتوزيع، ١٣٩٦ - ١٩٧٦ م، بيروت.

وفي زمن الخسوء إبداع وإزدهار (*)

□ إعداد: الشيخ علي محسن

تعالى يا كل اصطفافات العالم، واحتشدي يا كل قوى الدنيا، وحاصري أمتنا
يا كافة الأبواق الزائفة، ولتجمعوا لنا ما تجمعون، ولتحشدوا كل ما
تستطيعون، ولتزيقوا الحقائق ما شئتم، ولتكذبوا قدر ما ترغبون، ولتملأوا
الدنيا صياحاً وزعيقاً، ولتمكروا كل مكركم ولتكيدوا أعلى كيدكم..
فنحن، المسلمون، أتباع أعظم نبي وإنسان، ونحن الذين حملنا على كاهلنا
مسؤولية أن نتوسم خطاه، وأن نسترشد بسيرته وهدايه.. نحن الذين أخرجنا
محمد بن عبد الله ﷺ من عتمة الجاهلية المظلمة والحالكة، من صحرائها
القاحلة، من سجنها الضيق، من كل القذارات والجهالات والتفاهات، إلى عالم
رحب بنور الهداية، بحب الله يعشعش في قلوبنا، بالثقة بربنا، ننصره فينصرنا،

(*) مقالة على ضوء خطاب القائد الإمام الخامنئي (رحمته الله) في العام الهجري الشمسي الجديد.

ونمثل أوامره فيقرّبنا، وننظر إلى وجهه في كلّ أعمالنا وأفعالنا فيزِمقنا بنظرة منه رحيمة، بعينٍ لا تنام..

وفي هذه الأزمنة القبيحة والأيام الغادرة، لا يسعنا، ونحن أمة تدّعي الانتماء إلى رسول الله وسيد البشرية ﷺ، لا يسعنا، والناس يقولون لنا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، لا يسعنا إلا أن نزداد إيماناً بربّنا، وتقرباً من بارئنا، وتعلقاً بقدرته المطلقة التي لا حد لها، ونحن نقول: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾..

ونحن بذلك، إن شاء الله، الأعلون.. المنتصرون.. والازدهار من نصيبنا نحن، والحضارة لنا نحن، والأيام لصالحنا، وأمّا أنتم، يا طغاة العالم، فلن تبوءوا، والله، إلا بخيبة وخُسران، وذللّ وبوار.. شأنكم في ذلك، شأن فرعون ونمرود وكلّ الطغاة والمتجبرين، وستُحاسَبون وتُسألون.

لم تعدّ الألوان، في عصرنا هذا، مُختلطة على العيون، ولم يعد البقر متشابهاً علينا، بل في الحقيقة، لم يعد هناك ألوانٌ متعدّدة ولا أطيافٌ متنوّعة، فلقد زال كلّ البريق، ورجع كلّ لونٍ إلى فئته التي ينتمي إليها، فأضحى المشهد ثنائياً، وانحصرت الألوان في الأسود القاتم والأبيض الناصع، لونين لا ثالث لهما..

نعم، يا سادة، إنّ آخر الزّمان حان، وعليكم، على كلّ واحدٍ منكم الآن، أن يُحدّد الجبهة التي ينتمي إليها، والموقف الذي يرغب لنفسه أن يكون فيه، إنّ موعِد المسؤوليّات والمواقف، إنّ أوان الحقيقة التي لا مراء فيها؛ فإمّا أن تكون محمدياً حُسينياً، وإمّا أن تكون في الصّف الآخر، وليس هناك من حالةٍ تتوسّط بين الصّقيّن، وليس هناك من خيارٍ آخر.

إنّنا لا نقول: إنّ الحقّ وأهله لم يتعرّضوا لهجمات الباطل وأهله من قبل، ولا ندّعي بأننا أوّل من يُحاصر ويواجه ضغوطاً وتحديات، كما أنّنا لم، ولا، نزعم بأنّ عصرنا هذا هو أوّل العصور التي تشهد صراعات الخطيّن ونزاعات الفريقين، كلا، بل إنّنا ندرك جيّداً أنّ صفحات التاريخ طافحة مشحونة بذلك، دَمَوِيّة،

بشعة، وإلى أقصى الحدود. ونحن - أيضاً - على بصيرة تامة بأن مقولة: (التاريخ يُعيد نفسه) مقولة يقينية، بل هي إحدى اليقينيّات القلائل التي، وبتعبير أهل المنطق، قياساتها وبراهينها معها، وأدلة صدقها لائحة واضحة.

ولكنّ الذي نقوله، بكلّ ثقةٍ ووعيٍّ ومسؤوليّة، هو أنّ صفحات التاريخ قليلاً ما حدّثنا عن اجتماع قوى الباطل قاطبةً والتنسيق والتخطيط فيما بينها، فيما يُشبه الخطة العالمية الموحّدة، التي تتخطّى إطار الدّول والبُلدان والأنظمة والقوميّات، الخطة التي رسم لها كلّ مَنْ يتّمي إلى مدرسة الاستكبار والإرهاب والهيمنة، كائنًا ما كانت البُلدان التي يتّمون إليها، ومهما كان النظام السّياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي الذي يطبقونه ويؤمنون به، الخطة التي وحد الباطل صفوفه وحشد أنصاره عليها، بعد أن كان كلّ منهم يحصر ممارساته الاستكباريّة في إطار البلد الذي يعيش فيه، فأصبحنا نرى في كلّ بلدٍ في هذه الكرة الأرضيّة نفس المعسكرين، وإن اختلفت التسميات وتبدّلت الوجوه:

فمعسكرٌ يتّمي إلى القوى الاستكباريّة التي تعتمد سياسة التجويع والأمر الواقع، وتمارس الإرهاب الدّوليّ المنظّم، الذي يُنظّم كلّ شيءٍ حتّى الفوضى!! وعلى رأس هذه القوى: أمريكا، التي تُمسك بقرارات مجلس الأمن، وتتحكّم بمصير البلدان والشّعوب، مُستعينةً على ذلك بحلفائها وأدواتها. وهؤلاء، في المفاهيم الزّائفة لما يُسمّى بـ (المجتمع الدّولي)، أو (الرأي العامّ العالمي)، يُطلَق عليهم اسم: قوى الاعتدال.

وأما المعسكر الآخر: - وعمدته من قوى الممانعة التي تتشكّل من الوطنيين والمضطهدين الذين ارتكبوا جريمةً هي، عند قوى الاعتدال، أفضع الجرائم على الإطلاق، أعني: جريمة إرادة العيش الحرّ والكريم - فهؤلاء هم الإرهابيون والرّجعيّون وهم محور الشرّ، و.. و.. إلخ.. من التسميات المدمّرة التي أُطلقت عليهم بشكلٍ مدروس.

لقد استطاعت أمريكا أن توحد حلفاءها في كل العالم تحت رايتها، راسمة لهم الخطط التي تستهدف قوى الممانعة وتعمل على تفريقها ومحاصرتها في سبيل جعلها فلولاً، وتمزيق جسدها أشلاءً، وتحويل أمّتها شتاتاً، فتهجرهم من بلدانهم وأراضيهم، وتسلبهم كل حق لهم، بدءاً من لقمة عيشهم التي ربّوا لنحرها بسيف (الغلاء) القاطع، مروراً بحقوقهم في تقرير مصيرهم، وصولاً إلى كرامتهم ومبادئهم وقيمهم وكيانهم وهويّتهم ووجودهم والمكان الذي لهم في هذه المنظومة الكونية، ليصلوا - ومن يدري - إلى حرمانهم حتى من الهواء والنفس ورمق الحياة..

لقد كان الباطل، مُصرّاً على ملاحقة أتباع الحق وأنصاره، في كل آن وزمان، ومن مكان إلى مكان، على محاربتهم والتآمر عليهم بشتى الوسائل والسبل الدنيئة والوضيعة..

وهذا أمرٌ اعتدنا عليه وألفناه وأصبحنا نعرفه جيّداً. كما أننا بتنا نعرف حق المعرفة: أنّ أهل الباطل كثيراً ما كانوا يتناسون مشاكلهم، والأحقاد التي يحملها كلٌّ منهم تجاه الآخر؛ ليوحّدوا صفوفهم في مواجهة الحق وأهله، ليسجلوا لأنفسهم بذلك ربحاً - ولو ظاهرياً - في العديد من المراحل والحقب التاريخية، بينما كان أهل الحق يتفرّقون عن حقهم لأسبابٍ تافهة، وقضايا هي، في مجملها، شخصيةً آنية؛ لتجرّهم هذه الفرقة إلى القعود والتخاذل عن قضيتهم الكبرى، قضية الحق الذي هو أحق أن يتبع.

وإلى ذلك يُشير أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وقد آذاه تخلف قومه وأبكاه تقاعسهم وقعودهم، بقوله:

«فيا عجباً والله يُميت القلب، ويجلب الهم، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم، فقبّحاً لكم وترحاً حين صرّتم غرضاً يُرمى، يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزّون ولا تُغزون، ويُعصى الله وتُرضون»^(١).

إنّ اجتماع أهل الباطل على باطلهم، وهو باطلٌ، وتفرّق أهل الحقّ عن حقّهم، وهو الحقّ، لمّا يُثير العجب ويُنْعَث على الدّهْشة والاستغراب، وإنّه لا يُفسد القضية المحقّة مثل الانغماس في الأمور الشّخصيّة، وتقديّمها والاهتمام بها على حساب الأولويّات الكُبرى، بحججٍ وأعدارٍ واهية.

وإنّ النتيجة الحتميّة لذلك، هو ارتكاس الأُمّة، وتراجع المُجتمع، وبروز مكامن الضّعف فيها، والتخلّف عن ركب الحضارة والرّقيّ، حتّى تصير الأُمّة غرضاً لكلّ طامع، تُغزى ولا تُغزو، ويُغار عليها ولا تُغير، ويُعصى الله ويعمّ الفساد، وهي لا تُحرّك ساكناً؟!!

أليس كلّ هذا هو ما يحصل، وبأردأ مُستوياته، في واقعنا الإسلاميّ اليوم؟! أليس هذا هو داؤنا ووباء عصرنا؟!!

أليس العراق، وهو بلد الأُمّة، وحاضرة الإسلام الكُبرى على مرّ العصور والأيّام، جريحاً ينزف ويئنّ على وقع ضربات الغزاة والمُحتلّين؟! أوليست ثرواته وخيراته، التي هي حقٌّ لأبنائه، صِرفاً، نهباً لكلّ طامع؟! أم أليست ساحته الأمنيّة مُحترقةً إلى أبعد مدى؟! والأهمّ من ذلك كلّّه - على فظاعته -:

ألُسنا جلوساً لا نُحرّك ساكناً ولا يرفّ لنا جفنٌ إزاء كلّ هذه الجرائم والموبقات؟! ألُسنا مشغولين، بمنصبٍ هنا وكُرسيٍّ هناك، هذه المناصب الزّائفة، التي أهدانا المُحتلّ (السّخّي، الحريص على مصلحتنا) إيّاها، تاركين وراء ظهورنا مدن المستضعفين وقرى الأمنين، لتطلّع عليها طائراتهم، وتمطرها صواريخهم، وتهشّم في شوارعها خفافيش ظلامهم؟!!

ثمّ، ألم يعدّ الأقصى من مقدّساتنا؟! ألم يعدّ لفلسطين بقيّة من رمقٍ في ضمائرنا النّائمة؟! أم أنّنا أصبنا بالإدمان على رائحة الدّم الفلسطينيّ المسفوك ظلماً وعدواناً؟! وأين نحن من جوع الفقراء هناك وصرخات الشكالي وبكاء

اليتامى؟! أما آن أو ان يقظتنا؟!

وإذا كانت لا تحرك مشاعرنا هذه الصور الدامية فما الذي تُراه يُحركها ويثيرها؟! أم هل صدقنا مقولة مَنْ يقول: إنَّ بإمكان فلسطين أن تستوعب دولتين على أرضٍ واحدة؟! هل نصدق ما يَعِدنا به المتهوّر الأمريكيّ من وعود السّلام الزّائفة؟! كيف نصدق مَنْ جعل، ويجعل، السّماء جسوراً جويّةً تمتدّ لتحمل سيلاً هادراً، والأطنان الأطنان، من القذائف المدمّرة التي يدأبون على تصنيعها، وبالمليارات، لا لشيءٍ إلّا لإبلاغنا تحيّاتهم وأشواقهم وأنهم راغبون رغبةً مُلحةً بعقد السّلام معنا!! أما آن لنا أن نكشف حقيقة هذه الوعود المعسولة المغمّسة بالسّم الزّعاف؟! أم أنّنا فقدنا كلّ أشكال الإحساس، الدّينيّ والوطنيّ والقوميّ والإنسانيّ؟!

وماذا أيضاً لو أردنا أن نعرّج على لبنان وقضاياها الشّائكة، وضاحيته الأبيّة التي حاولوا طمس معالمها وإبادتها إلى سابع أرضها، أملاً منهم بأنّ تتمكّن من خنق صوّت المقاومة الباسلة أطنان الصّواريخ، التي لم تُجرب من قبل، ولا استُعملت في مكان، حتّى كأنّها صُنعت خصيصاً على اسم لبنان، ولأجله، وكُرمى لعيون مقاومته الشّريفة، التي لا زالت تُنذر وتذق ناقوس الخطر محدّرة الأُمّة جمعاء من مشاريع الهيمنة والاحتلال، التي تُريد أن تفرسها وتلتهم المنطقة بأسرها.. أليس لزاماً علينا أن نحامي عن صوّت المقاومة هذا بكلّ عزمنا وما أوتيناه من قوّة؟!

وأما إيران، هذه الجمهوريّة الإسلاميّة الفتيّة، النّابضة بالعزم والإرادة، فقد قامت الدّنيا ولم تقعد، لا لشيءٍ إلّا لأنّ قوى الاستكبار صُعِبَ عليها أن تتقبّل فكرة أنّ بلداً من البُلدان يسعى لتطوير نفسه من دون إذنٍ منها، ومن دون أن يمرّ في القنوات الصّبيّة التي تحدّها هي له، لم تستطع أن تتصوّر في خيلتها أنّ وطناً يسعى لحماية نفسه، ويطلب الاكتفاء الدّاتيّ الذي يُتيح له أن يستغني عنها،

أن لا يكون في قراراته السياسيّة والمبدئيّة وسياساته الاجتماعيّة والثقافيّة تابعاً لها وخاضعاً لسلطة وشروط البنك الدوليّ، الذي تهيمن عليه السياسات الرأسماليّة التي لا تصبّ إلاّ في خدمة الدول العظمى والشركات الكبرى.

إنّنا لا نشكّ لحظةً في أنّ الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران محاربةٌ لأجل ذلك، ولو أنّها، في لحظةٍ خاطفة، تُبدي استعدادها، أو تلوّح تلويحاً إلى إمكانيّة انقيادها لميول ورغبات (المجتمع الدولي)، لتغيّر الوضع كلّ، وارتفع الحصار، وزالت العقوبات الاقتصاديّة وغيرها، وحلّق اسم إيران عالياً في المحافل الدوليّة.. حينئذٍ فقط، يصير من حقّها أن تمتلك ما شاءت من الطّاقة النوويّة، وحينئذٍ فقط، تصير لها الأهليّة للتمتّع بحقوقها، الذاتيّة منها والمكتسبة.

وملخص القول: أنّها لو فعلت ذلك، لفتحت لها أبواب الرّحمة الأمريكيّة، على مصاريعها، ولصارت إذن واحدةً من الدول الكبرى، التي لها كلّ الحقّ أن تتدخل وتبدي رأياً في كافّة أزمات المنطقة.

ولمّن يقول عكس ذلك، نذكره بالشّاه الإيراني المخلوع، ألم تكن إيران في عهد بوّابة الشّرق الأوسط؟! ألم يكن الشّاه آنذاك مقدّماً على كلّ ملوك العرب وحكّامهم؟! ألم يكن شرطيّ الخليج في وقته؟!

فليست القضية إذن، مجرد أزمة سلاح نوويّ يُخشى من قيام إيران بتصنيعه، لتستخدمة فيما بعد في إرعاب أعدائها أو تهديد جيرانها، ولا هي قضية الحُكم ولا الهلال الشّيعي، ولا ولاية الفقيه، ولا الدّستور الذي يعتمد الإسلام وفقهه مرجعيّةً له، ولا (خنق الحرّيّات)!! التي يزعمون أنّ إيران تمارسه على شارعها ومواطنيها.

المسألة وراء ذلك كلّ، وأعمق من ذلك كلّ، إنّها مسألة الانقياد والتبعية والولاء السياسيّ الأعمى، التي ينبغي أن تُعلنها الجمهوريّة الإسلاميّة مبدأً لها. إنّها مسألة احتضان الجمهوريّة الإسلاميّة لكلّ حركات المقاومة.. إنّ الدّعم

السياسي والمعنوي، والمادي أيضاً، الذي لا تبخل به إيران على حماس والجهاد الإسلامي وسائر فصائل المقاومة في غزة وأرجاء فلسطين المحتلة، وعلى حزب الله في لبنان، وعلى القوى المناضلة في العراق.

إنَّ السَّرَّ، ببساطةٍ تامّة، يكمن هنا، فمصالح أمريكا ورببتها إسرائيل في المنطقة وفي العالم بأسره يتهدّد بها الخطر، كلّما ارتفع صوتُ حرٍّ واعٍ، من مكانٍ ما، ليُطالب بالعدالة والمساواة بين الدّول وترك الشّعوب لحقّها في تقرير مصيرها ونظام حُكمها وممثليها الشرّعيين.

نعم، هنا مربط الفرس، ولا سيّما أنَّ العالم، قد أفاق في الآونة الأخيرة، على أصواتٍ شريفةٍ تدعو إلى إزالة الكيان الصهيوني عن بُكرة أبيه، وتشدّد على حقّ الفلسطينيين باسترجاع كامل أراضيهم؛ لأنّهم أهلها وأربابها الأصليون، لقد أفاق الصّهاينة مؤخّراً على مَنْ يُذكّرهم بعقدتهم الكُبرى، وهي: أنّهم ليس سوى شتاتٍ، لا أرض قبلت أن تحويهم، وأنّ الأرض الطّاهرة التي يستوطنونها ليست لهم، وهم كانوا، في وقتٍ من الأوقات، ظلّوا أنّ الأُمّة قد نسيت أرضاً اسمها فلسطين، وتحيلوا أنّ احتلالهم لها صار شرعيّاً ومُستساغاً في الأذهان والعقول.

هذا كلّ ما في الأمر، ف (إسرائيل)، هذا الكيان الغاصب المُصطنع، باتت مهدّدةً في أصل وجودها، وأمريكا، أمّ الشرّ وأساسه، وقعت، نتيجةً لجنونها وتهوّرها، في مأزقٍ كبير، في العراق وأفغانستان، وأخيراً في لبنان. وأمّا كلّ العناوين الكبيرة البرّاقة الأخرى، التي يقرعون طبولها، فما هي إلّا وسيلةٌ إعلاميّةٌ رخيصةٌ يتبعونها لتضليل الرّأي العامّ، وقلوب الحقائق وتزييفها في عيونهم، وإثارة النّعرات الطّائفية والمذهبية، وتأليب دول الجوار عليها، وتحذيرهم منها. هذه هي الوجوه الزّائفة لسياستهم العالميّة، وأمّا الوجه الحقيقي لها فهو فنّ المكر والخديعة.

لقد كان كافياً حجم الضغوط والتحديات، وتعقيد المؤامرات التي تحيكتها القوى الكبرى لخصومها في المنطقة والعالم، كان كافياً لإنهاك واستسلام بعض من كان يُجَاهَر بالخصومة لهذه القوى، ومن هنا، وجدنا كثيراً من الدول، العربية وغيرها، وقد انخرطت في سلك الدول المعتدلة، بعد أن التزمت، وعلى حساب شعوبها وإراداتهم ولقمة عيشهم، بتوفير كافة الشروط المطلوبة منها، وتلبية جميع (التمنيات) والإيجاءات الأمريكية، وهي التي كانت من قبل قد قدمت العديد من الشهداء، وضحت بالكثير الكثير في كفاحٍ مريرٍ يهدف إلى الاستقلال والسيادة.

ولئن لم تلق هذه السياسات الكيدية والمؤامرات والضغوط نجاحاً في إخضاع الخصوم إخضاعاً تاماً، فهي، على أقل تقدير، تكفي، بزعمهم، لخلق العزيمة في نفوسهم، وإماتة روح المبادرة منهم، ليجد اليأس القاتل سبيله إلى نفوسهم، مما يؤدي في نهاية المطاف، إلى إرضائهم، أو انفلات زمام الأمور من أيديهم.

ولكن الذي لم يعرفوه، والذي يعجزون عن فهمه وإدراكه؛ لاستكبارهم وعنجهيتهم، هو أن هذا الكون لا يسير وفق مخططاتهم، مهما كانت مدروسة، وإن كان ظاهر الأمور يعمل لصالحهم، وأن هناك إرادةً علياً قاهرةً لكل الإرادات، مهما بلغت قوتهم أو امتد جبروتهم، وأن الدنيا تسير إلى أجلها المحتوم الذي قدره الله تعالى لها، وأنها لا يمكن أن تُخْتَم إلا بانتشار القسط، وسيادة العدل، وعندئذٍ فقط، يحل السلام الحقيقي، بعد أن تهدأ النفوس وتطمئن القلوب بالعودة إلى ربهم وشرعية نبيهم ﷺ، أليس الصبح بقريب؟! والذي لم يعرفه هؤلاء أيضاً، أن الله عبادةً يخشونه ولا يخشون أحداً إلا هو. وأن العزيمة التي في نفوس عباده لا ترقع أبداً ولا تنهزم ولا تلين.

وفي ضوء هذا السياق فقط، يُمكن لنا أن نقرأ ونحلل الكلام الذي استقبل

به وليّ أمر المسلمين الإمام السيّد عليّ الخامنئيّ عليه السلام الهجريّ الشمسيّ الجديد. حيث أطلق على هذا العام، وكعادته عند رأس كلّ سنة، اسماً جديداً، وعنواناً تقوم الجهات المختصة في داخل إيران، والمؤسسات المتعددة في مختلف القطاعات، على إرسائه وتطبيقه وجعله برنامجاً عملياً لها طيلة أيام ذلك العام. وفي الاسم الذي أطلقه عليه عليه السلام على هذا السنة الجديدة، وهو: (عام الإبداع والازدهار)، من التحدي والصمود والتصميم الراسخ الشيء الكثير.

فإيران الإسلامية، هذا البلد المحاصر الذي فرض عليه عقوبات العالم كلّه، والخطر الاقتصادي، والحرب النفسانية، وفي الوقت الذي يفترض بها أن لا تفكر فيما هو أزيد من ردّة الفعل على الحصار والعقوبات أو أن تستسلم، فهي ترفض ذلك كلّه، وتتفرض بقوة، لتعلن، على لسان قائدها، أنّ الخطّة التي رسمتها لنفسها في عامها الجديد خطّة فيها كلّ شيء إلا الرضوخ والخضوع والانحناء. وليس ذلك فحسب، بل هي خطّة تجاوزت مرحلة الدّفاع والانفعالات وردّات الفعل إلى مرحلة المبادرات، والأخذ بزمام الأمور، والتخطيط المدروس والمتقن والجديّ للمستقبل، الذي هو مستقبل كلّ الأمة وأبنائها.

ولما كان الخطاب الذي ألقاه الإمام القائد عليه السلام خطاباً نودّع فيه عاماً ونستقبل آخر، فقد رأى عليه السلام أن يستهلّ خطابه هذا باستعراضٍ لسير الأحداث التي جرت على مسرح العام المنصرم. فالنقد الذاتيّ ضروريّ لسلامة أيّ عملٍ ومسار، ومحاسبة النفس، مضافاً إلى كونها أمراً ملحقاً في معايير الآخرة وموازينها، فهي بحسب اعتبارات الدنيا أيضاً تشكّل أمراً في غاية الأهمية لمسيرة الإنسان وعمله فيها.

وبما أنّ عقيدتنا في التكليف أنّه يزيد على كونه مجرد خطابٍ شرعيّ يُخاطب به الإنسان الفرد، وأنّ الغرض منه لا يقف عند تنظيم السلوك الفرديّ والشخصيّ للإنسان، بل يتجاوز ذلك ويتخطاه ليكون خطاباً من الله تبارك وتعالى لعباده

كافةً، للإنسان في كل جوانبه وأبعاده، الفردية منها والاجتماعية، للإنسان الفرد والإنسان الأمة على حد سواء، كما تدل على ذلك آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الحاثية: ٢٨].

وبما أن الأمة أيضاً مكلفة، وبما أنها معرضة للحساب والجزاء، فإن محاسبة النفس ونقد الذات يُعد بالنسبة إليها أمراً واجباً وأساسياً، وبالاختبارين الديني والدنيوي معاً.

وكما أن الإنسان الذي يُحاسب نفسه قبل أن يُحاسب، إنسانٌ يُبعد نفسه عن الهلاك ويعرضها للنجاة والسعادة، فكذلك محاسبة الأمة لنفسها، تضمن لها السلامة في هويتها ووجودها، وتتكفل لها الديمومة والبقاء في مبادئها وقيمها. والأمة التي تُحاسب نفسها وتوجه سهام النقد لذاتها، هي أمةٌ تتدفق فيها حيوية الروح، ويخفق قلبها بنبض الحياة. ومن علائم الحياة ومؤشرات السلامة في هذه الأمة، أن تبدأ المحاسبة فيها من رأس الهرم، من قائدها الذي أمنتته هذه الأمة على نفسها وحملته أعباء مسؤوليتها.

والمحاسبة، كما هو معلوم، لا تعني الوقوف مطوّلاً عند الحسنات والأموال الإيجابية، وقوفاً يُراد منه التباهي والتفاخر والاعتزاز بالنفس، كما أنها، في الوقت عينه، لا تعني الاقتصار على السلبيات والنواقص والبكاء عند أطلالها. بل المحاسبة الناجعة، موازنةٌ ومعادلةٌ دقيقة، يمتزج فيها الحث على مواصلة السعي لتوفير المزيد من المزايا الإيجابية والحفاظ على ما تمّ إنجازه منها، - يمتزج ذلك - بالتفكير المليّ والهادئ في المخارج والحلول الملائمة للمآزق والمشاكل الطارئة، وفي كيفية سدّ الثغرات ومعالجة مواضع الضعف.

قال الإمام الخامنّي رحمته الله:

«لِنَلْقِ نَظْرَةً عَابِرَةً عَلَى عَامِ ١٣٨٦، وَأُخْرَى سَرِيعَةً عَلَى سَنَةِ ١٣٨٧. لَقَدْ

كان عام ٨٦ عاماً مهماً وزاخراً بالأحداث وبواعت العزة للشعب الإيراني. ففي بداية هذا العام تمّ إلقاء القبض على البحارة الأجانب، الذين اعتدوا على بلادنا، ومن ثمّ تمّ العفو عنهم وإطلاق سراحهم، وهو الحدث الذي أعزّ شعبنا الكريم وجعل له في العالم وجهاً قوياً مقتدرًا، وفي الوقت عينه، صبوراً ومتسامحاً.

وأما في نهاية العام، فقد جرت الانتخابات الشعبية الجماهيرية الكبرى لنواب الشعب وممثليه في مجلس الشورى الإسلامي، لتشكل حدثاً كبيراً أمام أنظار العالم المدهوشة، ومصيرياً للشعب الإيراني على مدى أعوام أربعة. وقد كشف شعبنا العزيز في هذا الحدث - أيضاً - عن عظمته وقدرته، ومشاركته الفعّالة، وعزيمته الجادة لإدارة البلاد بشكل صحيح، والمساهمة في ميادين إدارة البلد.

وعلى امتداد سنة ٨٦، تمّ إنجاز أعمال قيّمة من قبل مسؤولي البلاد، من الحكومة والمجلس والمسؤولين في جميع القطاعات المختلفة، إلى جانب مشاريع كبيرة من قبل أبناء الشعب والاتحادات العلمية، ومنظمات الطلاب الجامعيين، الذي أسهم في إحراز تقدّم في مختلف الميادين والصّعد؛ وكذا بالنسبة إلى حالات التقدّم العلمي، والعمراني، وأعمال البناء المهمة التي أحيت القطاع العمراني للبلاد...

وقد كانت هناك على مرّ السنة خسائر ووفيات وإخفاقات طبعاً، سواء بخصوص البرامج المتنوعة أو بخصوص فقدان بعض الشخصيات العزيزة.... والمهم في هذا الإطار، هو أنّ يستطيع الشعب، في غمرة هذه الأحداث المتنوعة، رؤية أهدافه بشكل واضح واجتياز خطوات واسعة نحوها...»^(٢).

وأما استقبال المولود الهجري الشمسي الجديد، فقد اعتبر الإمام القائد أنّ الطموحات والآمال الكبيرة معقودة فيه على الدولة، بمختلف قطاعاتها ومؤسساتها، للعمل المتواصل والسعي الدؤوب والمثابرة الدائمة، محملاً إياها المسؤولية الكاملة في تحمّل أعباء هذا الجهد المضني، مشيراً إلى أنّ عليها أن

ترتقي إلى مُستوى تلك الآمال والطموحات.

والمُلفت في الأمر، أنّه ﷺ يصف عمل الدولة بوصفٍ لم يألفه سياسيو العالم السياسي المعاصر، في مختلف البلدان والدول، ولا هو من المصطلحات المُعترف بها في شيءٍ من مفردات السياسة الدوليّة وأدبيّاتها، وهو وصف (الخدمة). فالدولة المسؤولة، إنّما هي الدولة التي تكون علاقتها بشعبها علاقة الخادم بالمخدوم، والمسؤول مسؤولٌ لأنّه يُخدم الناس فقط، وعلى قدر الخدمة تكون المسؤوليّة.

إنّ كلّ من يتصدّى وي طرح نفسه لتولّي منصبٍ ما، عليه أن يستحقّه وأن يكون لائقاً وأهلاً له، والذي يجعل له هذه اللياقة والذي يُكسبه هذه الجدارة والأهليّة شيءٌ واحد، وهو خدمته للناس الذين وضعوا فيه ثقتهم وجعلوه قيّاً على شؤونهم ومتولّياً لأموالهم.

وفي هذا الكلام، توعيةٌ للجماهير وتنبيةٌ للرأي العام، بأن يكونوا على حذرٍ في خياراتهم الوطنيّة، وأصواتهم التي يدلّون بها في صناديق الاقتراع، فإنّهم هم صنّاع الوطن، وعلى أصواتهم وخياراتهم هم تُبنى الدولة وتنهض وتقوم، وقد ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «كما تكونوا يُولّى عليكم»^(٣).

ولا يتمّ للدولة، ولن يتسنى لها، أن تكون على قدر المسؤوليّة، إلّا بالبرمجة للأعمال والتخطيط للمشاريع المثمرة، بحكمةٍ ووعيٍ وتدبير، متحرّيةً في ذلك أقصر الطرق وأفضلها وأسرعها إيصالاً إلى المطلوب.

«... إذ ليس بوسعنا السّير ببطءٍ وبنحوٍ عاديٍّ، بل علينا التحرك بسرعةٍ مدروسةٍ ومنظّمةٍ ومنضبطة، وإنجاز المشاريع التي ستبقى دُخراً للأجيال القادمة».

فالعالم اليوم، يشهد سباقاً مُنقطع النظير على مصادر الطّاقة ومنابعها، في ضوء الكثير من التقارير والدّراسات التي تؤشّر إلى نزوب آبار النّفط خلال

مدّة لا تزيد على المائة عام، وصراعاً حاداً على نهب ثروات الشعوب، وتنافساً أعمى بين الشركات الرأسمالية الكبرى، تنافساً لا يرى في الإنسان إلا مُستهلكاً غيباً لمتوجاتها ومشروعاً تجارياً واستثمارياً، ولا يُمكن أن ينتج عن هذا التنافس أو ذاك الصراع أو ذلك السباق، إلا أن يزداد الفقير فقراً واستضعافاً، والغني غنىً واستكباراً. وهذا ما يُنذر بالخطر الوشيك، الخطر الذي إن لم نشهده نحن، وإن لم نعاينه أو نُصب به بأنفسنا، فإنه خطرٌ يهدّد مُستقبل أولادنا ومصير أحفادنا وكلّ الأجيال الآتية.

وفي مواجهة هذا الخطر الذي يطعن البشريّة في الصّميم، فلا يكفي مجرد العزم على المواجهة، بل، ولا تكفي المواجهة نفسها، وإنّا نحتاج إلى مواجهة نوعيّة تواكب هذه المنافسة، وتضمن لنا موطئ قدمٍ في هذا العالم وأسواقه المفتوحة، مواجهة فاعلةٍ تسير على وقع خُطى مدروسةٍ وعلى وتيرةٍ منظّمة، ولكنها سريعةٌ في الوقت عينه، لا سيّما، وأنّا الآن نرى أنفسنا متأخرين فعلاً عن هذا الدّولاب الاقتصاديّ الدّائر بسرّعة هائلة، ممّا يُحتّم السّعي الحثيث والتحرّك للتعويض عن تخلف السّنوات الطويلة الماضية التي سبقت الثّورة الإسلاميّة، حين كان الطّواغيت المتسلّطون على البلاد والعباد، يُنفقون أموال الخزينة العامّة وكلّ ثروات الدّولة وقدراتها على ملذّاتهم ومصالحهم الشخصيّة، وعلى صداقاتهم الخارجيّة، في مقابل مناصب وهميّة كانوا يمتنون النّفس بها، ورهاناتٍ خائبةٍ على دعمٍ خارجيّ يُتيح لهم التّشبّث بكراسيهم إلى أبد الآبدين. وهذا ما لم يكن، ولن يكون، لأيّ طاغيةٍ أو نفعيّ متهتِك مُستَقوٍ بالأجنبيّ الطّامع على شعبه وناسه. وهذا من السّنن التاريخيّة المحتومة.

هذا على الصّعيد الإنمائيّ والداخليّ.

وأما على الصّعيد الدّوليّ المعقّد - والذي لا ينفكّ عن الوضع الداخليّ بل تنسحب ذيول النّجاح فيه لتنعكس نجاحاً في الدّاخل أيضاً - فعلى الجهود

والمساعي المبذولة فيه أن يتم التخطيط لها والعمل عليها، وذلك:

«حوّل مدار التدبير والشّجاعة والعزّة؛ لأنّنا إذا نجحنا في هذا الميدان فسيترك هذا النجاح تأثيراته على النجاحات الدّاخلية والتقدّم الكبير للشّعب الإيراني. ومن حُسن الحظّ أنّ مسؤولي البلاد يضعون نصب أعينهم العزّة الوطنيّة ويأخذونها بعين الاعتبار، ويعلمون تماماً أنّ الاستسلام والتراجع ليس هو السّبيل للنّجاة من أطماع الأعداء. فإنّ العدو إذا كان يتصرّف على أساس منطق القوّة والاعتصاب، فمن الواجب إذا أردنا أن نتقدّم ونمضي قدماً أن نواجهه ونقف في وجه أطماعه».

وأما الحلّ الوحيد للأمة الإسلاميّة لكي تُحافظ على بقائها، وتسمو بأهلها وأبنائها، في ظلّ هذه الأجواء المتوتّرة، وهذه الاصطفافات الهائلة، والهجمات الشرسة على الإسلام ونبّه الكريم ﷺ، فيكمن بالرجوع إلى القرآن الكريم، إلى قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فلا خير في أمة ضعيفة مُستَكينة. والقوّة والافتدّار في عالم كالذي نعيش فيه، هي الضّمان الوحيد للبقاء والاستمرار، والإعداد المُستمرّ والجهوزيّة في أعلى مُستوياتها، هو الحاجز الوحيد القادر على ردّ الاستكبار العالميّ عن الاستمرار في محاولاته الهادفة إلى نهب هذه الأمة وإخضاعها واستعمار أراضيها وشعوبها.

«الحلّ يكمن في التوفّر على الاقتدار. والاقتدار هنا، لا ينحصر في نطاق الاقتدار العسكريّ فقط، بل علينا أيضاً التوفّر على الاقتدار العلميّ، والاقتصاديّ، والأخلاقيّ والاجتماعيّ. وفوق كلّ هذا، فلا بدّ من إحراز الاقتدار المعنويّ والروحيّ الذي يتأتّى للشّعب بالاتّكال على الله تعالى».

وفي خطابه الذي ألقاه على جمعٍ من أهالي مدينة مشهد المقدّسة^(٤)، يقول ﷺ:

«إنّ مطالب المواطنين من المسؤولين في السّلطات الثلاث يجب أن تتمحور

حول تقدّم البلاد في مختلف المجالات، من توليد الثروة وزيادة الانتاجية، إلى الوحدة الوطنية وتحقيق المكاسب العلميّة والتقنيّة، إلى تعزيز الأخلاق والمعنويات، إلى التقليل من الفوارق الطبقيّة، وتحقيق الرخاء، والتحلي بالانضباط الاجتماعي والشّعور بالمسؤولية، لنشر الأمن الأخلاقي، والوعي والنضج السياسي، إلى تعزيز الاعتماد على الذات».

وإذا كان الاقتدار المطلوب للمواجهة اقتداراً وتنميةً على كافّة المستويات والصّعد، فلا يُمكن له أن يتحقّق إلاّ بالتعاون والتنسيق التامّ بين مختلف شرائح الوطن ومؤسساته وأفراده، فلا بدّ للشّعب أن يكون مُنضبطاً داعماً الدّولة ومسهلاً عملها، وعلى كلّ فردٍ من المواطنين، أن يمتلك الوعي الكافي والحسّ الوطنيّ لتحمل مسؤوليّاته، كلّ على قدره وبحسب طاقته. والدّولة من جانبها، عليها أن تكون متفهمّة لشعبها واحتياجاته، عاملةً على تهيئة جميع أسباب الرّفاهية والرّاحة له، حريصةً على خدمتهم جاعلةً من همومهم هموماً لها.

«إذا أردنا التقدّم وتحقيق الأهداف، فعلى الشّعب والحكومة أن يمدّوا لبعضهم أيادي الودّ والتعاون الكامل.

وقد كان الشّعب دوماً، والحمد لله، سنداً ودعامة للمسؤولين، وينبغي استمرار هذا الدّعم أكثر فأكثر، وتكريس حالة التعاون بين الجماهير والحكومة، وهذه دعوة موجّهةً إلى مختلف شرائح الشّعب: علماء ومثقّفين وباحثين، طلبةً وجامعيين، عمالاً ومزارعين، رجال أعمالٍ ومستثمرين ...، إلى مدراء القطاعات المختلفة والمؤسسات الحكوميّة والأهليّة.

فعلى هؤلاء جميعاً أن يشعروا بأنّ الأعباء الثقيلة لتقدّم البلاد تقع على كواهلهم، وأنّ هذا تكليف إلهيّ وجماهيريّ تعود ثماره على الجميع، وسيستفّع منه الجميع خصوصاً الذين ينهضون به على أحسن وجه».

وجاء في مقطعٍ آخر من كلامه في مدينة مشهد:

«إنَّ استثمار أصحاب المال في القطاعات الإنتاجية وتوليد الثروة في المجتمع، هو أحد العبادات التي يُثاب عليها، ويجب تعميم هذه الثقافة في كافة أنحاء المجتمع. هذا إلى جانب ضرورة أن تُفسح سُلطة البلاد المجال لجميع الطبقات والشرائح للاستفادة من ريع هذه الاستثمارات».

ولدى استعراضه لأهم الأسباب التي دعت إلى تسمية العام الجديد بعام الإبداع والازدهار، أشار سماحته إلى الإبداع التاريخي والعظيم للشَّعب الإيراني المتمثل بانتصار الثورة الإسلامية، وأضاف:

«إنَّ انتصار الثورة الإسلامية أزال الخطَّ الباطل الذي كان يُقسِّم بلدان العالم، على مدى الأعوام الماضية، إلى قسمين: فإمَّا حاكمٌ، أو محكوم. وقد أعلنت الجمهورية الإسلامية بكلِّ قوَّة معارضتها صراحةً للنزعة السلطوية بكافة أشكالها».

ثمَّ أشار سماحته إلى أنَّ النِّظام الإسلاميَّ صمد بجداره خلال العقود الثلاثة الماضية أمام القوى المتطرفة، منوهاً إلى أنَّ هذا الصِّمود كان هو السَّبب الذي أدَّى إلى تغيير أوضاع الشَّرق الأوسط وقلبها لصالح الشُّعوب في مواجهة القوى السلطوية، وقال:

«إنَّ منطقة الشَّرق الأوسط، التي كانت فيما مضى مرتعاً يصول فيه المستكبرون والأمريكيون، ويستعرضون فيها عضلاتهم، قد تحوَّلت اليوم إلى متحفٍ تُعرض فيه هزائمهم التي تكبَّدوها على أيدي الأحرار من شعوب المنطقة».

وإذَّ أشار إلى أنَّ النِّظام الإسلاميَّ على أعتاب الدَّخول في العقد الرَّابع، فقد اعتبر آية الله الخامني أنَّ من أهمِّ العناصر التي ينبغي العمل على إرسائها في هذه المرحلة الزَّمنية الجديدة هما التقدُّم والعدالة جنباً إلى جنب:

«فأمَّا العدالة بدون التقدُّم، فهي تؤدِّي إلى المساواة، ولكنَّ في الفقر، وأمَّا

التقدّم بدون عدالة، فهو ليس جيّداً أيضاً؛ لأنّه لا يُعطي النتائج المرجوة، إذ يجب إلى جانب تحقيق الرّخاء والتقدّم الاجتماعيّ، تقليل الفوارق الطبقيّة، وتمهيد الأرضيّة أمام جميع أصحاب المواهب والكفاءات للتحرّك والعمل والإنتاج، وبشكلٍ متساوٍ. وفي مثل هذه الحالات، يجب ألاّ نكتفي بالحلول الغربيّة، ولا يصحّ لنا أن نعتبرها المخرج الوحيد، بل علينا اللّجوء إلى الإبداع وإلى الاستفادة من الاقتراحات والأفكار الحداثيّة».

وفي ختام الكلام، كان لا بدّ للإمام الخامنائيّ، وهو القائد الخبير بحاجات الأمّة وهموم النّاس والقضايا المعاصرة التي تُثار، والفتن المُفتعلة التي تُحاك، كان لا بدّ له أن يتعرّض للرّدّ على مزاعم الأعداء المتربّصين بالأمّة شرّاً. وأهمّ هذه المزاعم والأكاذيب الباطلة اثنان:

أ. الإرهاب الفكريّ الذي يمارسه النظام الإسلاميّ في الجمهوريّة الإيرانيّة، وخنق الحرّيّات، والاعتداء على حقوق الإنسان، وانعدام الديمقراطية، وتصفية رموز المعارضة، و... إلخ، من العناوين البرّاقة. وجاء الرّدّ قوياً قاطعاً: فلسنا نحن الذين قُمنا ببناء المعتقلات والسّجون السّريّة في (غوانتانامو)، ولا نحن الذين عرّفنا بممارساتٍ يندى لها الجبين في معتقل (أبو غريب)، ولا نحن الذين نموّل الكيان الصّهيونيّ ونرفده بالأطنان من الصّواريخ والقذائف (الدّكيّة) التي تستهدف المدنيّين والأمين في العراق وفلسطين ولبنان، ولا نحن الذين نسيء إلى أديان النّاس ومعتقداتهم وأنبيائهم ومقدّساتهم، ولا نحن صنعنا (القاعدة) لأغراضنا المشبوهة، فلمّا خرجت الأمور عن السّيطرة وأفلتت من عقابها عدّنا لندمر العراق وأفغانستان على رؤوس النّاس، ولا نحن من أغرق العراق بالشّركات الأمنيّة، ولا نهبنا النّفط العراقيّ ومتحفه الوطنيّ، ولا نحن وراء كلّ الحروب والأزمات في العالم من أقصاه إلى أقصاه، ولا ...

وفي الدّاخل أيضاً، فلسنا نحن الذين نستغفل شعبنا ونخدّره وننفق الأموال

والمليارات لإلهائه وإبعاده عن كل الشؤون التي تهم الإنسان وتعنيه في إنسانيته وكرامته، مهما كان وطنه أو لونه أو عرقه أو انتماءه الديني أو السياسي. ولسنا نحن أيضاً الذين أقرّوا قانوناً للتنصّت على مكالمات الناس الهاتفية التي تتدخل في خصوصياتهم، ولسنا ولسنا..

«لقد كشفت الإحصائيات الرسمية أنّ الإدارة الأمريكية، وخلال الأعوام الستة الماضية، قامت باستجواب حوالي ٣٢ مليون شخص في هذا البلد، وتنصّت على مكالماتهم الهاتفية، وحال رئيسهم أيضاً دون تمرير قانون حظر التعذيب. وبعد كل هذا، فكيف يُمكن لهذه الدولة التشدّد بالدّفاع عن حقوق الإنسان؟!».

ثم التفت سباحته إلى الأوروبيين، الذين يتغنّون بالدّفاع عن حقوق الإنسان بشكل أو بآخر، لماذا يصمتون حيال السجون السريّة التي أقامتها أمريكا على أراضيهم، ألا تُشكّل هذه السجون انتهاكاً صارخاً لحقوق الإنسان. وتابع قائلاً:

«إنّ الغربيين الذين يثيرون الفوضى بمجرد توجيه أيّ سؤال حول المحرقة النازية (الهولوكاست)، لماذا لا يُعربون عن معارضتهم للإساءة إلى النبي الأكرم ﷺ بل ويتمشون معهم».

وإذ نصّحهم باستخلاص العبر من كراهية الرأى العامّ العالميّ لأمريكا والكيان الصهيونيّ الغاصب، دعاهم إلى الانضمام إلى صفوف جبهة الحقّ التي رأى أنّ عليها تشكيل صفّ موحدٍ في مواجهة هيمنة أمريكا والصّهاينة والأطماع التوسّعية التي ستطأهم هم بدورهم.

أولاً يعتبرون بالرئيس البريطانيّ السابق (طوني بلير) رئيس وزراء بريطانيا (العظمى)، الذي لم يستطع السيّد الأمريكيّ وطاغية العالم المجنون (جورج بوش جونيور)، أن ينتظر بعد استقالته، بل إقالته، ما يزيد على ساعاتٍ قلائل

لكيل له (المدائح) المهينة والمذلة، بقوله: «طوني بلير ليس كلبى المدلل، إنه أكثر من ذلك»، فهنيئاً له بهذا المنصب الجديد؟!!

وأما مزاعم ديمقراطيتهم الزائفة، فقد انكشف كذبها وزيفها: «لأنهم يضربون الناس بيدٍ من حديد في أية منطقة في هذا العالم تُعلن معارضتها لآرائهم، وخير دليل على ذلك: حكومة حماس الشعبية - بامتياز - في فلسطين».

ب. الفتن المذهبية والطائفية، التي أعلنت إيران رفضها الجدّي لها، بجهودها المستمرة والمتواصلة، في الحيلولة دون الفرقة، والتقريب بين المذاهب، والعمل على المشتركات بين فقهاء الإسلام، الذين هم حصون هذه الأمة وحماها. منهاً الأمة جمعاء، إلى أن عدوها المشترك، المتمثل في الصهيونية العالمية، التي تُعلن بُغضها لأهل السنة الشرفاء والمجاهدين بنفس القدر والمستوى الذي تُعلن بُغضها للمجاهدين من إخوانهم من الشيعة، هذا العدو المشترك، يفرض عليهم التوحد لتعزيز موقفهم، وإعلاء شأنهم.

والكلمة التي ختم سماحته بها كلامه، هي:

«إنّ العالم الإسلاميّ اليوم هو أخوج ما يكون إلى الوحدة والاتحاد». وأخيراً، وليس آخراً، نسأله تعالى أن يُعلي شأن أمتنا بين الأمم، وأن يوحدنا لمواجهة أعداء دينه ونبيه ﷺ؛ لنعود بذلك أمة وسطاً كما أراد ربنا، إنه سميع مجيب.

* * *

الهوامش:

(١) نهج البلاغة، الخطبة: (٢٧)، ص: ١٣، نسخة المعجم المفهرس، الطبعة الرابعة ١٤١٥، نشر:

- مؤسسة النشر التابعة لجامعة المدرسين، قم.
- (٢) الخطاب الذي ألقاه الإمام القائد السيّد عليّ الحسينيّ الخامنئيّ دامت ظلته بمناسبة رأس السنة الشمسيّة من الهجرة النبويّة صلى الله عليه وآله، وذلك يوم الخميس الموافق ١٢ ربيع الأوّل ١٤٢٩ هـ.
- (٣) السيوطي، جلال الدين، الجامع الصّغير في أحاديث البشير النّذير ٢: ٢٩٤، الحديث: (٦٤٠٦)، الطّبعة الأولى ١٤٠١، دار الفكر، بيروت.
- (٤) أيضاً بتاريخ: ١٢ ربيع الأوّل ١٤٢٩ هـ، وفي حشدٍ غفيرٍ من زوّار الإمام الرّضا عليه السلام وأهالي مدينة مشهد المقدّسة.

وقفه

مع الدكتور البراك

□ العلامة الشيخ محمد مهدي الأمشي (*)

توطئة:

على أعتاب المؤتمر العالمي للوحدة الإسلامية بطهران؛ أجرت صحيفة (المدينة) مقابلة مع الأستاذ الشيخ محمد بن سليمان البراك، أحد مدرّسي جامعة (أم القرى) في مكة المكرمة حول مشروع الوحدة الإسلامية... فكان ممّا قال البراك: إني أتحدّى الشيعة إذا أثبتوا أنّهم قد أخذوا عن أحدٍ من آل البيت عليه السلام شيئاً من عقائدهم التي يختلفون فيها عن الآخرين.

دعاة التفرقة والاختلاف

قرأت المقالة التي نشرتها جريدة (المدينة) كلّها، فوجدت فيها مجموعة من الاتّهامات للشيعة، مثل اتّهامهم بمخالفة الكتاب والسنة، إلخ. وهو ممّا يُثير

(*) عالم دين، ومفكر إسلامي كبير.

طائفةً كبيرةً من المسلمين، ويؤدّي إلى بلبلةٍ وتراشقٍ في الصّفّ الإسلامي، وذلك على أعتاب قيام مؤتمر الوحدة الإسلامية في طهران.. ووجدت أنّ هذه المقابلة تخدم المشروع الاستكباري (الأمريكي - الإسرائيلي)، القائم لإحداث فتنة طائفية، وشرح في الصف الإسلامي، الأمر الذي يسهل مهمّتهم في بسط نفوذهم في العالم الإسلامي، من حيث يشعر الكاتب أو لا يشعر ولا يقصد.

كما وأنّ اللغة التي يستخدمها كاتب المقال لغةً استفزازيةً مثيرةً للخلاف والفتنة بين المسلمين... الأمر الذي تسعى إليه أمريكا وإسرائيل والغرب عموماً، وتجذ فيه بغيتها في إلقاء المسلمين بالتناحر والتراشق المتبادل فيما بينهم؛ لتستطيع هذه الأنظمة المناوئة للإسلام أن تمرّر من خلاله مشاريعها السياسية والعسكرية والاقتصادية في العالم الإسلامي. والحال أنّ الله تبارك وتعالى قد دعانا إلى غير هذه اللّغة والأسلوب.

لقد اختبر الغرب سياسة (الفتن والتناحر المذهبي فيما بين المسلمين)، منذ أيام الاحتلال الإنكليزي لمناطق واسعة من العالم الإسلامي، وإلى اليوم، ووجدوا فيها فرصة ذهبية لبسط نفوذهم في العالم الإسلامي، وورث الأمريكان من الإنكليز هذه السياسة، وتمادوا، وأمعنوا في استخدامها.

دعاة الاعتصام بالله واللقاء:

وقد عرف علماء عاملون صالحون ومصلحون، من السّنة والشيعّة، هذا المنهج السياسي، الذي سلكه الإنكليز أمس، ويسلكه الأمريكان اليوم، وعملوا على مكافحة هذه السياسة وإحباطها، وإزالة جدار الفصل الطائفي، وإشاعة ثقافة التقريب والوحدة بين المسلمين، ودعوا إلى اللقاء والتفاهم في المسائل الفقهية والعقائدية، وتوحيد الموقف السياسي مثل: السيد حسين البروجردي

من إيران، والشيخ محمد شلتوت من مصر، والسيد عبدالحسين شرف الدين من لبنان، والإمام الخميني من إيران، القائد الراحل للثورة الإسلامية، والشيخ حسن البنا من مصر، والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء من العراق، والسيد علي الخامنئي (قائد الثورة الإسلامية)، من إيران، وآخرون من أعلام المسلمين المعاصرين، رحم الله الماضين منهم، وحفظ الباقين.

وكان من نتائج هذه الحركة المباركة: قيام مشاريع ومؤسسات ثقافية وسياسية للدعوة إلى التقريب، في كل من: القاهرة وإيران ولبنان والعراق وأفغانستان وباكستان والهند، وغيرها من بقاع العالم الإسلامي، وأقاموا لهذه الغاية مؤتمرات ولقاءات ومشاريع متنوعة تخدم إرساء الوحدة والتقارب بين المسلمين.

وقد أفلحت هذه الدعوة، وحقق أهدافها. وكللها قيام الجمهورية الإسلامية في إيران، بقيادة الإمام الخميني رحمته الله، وانتصار حزب الله في لبنان على إسرائيل مرتين خلال فترة قصيرة، وقد استقطب هذان الحدثان وغيرهما مشاعر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، والتقى المسلمون على اختلاف مذاهبهم في الاحتفاء بهذين الحدثين، وتعاطفوا معهما، كما تعاطف المسلمون جميعاً مع انتفاضة الحجارة والمقاومة الإسلامية المسلحة في فلسطين، ووجدوا فيها النهج الإسلامي الصحيح لإزالة الاحتلال من فلسطين.

وكانت هذه الأحداث واللقاءات والمشاريع تتكرر وتتلاقح في العالم الإسلامي، وتوحد صفوف المسلمين ومواقفهم ومشاعرهم.

عودة المشاريع الاستكبارية إلى إثارة الفتنة بين المسلمين:

ولقد أحسّ بذلك الاستكبار الأمريكي وإسرائيل والأنظمة المناوئة للإسلام، من جانب، والأنظمة الحاكمة المرتبطة بعجلة الاستكبار في العالم

الإسلامي، من جانب آخر، ووجدوا فيها خطراً كبيراً على مصالحهم، وعلموا أنّ هذه الأمة الكبيرة إذا اتّحدت ووحدت مواقفها السياسية، فسوف لا يبقى لهم موضع قدم في العالم الإسلامي.

فبدأت هذه الأنظمة بالتخطيط لإحباط المشروع التقريبي الوحدوي الإسلامي، واحتضان مثيري الفتنة المذهبية بين المسلمين، وظهرت كتب، وصحف، وفصائيات، وخطابات، ومؤتمرات، ولقاءات، تروّج للفتنة والتراشق بين المذاهب الإسلامية، وتدعو إليها، وتعمل على إشاعتها في كلّ مكان. وكانت هذه الأنظمة، في الغرب وفي العالم الإسلامي تمّول هذه الدعوات والمشاريع الطائفية، وتحتضنها، وتوظّف لها محطّاتها الإعلامية. وككلّ بناء وهدم: البناء شاقّ عسير، والهدم سهل يسير...

وقد وجدت هذه الأنظمة في أعمال التّخريب، التي يقوم بها دعاة الفتنة والتقاطع والخلاف بين المسلمين، الأداة المفضّلة لها لإحباط المشاريع الوحدوية والتقريبية التي نهض بها دعاة الإصلاح في العالم الإسلامي من السنّة والشيعة، ووجدوا في ذلك أسلوباً سهلاً مريحاً لمصادرة جهود العاملين والمصلحين في العالم الإسلامي في التقريب والتوحيد.

وآخر ما قرأناه في هذا السياق: مقابلة أجرتها صحيفة (المدينة) مع الأستاذ الشيخ محمد بن سليمان البراك، عضو هيئة التدريس بجامعة أمّ القرى وكلّية الدعوة وأصول الدين، يوجّه فيها طائفة من الاتّهامات لشيعة أهل البيت عليهم السلام، جزافاً، ومن دون استنادٍ إلى دليلٍ علميٍّ، وفي طرحٍ غير علميٍّ لا يناسب المواقع العلمية التي يحتلها صاحب المقابلة.

وليس لنا أن نتهّم كاتب المقال بنية الإثارة والفتنة والتخريب، ولكنّ المقال يقع في هذا السياق بالتأكيد، حتى لو لم يقصد صاحبه ذلك.

وفيما يلي، نتوقف عند نقاط الاتّهام التي يذكرها الشيخ البراك في مقابلته،

ونناقشها بإيجاز واختصار:

ضوابط التقريب

يقول البراك: «الكُلُّ ينادي بالتقريب بين المذاهب، خاصة مع الشيعة، ونبد الخلافات، فهل يُترك الأمر على إطلاقه؟ أم لا بدّ من ضوابط ينبغي أن تراعى في هذا التقريب؟»

أقول: هذا كلامٌ صحيح، لا يرتاب فيه أحد. ودعاة التقريب من الشيعة والسنة لا يدعون إلى تقريبٍ من دون ضوابط ولا أصول.

ولكن ما هي هذه الأسس والضوابط؟

يقول البراك: «وقد تقدّم أنّ أساس الوحدة والتقارب هو القرآن والسنة ثم فهم الصحابة لهما، وكُلّ هذه الأسس يخالف فيها الشيعة بقية المسلمين». ومعنى ذلك: أنّ أسس التقريب ثلاثة، الكتاب والسنة، وفهم الصحابة للكتاب والسنة..

والشيعة يخالفون أهل السنة في الثلاثة جميعاً...

أقول: أمّا افتراؤه على شيعة أهل البيت عليهم السلام بأنّهم يخالفون أهل السُنّة في حجية الكتاب والسُنّة، فحسابه مع الله، يحاسبه على هذا الافتراء العريض لأُمّة من المسلمين، يشهدون أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، ويعملون بالكتاب والسنة، ويتلون القرآن ويدعون إليه، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وأما الأساس الثالث للتقريب والوحدة، وهو: فهم الصّحابة للكتاب والسُنّة. فلا بدّ أن نتوقّف عنده بعض الشيء، ونسأله عن دليل حجّية فهم الصّحابة للكتاب والسُنّة، كما يقول البراك، ولا أقول: روايتهم، فإنّ روايتهم عن رسول الله صلّى الله عليه وآله عندنا مقبولة، ونأخذ بها إذا كان الصحابيّ عدلاً. ولم تثبت

عندنا عدالة الصحابة جميعاً. ونحن نشترط في صحة الرواية عدالة الراوي. ونحن نعتقد ونقول بحجية خبر الواحد، فلا نتوقف عند قبول رواية الصحابة إذا ثبتت عدالتهم.

وأما الذي نتوقف عنده ونساءل عنه، فهو حجية رأيهم في فهم الكتاب والسنة، وهو الأساس الثالث للوحدة والتقريب بين المسلمين في كلام البراك. فأقول: إن رأي الصحابة في الكتاب والسنة لا يزيد على أن يكون اجتهاداً منهم في فهمها... ولا نشك أن في الصحابة مجتهدين.

ولكن لماذا نحصر الاجتهاد في فهم الكتاب والسنة فيهم؟ ولماذا نغلق أبواب الاجتهاد في فهم الكتاب والسنة على أنفسنا؟ وهل هناك دليل من الكتاب والسنة يحظر الاجتهاد على الآخرين من دون الصحابة؟

ثم ماذا نفعل عندما يختلف صحابيان في فهمهما للكتاب والسنة؟ فبأي رأي من الرأيين نعمل؟

لقد اختلف الصحابيان، أبوذر وعثمان بن عفان في منهج التصرف بأموال بيت المال، فكان يرى الخليفة أن من حقه أن يبر بأموال بيت المال أهله وعشيرته من بني أمية أمثال مروان بن الحكم وآل الحكم وأبي سفيان والوليد وغيرهم، وكان أبوذر رضي الله عنه ينكر عليه ذلك... وقد نفاه معاوية من الشام، ونفاه عثمان من المدينة، ومات في المنفى، فأَي رأي نأخذ؟!

وقد اختلف الصحابيان عبد الله بن مسعود والخليفة عثمان بن عفان، فألقى ابن مسعود مفاتيح بيت المال عندما طلب منه الوليد بن عقبة أن يطلق يديه في أموال بيت المال، فامتنع عليه ابن مسعود، وغضب عليه الخليفة، فاستدعاه إلى المدينة، وأمر بضربه في المسجد ضرباً مبرحاً، وأخرج من المسجد؛ لأنه امتنع عن أن يدفع إلى الوليد بن عقبة ما يشاء من بيت المال.

فبرأي من نأخذ؟ أبرأي ابن مسعود أم برأي الخليفة؟ وهما صحابيان، لا نشك في ذلك.

وقد اختلف عمار بن ياسر والخليفة في بعض تصرفاته بيت المال، فأمر الخليفة بضربه حتى أغمي عليه، فبرأي من نأخذ؟! بل لا نشك أن فهم الشيخين أبي بكر وعمر كان يختلف عن فهم الخليفة عثمان بن عفان للكتاب والسنة بخصوص بيت المال وحق ولي الأمر في التصرف فيه؟

فبأي رأي نأخذ، رأي عثمان أم رأي الشيخين قبله؟ وإذا اقتتل الصحابة، فكان علي عليه السلام وجمع كبير من أصحاب رسول الله ﷺ في جانب وطلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وجمع من الصحابة في جانب آخر، فبأي هدى نأخذ؟

واققتل علي عليه السلام، ومعه جمع كبير من أصحاب رسول الله ﷺ... و معاوية وعمر وبن العاص، وهما من أصحاب رسول الله ﷺ، ومعهما جمع من أصحاب رسول الله ﷺ، ومعهم عبد الله بن عمر وابن العاص تقاتلوا طويلاً، وسقط جمع غفير من المسلمين من أصحاب القبة شهداء وقتل في هذا القتال. فبرأي أيهم نأخذ؟

وعرض عبد الرحمن بن عوف الخلافة على علي أمير المؤمنين عليه السلام يوم الشورى، فقال: «أبايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر».

فقال علي عليه السلام: «بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي».

فعدل عبد الرحمن بن عوف عنه إلى عثمان فقبل عثمان بالشرط^(١).

إذن، لعلي عليه السلام رأي في الكتاب والسنة يختلف عن رأي الشيخين، ويرفض الإمام عليه السلام الخلافة بعرضها العريض، ولا يستجيب لهذا الشرط الذي شرطه

عليه عبد الرحمن بن عوف.

وقد أمر معاوية بقتل عمرو بن الحمق الخزاعي، الذي أبلته العبادة صبراً، وكان رأسه أول رأس حُمل في الإسلام، وأمر بقتل حجر بن عدي الكندي صبراً، وكانا من فضلاء الصحابة رحمهما الله، قتلها معاوية وقتل أصحابهما؛ لأنهما لم يسبا علياً عليه السلام.

فبهدي من نقندي، بهدي القاتل أم بهدي المقتول؟! إن هذه الأسئلة بحاجة إلى الإجابة، ولا نطالب البراءة بالجواب، ولا نريد أن نخوض معه في هذا الأمر.

ولكنّا نقول له رأينا في ذلك، وله أن يقبل، وله أن لا يقبل: وهو أن رسول الله ﷺ عيّن من بعده أهل بيته عليه السلام مرجعاً للأمة لفهم الكتاب والسنة، ولشرح المجمل منهما، وتوضيح ما كان يحتاج منها إلى توضيح وشرح وتفسير.

فقد روى أصحاب الصحاح والمسانيد عن رسول الله ﷺ أنه قال - واللفظ للترمذي في صحيحه -: «إني تركت فيكم، ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»^(٢).

أخرجه (الترمذي) في الصحيح، و (النسائي)، و (الامام أحمد في مسنده)، و (الطبراني)، و (الحاكم)، و (مسلم في الصحيح)، و (ابن سعد)، ورواه (السيوطي)، و (المتقي في (الكنز)، و ابن حجر في (الصواعق)، وغيرهم من الحفاظ والمحدثين وحملته الحديث النبوي، ولا طاقة لنا بإحصائهم في هذه العجالة.. وجملة من طرقه صحيحة، وناهيك أن (مسلم) و (الترمذي) ممن أخرج هذا الحديث عن رسول الله ﷺ في صحيحهما.

كما صحّ عن أهل البيت عليه السلام: أن ما يذكرونه في تفسير الكتاب والسنة

وتوضيحيهما وشرح ما كان مجملًا منهما، وما يذكرونه من حكم، إنَّما هو من حديث رسول الله ﷺ، وليس شأنهم في ذلك شأن المجتهدين الذين يجتهدون في الكتاب والسنة.

والأحاديث عنهم ﷺ متواترة في هذا المعنى، وطرقها صحيحة، ولا مجال للتشكيك في هذا ولا ذاك.

نحن لا ندعو البراءة إلى قبول هذه الحقيقة التي صحَّ فيها الحديث عن رسول الله ﷺ، ولا نجعلها أساساً للوحدة، ولا نرفض الوحدة مع مَنْ يخالفنا في ذلك.

ولكنني أتساءل: هل يجوز أن نجعل الرجوع إلى رأي الصحابة واجتهادهم أساساً للتقريب، ونرفض التقريب مع الذين يأخذون بحديث أهل البيت ﷺ في فهم الكتاب والسنة؟ ولماذا؟!

اتباع الكتاب والسنة:

قد تكرر من (البراءة) في مقابلته أكثر من مرة: «أنَّ الرافضة من أبعد عن الناس عن الحقِّ، وأكثرهم مخالفة للكتاب والسنة».

ولا أريد أن أسهب في هذا الموضوع في هذا المقال، فأنا لم أكتبه ليكون بحثاً علمياً، وإنَّما كتبه للتنبيه على مواضع الخطر في الثقافة والإعلام والصحافة المعاصرة في العالم الإسلامي.

وفقهاء الشيعة - من دون استثناء - منذ أصحاب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إلى اليوم يصرِّحون بأنَّ مصادر الفقه هي الكتاب، وسنة رسول الله ﷺ، وحديث أهل البيت من حديث رسول الله ﷺ وفي امتداده، والإجماع^(٣).

وأما العقل، فقد اختلفت فيه كلمات فقهاء الشيعة بين المدرستين الأصولية والأخبارية^(٤).

ولا خلاف بين فقهاء الشيعة في ما عدا ذلك.

وليس معنى حجية الكتاب إلغاء القواعد التي يذكرها المفسرون والفقهاء وعلماء الأصول في تفسير كتاب الله، وإلغاء المنهج العلمي لفهم آيات القرآن الكريم.

وليس معنى حجية السنة تصديق كل رواية من أي راوٍ وفي أي كتاب، وإنما يؤصل العلماء لقبول الرواية أصولاً معروفة في إسناد الرواية إلى رسول الله ﷺ، وأصولاً معروفة في دلالتها.

فإذا صحّت الرواية من حيث الإسناد، وتمت من حيث الدلالة، فلا يتردد فقيه شيعي أو سني في التمسك بالرواية، مع عدم المعارض لها.

وليس معنى هذا الكلام: أن يتفق فقهاء الشيعة وعلمائهم مع غيرهم من الفقهاء والعلماء في قواعد الجرح والتعديل، في إسناد الرواية، أو القواعد الأصولية المعروفة في دلالة الرواية... فإن بين علماء الجرح والتعديل وعلماء الأصول من أهل السنة أنفسهم، من الاختلافات في ذلك، أكثر مما هو قائم بين فقهاء الشيعة والسنة، أو مثله على الأقل.

وإذا تمت هذه الحقائق، وهي تامة، فأنا أتحدّى (البراك) أن يذكر لي فقيهاً من فقهاء الشيعة، أو عالماً من علمائهم، يعترفون به، قد خالف آية من القرآن الكريم ورفض أن يأخذ بها، أو خالف حديثاً واحداً من أحاديث رسول الله ﷺ صحّ صدوره عنه وتمت دلالته.

وأتحداه أن يذكر لنا أمراً واحداً أجمع عليه فقهاء المسلمين جميعاً أو علمائهم، وخالفه فقيه من فقهاء الشيعة.

الموقف من أمّ المؤمنين عائشة:

يقول البراك: «ويكفرون عامة الصحابة، وفي مقدّمتهم أبو بكر وعمر وعثمان

رضي الله عنهم، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ويرمونها بما برأها الله منها». أقول: لا أعرف كلاماً أسوأ من هذا الكلام في الاستهانة بحرمان المسلمين، واستسهال الافتراء عليهم، ورميهم بما يتبرؤون منه. إنَّ اتِّهام الشيعة بأنَّهم يرمون أمَّ المؤمنين عائشة، لا يقلُّ إثماً وإفكاً وشناعة عن الذين نسبوا الإفك إلى أم المؤمنين عائشة، من المنافقين يومذاك. وها هو ذا بين يدي الباحثين والعلماء اليوم ما يقرب من مائة تفسير لعلماء الشيعة مطبوعة رائج في الأسواق، ويسهل اليوم الاطلاع عليه بواسطة أجهزة الحاسوب بأيسر جهد... فهل تجدون في تفسير واحد من التفاسير الكثيرة التي كتبها علماء الشيعة المعتمدون في تفسير الآيات (١١ - ١٩) من سورة النور، شيئاً مما يقوله البراك في نسبة هذا الإفك إلى شيعة أهل البيت (عليه السلام)؟ نعم، نحن لا نتساهل في خروجها على أمير المؤمنين (عليه السلام) في حرب الجمل، ولا نصححه، ولا نقول: إنَّها اجتهدت فأخطأت، كما يقول البعض.

الموقف من أصحاب رسول الله ﷺ:

قرأنا للبراك في النصّ المتقدّم: أنَّ الشيعة «يكفّرون عامة الصحابة، وفي مقدّمتهم أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة رضي الله عنهم». أقول: إنَّ الشيعة بُرّاء من هذا الاتِّهام والافتراء، وليس من رأينا، ولا رأي أحد من علماء الشيعة، المتقدّمين منهم والمتأخّرين، تكفير أحد من الصحابة، فضلاً عن عامّتهم، كما يقول البراك. ولا ننفي هذه النسبة عن بعض الغلاة من فرق الشيعة، غير أنَّنا لا نقول بقولهم، ولا نقرّهم على ذلك، ولسنا منهم في شيء.

غير أنَّنا وفي الوقت ذاته لا نقول بعدالة الصحابة جميعاً، كما يقول البعض، وفي أصحاب رسول الله ﷺ من لا تردّد في نفي العدالة عنه، مثل معاوية بن أبي

سفيان وعمر بن العاص، ولا نأخذ بروايتهم ولا درايتهم.
وأما حديث الارتداد بعد رسول الله ﷺ، فقد ورد في صحاح أهل السنة
ومسانيدهم، أكثر مما ورد في كتبنا ورواياتنا، ونحن نشير إلى بعض مواضع هذه
الروايات في الصحاح الثلاثة المعتمدة عند أهل السنة: البخاري ومسلم
والترمذي، ونضيف مستدرك الحاكم على الصحيحين، ولك أن تتأكد من صحة
هذه العناوين بأيسر جهد.

- صحيح البخاري، كتاب الفتن باب، ١- ح: ٧٠٤٩ التسلسل العام، ط:
دار الفكر.

- صحيح البخاري، نفس الباب، ح: ٧٠٥٠ و ٧٠٥١ التسلسل العام، ط:
دار الفكر.

- صحيح البخاري، ح: ٨١٩ التسلسل العام ٣٣٤٩، دار الفكر.

- صحيح البخاري، ح: ٣٤٤٧ من التسلسل العام.

- صحيح البخاري، رقم: ٦٥٧٦ من التسلسل العام.

- صحيح البخاري، باب كيف الحشر، رقم: ٦٥٢٦ من التسلسل العام.

- صحيح البخاري، رقم: ٦٥٨٢ و ٦٥٨٣ من التسلسل العام.

- صحيح مسلم ٨: ١٥٧، كتاب الجنة وصفة نعيمها، دار الفكر.

- المستدرك على الصحيحين ٢: ٤٤٧، ط: دار المعرفة، بيروت.

- سنن الترمذي ٥: ٣٢٢، رقم ٣١٦٧ (التسلسل العام)، ط: مصطفى البابي

الحلي.

ونصوصٌ أخرى كثيرة بهذا المعنى وردت في صحاح أهل السنة، كما ورد في
كتب الشيعة، فما فسّرتم به تلك النصوص، ففسّروا به النصوص التي وردت في
كتب الشيعة... أمّا نحن فتتبرّأ من القول بتكفير أحدٍ من أصحاب رسول
الله ﷺ وزوجاته أمّهات المؤمنين، كما يقول البراك...

وفيا يلي أذكر شطراً من دعاء الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام لأصحاب رسول الله ﷺ، وهو الإمام الرابع من أئمة أهل البيت عليه السلام، الذين يتبعهم شيعة أهل البيت عليه السلام ويوالونهم.

يقول عليه السلام، كما في الصحيفة السجادية (الدعاء الرابع):

«اللهم وأصحاب محمد [عليه السلام] خاصة الذين أحسنوا الصحابة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه، وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له؛ حيث أسمعهم حجة رسالته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به، ومن كانوا منطوين على محبته، يرجون تجارة لن تبور في مودته، والذين هجرتهم العشائر؛ إذ تعلقوا بعروته... فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك... واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم، وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه. اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ خَيْرَ جزائك... اللهم وصل على التابعين من يومنا هذا إلى يوم الدين، وعلى أزواجهم وذرياتهم، وعلى من أطاعك منهم صلاة تعصمهم بها من معصيتك، وتفسح لهم في رياض جنتك، وتمنعهم بها من كيد الشيطان، وتعينهم بما استعانوك عليه من بر...»^(٥).

وهذا الذي يقوله الإمام زين العابدين عليه السلام، هو رأينا ودعاؤنا لأصحاب رسول الله ﷺ الذين أحسنوا الصحبة والاتباع، وللتابعين لهم بإحسان، ولا نختلف في رأينا ومواقفنا عن رأي أهل البيت عليه السلام وموقفهم.

السبب:

وأما مسألة (السبب) فليست من ثقافتنا، وقد سمع أمير المؤمنين عليه السلام قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين، فقال عليه السلام:

«إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّائِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ كَانَ أَصَوَّبَ فِي الْقَوْلِ وَأَبْلَغَ فِي الْعُذْرِ، وَقُلْتُمْ مَكَانَ سَبِّكُمْ إِيَّاهُمْ: اللَّهُمَّ احْقِنْ دِمَاءَنَا وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنَهُمْ، وَاهْدِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ حَتَّى يَعْرِفَ الْحَقَّ مِنْ جَهْلِهِ، وَيَرْعَوْيَ عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مَنْ لَهَجَ بِهِ»^(٦).

ولكن معاوية بن أبي سفيان وضع في الإسلام أساس هذه (البدعة)، وأمر الناس بسب علي عليه السلام في العراق والشام - كما يقول أبو عثمان الجاحظ - وخطب الخطباء بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سنة في أيام بني أمية، إلى أن قام عمر بن عبد العزيز، فأزال ذلك.

وقال الجاحظ: «إن معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك، وصدّ عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعدّبه عذاباً أليماً، وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يشار بها على المنابر، إلى خلافة عمر بن عبد العزيز»^(٧).

وروى الطبري في حوادث سنة ٥١ هـ: أن معاوية استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة ٤١ هـ، فلما أمره عليها، دعاه وقال: «قد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك، ولست تاركاً إيصاءك بخصلة: لا ترك شتم علي وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب لأصحاب علي والإقصاء لهم»^(٨).

وأمر معاوية سعد بن أبي وقاص بسب علي عليه السلام، فقال - كما يرويه (مسلم) و(الترمذي) في الصحيح ويرويه (النسائي) في الخصائص العلوية في فضائل علي عليه السلام... -: «ما منعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ له رسول الله ﷺ فلن أسبه؛ ولأن تكون لي واحدة منهن أحبّ لي من حمر النعم»^(٩). فكان لهذه السياسة الأموية المشؤومة آثار سيئة في تاريخ الإسلام، ولا يزال هذا الجرح الذي أحدثه معاوية في خلافته ينزف دماً إلى يومنا هذا.

نعم، يبقى أن نقول: إننا نتبرأ من أعداء آل محمد ﷺ، وهو أمر واضح في ثقافتنا، ولا نخفيه. فهل يعيب علينا أحد البراءة من التواصب الذين ينصبون العداء لأهل البيت ﷺ، ويعلنون ذلك؟ وقد قال رسول الله ﷺ يوم جُللَ علياً وفاطمة والحسن والحسين بالكساء «أنا حربٌ لمن حاربكم، وسلمٌ لمن سالمكم، وعدوٌّ لمن عاداكم»^(١٠).

وقال رسول الله ﷺ: «حرب عليّ حربي، وسلمه سلمتي»^(١١). ولا حاجة إلى استخراج مصادر هذه الأحاديث، فهي معروفة ومشهورة، ولا يسع أحداً يحترم علمه أن ينكره أو يشكك فيه. ونحن نتبرأ من الذين ينصبون العداء لأهل البيت ﷺ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وأمرنا بمودّتهم في محكم كتابه.

تنزيه القرآن عن التحريف:

يقول البراك: «علماء الشيعة يقرّرون أن القرآن محرّف». أقول: قد كثر الكلام في هذه المقولة وفي هذه النسبة الظّالمة للشيعة، وقد أعلن الشيعة رأيهم الصريح في تنزيه القرآن من التحريف. وصرّح بذلك أعلامهم من المتقدّمين والمتأخرين، صرح بذلك: - الشيخ الصدوق، من متقدّمي محدّثي الإمامية توفي عام (٣٨١ هـ)، في كتاب الاعتقادات. - الشيخ المفيد، من متقدّمي الكلاميين والأصوليين من علماء الإمامية توفي عام (٤١٣ هـ)، فقد صرّح بنفي التحريف في أكثر من كتاب من كتبه، التي منها المسائل السّروية. - السيّد المرتضى، من متقدّمي فقهاء الإمامية، راجع في ذلك: مقدّمة مجمع البيان في تفسير القرآن.

- الشيخ الطوسي، من كبار فقهاء الإمامية المتقدمين ومن كبار المفسرين والمحدثين، توفي عام (٤٦٠ هـ)، راجع: كتابه الجليل في تفسير القرآن المعروف بالتيان.

- العلامة الحلي، من فقهاء الإمامية ومتكلميهم، راجع: أجوبة المسائل المهنية.

- المحقق الكركي، من كبار فقهاء الإمامية (٩٤٠ هـ). راجع: التحقيق في نفي التحريف.

- الحرّ العاملي، من المحدثين الكبار (١١٠٤ هـ)، راجع: كتاب الفصول المهمة.

- الشهيد القاضي نور الله التستري، من كبار الكلاميين، استشهد عام (١٠١٩)، وقد نقل كلامه في آلاء الرحمان في تفسير القرآن.

أمّا المعاصرون، فقد كتبوا فصولاً مطوّلة في تنزيه القرآن عن التحريف، وأفردوا كتباً ورسائل خاصة، أذكر من ذلك: الإمام الخوئي في كتابه البيان، أفرد بحثاً بعنوان: (نفي التحريف عن القرآن)، والمحقق البلاغي والعلامة الطباطبائي في تفسيريهما، والإمام الخميني في أبحاثه الأصولية، والعلامة العسكري في أبحاثه القرآنية، أفرد لهذه المسألة دراسة موسّعة، والعلامة محمد هادي معرفة خصّ هذا البحث بدراسة موسّعة، والعلامة الشيخ جواد الأملي أفرد له كتاباً بعنوان: (فصل الخطاب في نفي التحريف عن القرآن الكريم)، وغيرهم من علماء الشيعة الذين لا طاقة لي على إحصائهم في هذه العجالة.

فإذا وجدنا هنا وهناك من علماء الشيعة من يقول بتحريف القرآن، فهو رأي شاذ ينسب إلى صاحبه، ولا ينسب إلى الطائفة برمتها، كما يفعل البراك، ولعلّك إذا راجعت الاتقان للسيوطي في: (النوع السابع والأربعون)، في الناسخ والمنسوخ، والمدونات الحديثية من قبيل: صحيح البخاري ومسلم ومسنّد

أحمد بن حنبل وسنن النسائي وغيره، تجد بأنهم يقولون بوجود آيات عديدة وكثيرة من القرآن لم يرد لها ذكر في المصحف الموجود مع بقاء حكمها، وسموها بـ (نسخ التلاوة).

وفي رأينا: أنَّ هذه الروايات كلها من الشواذ والروايات الضعيفة، سواء وردت في مدوناتنا الحديثية أم مدونات أهل السنة، ويبقى كتاب الله بمنأى من أي زيادة أو نقصان.

ولا أحبُّ أن أسهب في هذا البحث أكثر من هذا، فلا يوجد اليوم في مشارق الأرض ومغاربها، وفي القارات الخمس مصحف غير هذا الذي يتداوله المسلمون اليوم وأمس، عند الشيعة والسنة، والذي يقول غير ذلك يتحمل إثم هذا الافتراء بين يدي الله تعالى والمسلمين.

ولشيعة أهل البيت عليهم السلام ما يقرب من مائة كتاب في تفسير القرآن، فهل وجدتم في بعض هذه التفسيرات أنهم فسروا قرآناً غير الذي يتلوه المسلمون، ولو كان للشيعة كتاب آخر لبان في هذه التفسيرات.

عصمة أهل البيت عليهم السلام:

يقول البراء: «يعتقدون في الأئمة أنهم يعلمون الغيب، ويدبرون الكون وأنهم معصومون عن مجرد الخطأ».

أقول: أمّا علم الغيب، فإنَّ الله تعالى وحده هو عالم الغيب والشهادة، والأئمة عليهم السلام لا يعرفون إلا ما يعلمهم الله من الغيب والشهود، ومن دون أن يعلمهم الله لا يعلمون شيئاً من الغيب.

وهل يستكثر أحدٌ على الله تعالى أن يعلم أنبياءه وأوليائه، وبعض الصالحين من عباده، ما لا يعرفه الآخرون؟!

وأما علمهم بالشرعية وحدودها وأحكامها، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله، ولم يكونوا

من أهل الرأي والاجتهاد، وإنما يحدثون الناس بما انتقل إليهم من علم رسول الله ﷺ كابرًا بعد كابر.

وأما عصمة أهل البيت عليه السلام، فقد نزلت فيهم آية محكمة من كتاب الله صريحة في عصمتهم، وهي: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وأهل البيت الذين أنزل الله تعالى عليهم يومئذ آية التطهير هم: رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليه السلام.

وعلى نحو الإجمال، أُشير في هذه النقطة من الحديث إلى أمرين:

- إنَّ آية الأحزاب واضحة الدلالة على (العصمة).

- إنَّ المقصودين بالتطهير في هذه الآية هم: رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليه السلام، الذين جلّ لهم رسول الله بالكساء عند نزول الآية الكريمة، وسوف يكون حديثي في هذين الأمرين على نحو الإشارة والإجمال؛ إذ لم يكن قصدي في هذا المقال أن أدخل بحثاً في النقاط التي أثارها الشيخ البراك في مقابلته لصحيفة المدينة، وإليك هذين الأمرين:

• دلالة آية الأحزاب على عصمة أهل البيت عليه السلام:

١. ودلالة الآية الكريمة تتضح من خلال كلمتين وردتا في آية التطهير:

الإرادة الإلهية لتطهير أهل البيت عليه السلام مع الحصر بإنّما.

ومعنى ذلك: أنّ الله تعالى يريد التطهير وإذهاب الرجس عن أهل

البيت عليه السلام حصراً، دون غيرهم.

وهذا هو معنى الحصر، وكلمة «إنّما» أقوى أدوات الحصر في اللغة العربية.

٢. والإرادة في الآية الكريمة تكوينية وليست تشريعية؛ إذ لا معنى لحصر

إرادة الله تعالى في الشريعة بتطهير أهل البيت عليه السلام فقط، فإن الله تعالى يريد

(بالإرادة التشريعية) تطهير عامة عباده؛ يقول تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ

عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[المائدة: ٦].

إذن، فلا تكون هذه الإرادة الإلهية بتطهيرهم ﷺ حصراً إلا إرادة تكوينية لا غير؛ فإنَّ الله تعالى يريد بتشريع الدين تطهير عامة الناس، ولا يمكن أن يخصَّص أهل البيت ﷺ به دون غيرهم؛ لأنَّ تشريع الدين، الذي هو تطهير الناس، لعموم الناس وليس لفئةٍ خاصَّةٍ من الناس.

٣. وإذا أراد الله تعالى شيئاً بالإرادة التكوينية، فلا يمكن أن يتخلف مراده تعالى عن إرادته، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فلا يمكن أن يتخلف ما يريده الله تعالى عن إرادته، بخلاف الإرادة التشريعية، فإنَّ الله يريد للناس جميعاً الإيمان والتقوى والصدق والأمانة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وكثير من الناس يتخلفون عما يريده الله تعالى لهم من الإيمان والتقوى والصالح.

٤. وعليه فلا بدَّ من أن يتحقق الطُّهر ويذهب الرجس عن أهل البيت ﷺ، ولا يمكن أن يصدر عنهم ما ينافي هذا الطُّهر الذي أراده الله تعالى لهم، ولا يمكن أن يصدر منهم (رجس مطلقاً) في الأفعال والأقوال ونيات القلوب بعد أن أذهب الله تعالى عنهم.

وهذا هو معنى العصمة: استحالة صدور الرجس والذنب عن المعصوم^(١٢).

• مَنْ هُم أَهْلُ الْبَيْتِ؟

من هم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً؟

اختلفت كلمة الأعلام في تعيين المراد من أهل البيت.

فقليل: هم زوجات رسول الله ﷺ حصراً، دون الذين جمعهم تحت الكساء، وهو قولٌ لعكرمة كان ينادي به في الأسواق.

وقيل: زوجات رسول الله ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وأضاف إليهم البعض: بني العباس وبني جعفر.

ولكن الذي نفهمه نحن من الروايات الصحيحة العديدة هو: أنّ أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس هم رسول الله ﷺ، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام.

وهم الذين أدخلهم رسول الله تحت الكساء، وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي»، كما نقرأ ذلك فيما انتقناه من الروايات في هذا الباب، باتّفاق أهل القبلة، كما يقول المحقق السيّد عبد الحسين شرف الدين: وهم الذين خرج بهم رسول الله ﷺ لمباهلة نصارى نجران باتّفاق المحدثين والمفسرين وأرباب السير. وفيما يلي، نستعرض نماذج من هذه الروايات الحاضرة لأهل البيت في الخمسة الذين أشرنا إليهم عليهم السلام، وهم المعروفون بـ (أهل الكساء)، إشارة إلى الكساء الذي جلّلهم رسول الله ﷺ به.

ومن أراد التفصيل في الروايات الحاضرة لأهل البيت عليهم السلام فعليه بمراجعة تفسير «الدر المنثور» لأبي بكر عبد الرحمن بن محمد جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) في تفسير آية التطهير، و«جامع البيان» في تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تفسير نفس الآية، وغير ذلك من المراجع التفسيرية.

وإليك بعض النماذج التي اخترناها لك:

- روى الحاكم عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أنّه قال: «لما نظر رسول الله ﷺ إلى الرحمة هابطة قال: أدعوا لي، أدعوا لي، فقالت صفية: من يا رسول الله؟ قال: أهل بيتي: عليّاً وفاطمة والحسن والحسين. فجاء بهم، فألقى عليهم النبي ﷺ كساءه، ثم رفع يديه، ثم قال: اللهم هؤلاء آلّي، فصلّ على محمد وآل محمد. وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

وَيُطَهِّرُهُمْ تَطْهِيرًا ﴿١٣﴾».

قال الحاكم «هذا حديث صحيح الإسناد»^(١٣).

وروى الطبري في تفسيره، وجماعةٌ غيره عن عمر بن أبي سلمة، قال:

«نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ في بيت أم سلمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ...﴾، فدعا حسناً وحسيناً وفاطمة، فأجلسهم بين يديه، ودعا علياً فأجلسه خلفه، فتجلل هو وهم بالكساء ثم قال: هؤلاء أهل البيت، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^(١٤).

وفي رواية ابن عساكر بعده: «قالت أم سلمة: اجعلني معهم، قال رسول الله ﷺ: أنت بمكانك، أنت على خير»^(١٥).

وفي حديث واثلة بن الأسقع وأم سلمة:

«أجلس علياً وفاطمة بين يديه، والحسن والحسين، كل واحد منهما، على فخذه أو في حجره»^(١٦).

وفي تفسير الآية في الدر المنثور للسيوطي عن أبي سعيد، قال:

«كان يوم أم سلمة أم المؤمنين فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ...﴾، قال: فدعا رسول الله ﷺ بحسن وحسين وفاطمة وعلي فضمهم إليه ونشر عليهم الثوب، والحجاب على أم سلمة مضروب، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس، أهل البيت، وطهرهم تطهيراً. قالت أم سلمة ﷺ: فأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك، وأنت على خير»^(١٧).

وفي تفسير الطبري عن أم سلمة، قالت:

«فاجتمعوا حول النبي ﷺ على بساط، فجللهم نبي الله بكساء كان عليه، ثم قال: هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً، فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط. قالت: فقلت: يا رسول الله! وأنا؟ قالت: فوالله ما أنعم، وقال: إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ»^(١٨).

وفيه أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال:
«قال رسول الله ﷺ: نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ وفي عليّ وحسن وحسين وفاطمة..»^(١٩).

وفي مجمع الزوائد للهيتمي عن أبي سعيد الخدري:
«أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فعدهم في يده، فقال: خمسة، رسول الله ﷺ، وعليّ وفاطمة والحسن والحسين ﷺ»^(٢٠).

تعقيب وإنارة بما يرتبط بالأخبار الشارحة:

١. يبدو أنّ رسول الله ﷺ كان حريصاً على تحديد وتشخيص عنوان (أهل البيت) الذي نزل فيه قرآن من الله تعالى، والمنع عن استعمال هذه الكلمة في غير أهلها، ومن إدخال من ليس منهم فيهم.

فكان ﷺ يشخصهم بأسمائهم، كما في رواية عبد الله بن جعفر:
«فيقول ﷺ: ادعوا لي ادعوا لي، فتقول صفيه: من. فيقول ﷺ: أهل بيتي: علياً وفاطمة والحسن والحسين»، ثم يؤكد ﷺ هذا الحصر والتشخيص بقوله:
«اللهم هؤلاء آلي، فصل على محمد وآل محمد»^(٢١)، فينزل الله فيهم قرآناً محكماً:
﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

ولا يخفى ما في قوله: «اللهم هؤلاء آلي»، من الدلالة على حصر أهل البيت ﷺ فيهم، ونفيه عن غيرهم، وهو واضح لكل من عرف أساليب العرب في الكلام.

٢. وإمعاناً في تشخيصهم وتحديددهم يحصرهم ﷺ تحت كساء، كما في رواية أم سلمة رحمها الله:

«دعا رسول الله حسناً وحسيناً وفاطمة، فأجلسهم بين يديه، ودعا علياً فأجلسه خلفه، فتجلّل هو وهم بالكساء، ثم قال: هؤلاء أهل بيتي، فأذهب

عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^(٢٢).

وهذا أبلغ ما يكون في الحصر، فكأنما أراد صلوات الله عليه وعلى آله أن يقطع على كل أحد عذر الالتباس، فيتجاوز دلالة الكلام بحصرهم تحت كساء واحد، ليكون أبلغ في الحصر، وأقوى في الدلالة.

٣. وتتمنى أم المؤمنين أم سلمة رحمها الله، التي نزلت الآية الكريمة في بيتها، أن تكون هي من أهل البيت، بعد أن جمع رسول الله ﷺ علياً وفاطمة والحسن والحسين، واجتمع بهم تحت الكساء، وقال:

«اللهم هؤلاء أهل بيتي، أذهب عنهم الرجس، أهل البيت، وطهرهم تطهيراً».

فتقول أم سلمة:

«أنا معهم يا نبي الله».

فيقول لها:

«أنت على مكانك، وأنت على خير»^(٢٣).

فلا ينفي ﷺ أنها - رحمها الله - على خير، ولكن ينفي أن تكون من (أهل البيت)، وهي زوجته ومن أمهات المؤمنين.

ولا يبقى بعد ذلك - والرواية صحيحة - مجال في إدخال أمهات المؤمنين في عداد المقصودين من كلمة (أهل البيت)، بعد النفي الصريح القاطع من رسول الله ﷺ لدخول أم سلمة.

٤. ثم يصرح صلوات الله عليه في ذلك تصريحاً لا يترك لأحد شكاً بعده، فيقول:

«نزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي، وحسن وحسين وفاطمة»^(٢٤).

فهل يبقى لأحد شك، بعد هذا البلاغ النبوي الصادق في المقصود من (أهل البيت) في عصر نزول الآية الكريمة.

وهل يشكُّ أحدٌ، بعد كلِّ هذا الايضاح، أنَّ الآيةَ الكريمةَ لم تشمل حين نزولها غير أولئك الخمسة الطاهرين صلوات الله وسلامه عليهم. يقول الإمام شرف الدين رحمته الله:

«وقد اجتمعت كلمة أهل القبلة من أهل المذاهب الإسلامية كلّها على أنه عليه السلام لما نزل الوحي بها - بآية التطهير - عليه، ضمَّ سبطيه وأباهما وأُمَّهُما إليه، ثم غشاهم ونفسه بذلك الكساء، تمييزاً لهم على سائر الأبناء والأنفس والنساء، فلمّا انفردوا تحته عن أسرته كافّة، واحتجبوا به عن بقية أُمّته بلّغهم الآية، وهم على تلك الحال، حرصاً على أن لا يطمع بمشاركتهم فيها أحد من الصحابة والآل، فقال مخاطبهم، وهم في معزل عن الناس كافّة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. فأزاح عليه السلام بحجبهم في كسائه حينئذ حجب الريب، وهتك سدف الشبهات، فبرح الخفاء بحكمته البالغة، وسطعت أشعة الظهور ببلاغه المبين، والحمد لله رب العالمين»^(٢٥).

٥. وإمعاناً في تحديد (أهل البيت) في الخمسة الذين نزلت فيهم الآية الكريمة، ونفي غيرهم، وإعلاماً للأمة بما لا يقبل الشك والتأويل بأهل البيت وعددهم في عصر نزول الآية الكريمة، أخذ رسول الله عليه السلام يتلو هذه الآية الكريمة كلّ يوم على باب بيت الزهراء عليها السلام، حيث يجمع عليّاً والزهراء والحسين عليهم السلام، بمرأى ومسمع من المسلمين.

عن أبي برزة، قال:

«صليت مع رسول الله عليه السلام سبعة عشر شهراً، فإذا خرج من بيته أتى باب فاطمة عليها السلام فقال: الصلاة عليكم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾»^(٢٦).

وعن ابن عباس، قال:

«شهدتُ رسول الله عليه السلام تسعة أشهر يأتي كلّ يوم باب عليّ بن أبي طالب عند

وقت كل صلاة، فيقول: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، كُلَّ يوم خمس مرات»^(٢٧).

وأخرج ابن مردويه، عن أبي الحمراء، قال:

«صحبْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ ثمانية أشهر، فكان إذا أصبح أتى باب فاطمة، وهو يقول: أهل البيت يرحمكم الله، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»^(٢٨).

وهي خطة إعلامية عجيبة عمل بها رسول الله ﷺ؛ لإزالة الالتباس عن مفهوم (أهل البيت) في الآية الكريمة، وتحديد حصره، بشكل لا يدع مجالاً لأحد في التلبس أو الالتباس فيه، وإدخال من ليس منهم فيهم، وإخراج من كان منهم عنهم.

ولأمر ما، يكرّر رسول الله ﷺ هذه الحقيقة بأساليب مختلفة من البيان، مقرونة بأساليب مختلفة من العمل.

فيسمّي أهل البيت حيناً بأسمائهم، ويحصرهم حيناً آخر حصراً، فيقول: (اللهم هؤلاء آلي)، ويجمعهم تارة تحت كساء واحد يجلّلهم جميعاً، ليس تحته أحدٌ غيرهم. فتتمنى أم سلمة - زوجته - أن تدخل معه، فيردّها ردّاً رقيقاً. ويعدّدهم - تارة أخرى - بأسمائهم، واحداً بعد واحد، ثم يأخذ بإعلام الأمة بهذا البيت الطاهر ومن فيه، بذلك الأسلوب العجيب الذي ذكرناه، لمدة طويلة تختلف الروايات في تحديدها.

ويبقى أن نقول: حتّى لو كان سياق الآيات من سورة الأحزاب سياق الخطاب لزوجات النبي ﷺ، فلا يضرّ ذلك بما ذكرناه من حصر الآية الكريمة في الخمسة المطهّرة، دون غيرهم. وذلك لأنّ دلالة السياق لو تمّت، فلا تزيد على أن تكون من الاجتهاد، والاجتهاد لا يقاوم النص. وقد قرأنا النصوص الصريحة بأنّ الخمسة الذين أذهب الله عنهم الرجس هم: رسول الله ﷺ، وعليّ،

وفاطمة، والحسن والحسين عليهما السلام.

تشريع الخمس:

يقول البراك: «أما موقف الإمام علي عليه السلام من التشيع: فهو بريء مما ينسب إليه من عقائد تخالف ما يعتقده بقية الصحابة، كالقول بعصمة آل البيت وأخذ خمس أموال الرعية».

أقول: تشريع الخمس في القرآن الكريم في سورة الأنفال، وإن كان في مورد الحرب، ونزلت آية الغنيمة بعد معركة بدر، إلا أن دلالة الآية الكريمة أوسع من غنائم الحرب، وعلماء الأصول يقولون: إن المورد لا يخصّص الوارد. يقول العلامة العسكري رحمته الله: «ولو كانت الآية الكريمة تقصد وجوب أداء الخمس مما غنموا في الحرب خاصة، لكان ينبغي أن يقول - عز اسمه -: واعلموا أنّما غنمتم في الحرب، أو أنّ ما غنمتم من العدى، لا أن يقول: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٤١]»، ثم ذكر رحمته الله طائفة من الروايات الواردة في تعميم الخمس لأوسع من الحرب، فقال:

وفي مسند أحمد وسنن ابن ماجه، واللفظ للأول عن ابن عباس: «قضى رسول الله في الركاز الخمس».

وفي صحيح مسلم والبخاري وسنن أبي داود والترمذي وابن ماجه وموطأ مالك ومسند أحمد: «وفي الركاز الخمس»^(٢٩).

و(الركاز) - كما في لسان العرب وغيره من المعاجم: قطع ذهب وفضة تخرج من الأرض أو المعدن.

وعليه: فإن الركاز يشمل الكنز والمعدن، وقد فرض رسول الله صلى الله عليه وآله فيه الخمس.

بين الشيعة والرافضة:

يفرق البراك بين الشيعة والرافضة، ويرى أنَّ الرافضة هم الذين يرفضون الشيخين وكثيراً من الصحابة.

أقول: ونحن لا نعرف مصداقاً للرافضة، وإنما الشيعة هم الذين يشايعون علياً عليه السلام وأهل بيته في السلم والحرب، والحب والبغض.

وهذا الاتباع في الحب والبغض والسلم والحرب لعلي عليه السلام وأهل بيته مما أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله، وصح عنه عليه السلام أنه قال لعلي وفاطمة والحسن والحسين: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم»^(٣٠).

وانطلاقاً من ذلك، فإنَّ شيعة علي هم الذين يتبعونه في الحب والبغض والسلم والحرب.

فإذا كان البراك يقصد بالرافضة: الغلاة، فلسنا منهم، وإن كان يقصد معنى آخر، فلا نعرف له مصداقاً...

تكفير المسلمين:

يقول البراك: «وبغض النظر عن مواقفهم في تكفير بقية المسلمين ممن لا يؤمنون بمبادئهم».

أقول: قال الامام الصادق عليه السلام في خبر سفيان بن سمط: «الإسلام هو الظاهر الذي عليه الناس: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام شهر رمضان، فهذا الإسلام»^(٣١).

وعن الصادق عليه السلام في خبر سماعة: «الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والتَّصديق برَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بِهِ حُقِنَت الدَّمَاءُ، وَعَلَيْهِ جَرَتِ الْمَنَاحِيحُ وَالْمَوَارِيثُ، وَعَلَى ظَاهِرِهِ جَمَاعَةُ النَّاسِ»^(٣٢).

وعن الامام الباقر عليه السلام في صحيح حمران بن أعين: « وَالْإِسْلَامُ مَا ظَهَرَ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاعَةُ النَّاسِ مِنَ الْفِرَقِ كُلِّهَا، وَبِهِ حُقِنَتِ الدَّمَاءُ، وَعَلَيْهِ جَرَتِ الْمَوَارِيثُ، وَجَازَ النِّكَاحُ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحُجِّ، فَخَرَجُوا بِذَلِكَ مِنَ الْكُفْرِ »^(٣٣).

هذه طائفة من الأحاديث ذكرناها شاهداً على تعريف (الإسلام) في مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن إمامين من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وعلى هذا المعنى من الإسلام الذي يجمع الفرق الإسلامية كلها، تجري المواريث والمناكح، ويخرج الناس عن الكفر، وتحقن الدماء.

وقال الصدوق رحمته الله وهو من متقدمي محدثي الشيعة وأركانهم: «الإسلام هو الإقرار بالشهادتين، وهو الذي يحقن به الدماء والأموال، ومن قال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فقد حقن ماله ودمه، إلا بحقيهما، وعلى الله حسابهما»^(٣٤).

وكلمات فقهاء الشيعة على هذا المنوال، من الصدر الأول إلى اليوم، ولا أعرف في كلمات فقهاء الشيعة من يقول بتكفير المسلمين من أهل القبلة، ممن لا يقول بما يقول به الإمامية من ولاية أهل البيت عليهم السلام، ويبيح دماءهم وأموالهم.

وكل ما نجده في أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام وكلمات فقهاء هذه المدرسة هو أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله يحصن الدماء والأموال إلا بحقيهما، وتجري عليها المناكح والمواريث.

وقد ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام تأكيد على حق المسلم على المسلم، (بشكل عام، وبغض النظر عن انتدائه إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام).

يقول المعلى بن خنيس: «قُلْتُ لَهُ: مَا حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ! قَالَ: لَهُ سَبْعُ حُقُوقٍ وَاجِبَاتٍ مَا مِنْهُنَّ حَقٌّ إِلَّا وَهُوَ عَلَيْهِ وَاجِبٌ إِنْ ضَيَّعَ مِنْهَا شَيْئاً خَرَجَ مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلَّهِ فِيهِ مِنْ نَصِيبٍ. قُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، وَمَا هِيَ؟ قَالَ: يَا مُعَلَّى إِنَّي عَلَيْكَ شَفِيقٌ، أَخَافُ أَنْ تُضَيِّعَ وَلَا تَحْفَظَ، وَتَعْلَمَ وَلَا تَعْمَلَ.

قَالَ: قُلْتُ لَهُ: لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. قَالَ: أَيْسَرُ حَقٍّ مِنْهَا أَنْ تُحِبَّ لَهُ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَتَكْرَهُ لَهُ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ...»^(٣٥).

يقول الشيخ المظفر في (عقائد الإمامية) في التعليق على هذا الحديث: «وقد يتوهم المتوهم أَنَّ المقصود بالأخوة في أحاديث أهل البيت عليهم السلام: خصوص الأخوة بين المسلمين الذين من أتباعهم (شيعتهم خاصة)، ولكن الرجوع إلى رواياتهم كُلِّها يُطَرِّد هذا الوهم، إِنْ كانوا من جهةٍ أُخرى يَشَدِّدون النكير على من يخالف طريقتهم، ولا يأخذ بهداهم، ويكفي أَنْ تقرأ حديث معاوية بن وهب، قال: (قلت له - أي: الصادق عليه السلام - : كيف ينبغي لنا أَنْ نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطانا من الناس مِمَّن ليسوا على أمرنا؟ فقال: تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنيهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنازتهم، وقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدّون الأمانة إليهم)»^(٣٦).

التحدي:

وفي نهاية المقال، يقول الشيخ البراك: «كتبْتُ عدّة موضوعات أُطالب فيها الشيعة أَنْ يثبتوا بدليلٍ صحيحٍ صريحٍ متّصل السند على أَحَدٍ من آل البيت، يثبت أَنهم قد أخذوا عنهم شيئاً من العقائد التي يخالفون فيها المسلمين، وانتشرت هذه المقالات، ولكن لم يتقدّم أَحَدٌ من شيوخهم ويقبل التّحدي، رغم أَنِّي عرضت في بعضها جائزة قدرها مائة ألف دولار لمن يستطيع أَنْ يأتي بدليلٍ واحدٍ صحيحٍ يثبت ادّعاءهم متابعة أهل البيت».

أقول: لعلّ السبب في عدم استجابة أَحَدٍ من فضلاء الشيعة للتّحدي ما يتضمّنه التّحدي من حيث الشّكل والمضمون من إساءة الأدب التي استخدمها البراك في هذا التّحدي.

أمّا من حيث الشّكل، فهو يقول: «شيئاً من العقائد التي يخالفون فيها المسلمين»، وهذا الكلام يعني: أنّ الشيعة خارجون عن الإسلام^(٣٧)، ولا شكّ أنّه كلامٌ سيّئٌ يترفع عن مناقشته فضلاء الشيعة ومثقفوهم.

ومن حيث المضمون يتحدّى البراك المسلمين الشيعة، وهم يتجاوزون الـ ٣٠٠/٠٠٠/٠٠٠ نسمة على وجه الأرض، وفيهم: المفكرون والعلماء والمثقفون أن يعرضوا عليه دليلاً علمياً واحداً فقط على اتّباعهم لأهل البيت (عليه السلام).

ومعنى هذا السؤال: أنّ هذه الأمة من الناس لا تملك دليلاً علمياً واحداً على استقامة مذهبها، وإنّما تلقوا التشييع واتبعوا أهل البيت (عليه السلام) عن تقليد غير علمي للأباء، وهذه إهانة واضحة وإساءة أدب، لا شكّ في ذلك، لا يستخدمها العلماء، ولا يستجيبون لها، وكنا نحبّ أن يترفع عنها فضيلة الشيخ البراك، فإنّ في شيعة أهل البيت (عليه السلام) علماء ومفكرين ومتخصصين في حقول المعرفة، وقد أغنوا المكتبة الإسلامية في حقل الكلام والإمامة بعشرات الآلاف من الكتب. مثل كتاب: «عبقات الأنوار» للمحقق السيد حامد حسين الكهنوي، الذي يربو على ثمانين مجلداً في إثبات إمامة أهل البيت (عليه السلام)، وكتاب «الغدير» للعلامة المحقق الشيخ الأمين في أحد عشر مجلداً في نصب رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) إماماً وولياً على المسلمين في موقع الغدير، يبحث الموضوع من حيث السند والدلالة والأدب في أحد عشر مجلداً، ومؤلفات السيد عبد الحسين شرف الدين، و«إحقاق الحق» للقاضي نور الله التستري في عشرين مجلداً، وموسوعة «دلائل الصدق» للشيخ محمد حسن المظفر، و«موسوعة الإمامة الكبرى» للسيد القزويني، و«معالم المدرستين» للعلامة العسكري، وغيرها ممّا لا يمكن تعداد أكثره، فضلاً عن إحصائه، وأكثرها مطبوع وموفور في المكتبات. وليست المسألة بالسّذاجة التي يتصورها البراك، فيتحدّى الشيعة أن يأتوا

بدليلٍ واحدٍ على صِحَّةِ مذهبهم من حديث أهل البيت عليهم السلام.

وقوله بعد ذلك: «أنَّ يثبتوا بدليلٍ صحيحٍ صريحٍ».

ونتساءل: الصَّحيح عند مَنْ؟ عنده أم عندنا؟

وهذا كلامٌ غامضٌ وغير علمي... فإنَّ كان يريد دليلاً صحيحاً مقنعاً له، فهو طلبٌ لأمرٍ غير ممكن. ولا يخصُّ الشيعة وحدهم، فإذا سأل ملحد، لا يؤمن بالله، الشيخ البراك أن يأتي بدليلٍ صحيحٍ يقنع الملحدين، على إثبات وجود الله تعالى، لا بحسب القواعد الموضوعية للجدل والمنطق، فهل يستطيع أن يأتي بدليلٍ صحيحٍ يقنعهم؟

وإذا كان قادراً على ذلك، فلماذا لا يكون سبباً لإيمان الملايين من الملحدين على وجه الأرض؟!

وإذا سأله مسيحيٌّ أو بوذيٌّ أن يأتي بدليلٍ صحيحٍ مقنعٍ للمسيحيين أو البوذيين على استقامة الإسلام وصحَّته وحقانيته، فهل يستطيع البراك أن يأتي بدليلٍ صحيحٍ يقنعهم؟

وإذا كان قادراً على ذلك، فلماذا لا يكون سبباً لإسلام مئات الملايين من المسيحيين والبوذيين والهندوس وغيرهم؟! إنَّ هذا كلامٌ غير علمي.

ويستحق الكلام الجواب، إذا كان التَّحدي يتمُّ في دائرة الدليل العلمي الموضوعي الذي ينتظم ضمن الأصول المنطقية المعروفة في الجدل والبرهان. وأنا افترض أنَّ البراك يقصد بالدليل الصَّحيح: الدليل العلمي الموضوعي الذي ينسجم مع قواعد الجدل والبرهان، اقتنع به البراك أو لم يقتنع.

وفيما يلي: أقتصر على التنبيه - باختصار - على نقطتين من مواقف أهل البيت عليهم السلام وأحاديثهم، من الأمور التي ينفرد بها شيعتهم دون غيرهم من الفرق الإسلامية.

النقطة الأولى: موقف أهل البيت عليهم السلام من الخلافة والإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله.

النقطة الثانية: موقف أهل البيت عليهم السلام وحديثهم من مرجعيتهم للمسلمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. وسوف أستعرض هاتين المسألتين على نحو الاختصار والإيجاز:

١ . الخلافة والإمامة

لقد تواترت الأخبار: أَنَّ علياً عليه السلام لم يبايع أبا بكر، وتخلّف عن بيعته معترضاً، وكان يرى أَنَّ الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من حقّه دون أبي بكر. وهاتان القضيتان ممّا تواترت بهما الروايات، وتواتر ذكرهما في المدونات الروائية، وفي كتب السيرة والتاريخ. وهذا القدر يكفي للإجابة على تحدّي البراءة. وشيعة علي عليه السلام لا يزيدون في الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله على ذلك. وهذا ممّا انفرد به شيعة أهل البيت عليهم السلام دون غيرهم من الفرق الإسلامية. ولا بدّ لهذا الإجمال من تفصيل؛ وإليك هذا التفصيل بقدر ما يسمح به صدر هذا المقال:

امتناع علي عليه السلام من البيعة واعتراضه:

روى البخاري في الصحيح: بسنده إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في حديث طويل: «...أنّه قد كان من خبرنا حين توفّي الله نبيّه صلى الله عليه وآله، أَنَّ الأنصار خالفونا، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا عليّ والزبير ومن معهم...»^(٣٨).

وروى الطبري في تاريخه: «قال رجلٌ للزّهري: أفلم يبايعه عليّ ستّة أشهر؟! »

قال: لا، ولا أحد من بني هاشم حتى بايعه علي»^(٣٩).

وقال ابن الأثير:

«والصحيح أنَّ أمير المؤمنين ما بايع إلا بعد ستة أشهر»^(٤٠).

ويقول البلاذري: «بعث أبو بكر عمر بن الخطاب إلى علي عليه السلام حين قعد عن بيعته، وقال: ائمني به بأعنف العنف، فلما أتاه، جرى بينهما كلام، فقال: احلب حلباً لك شطره»^(٤١).

وروى الذهبي عن العقيلي حديثاً - أقرَّ بصحَّته - عن عبد الرحمن بن عوف: «...إني لا آسى على شيءٍ إلا على ثلاث: وددت أني لم أكشف بيت فاطمة وتركته، وإن أُغلق على الحرب»^(٤٢).

ورواه الحافظ ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان أيضاً^(٤٣).

ورواه الطبري في تاريخه^(٤٤).

والروايات في ذلك كثيرة في كتب الحديث والتاريخ والسيرة، ونكتفي بهذا المقدار.

وكانت الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله مع علي عليه السلام في كل هذه المواقع، ولا نريد أن ندخل في تفاصيل هذا الحديث.

روى شمس الدين أبو الخير الجزري الدمشقي الشافعي في كتابه: (أسنى المطالب)، بسنده المتصل إلى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله قالت: «أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وآله يوم غدير خم: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، وقوله صلى الله عليه وآله: أنت مني بمنزلة هارون من موسى».

هكذا أخرجه الحافظ الكبير أبو موسى المديني في كتابه المسلسل بالأسماء^(٤٥).

وقد ماتت فاطمة وهي غاضبة، وأوصت أن تدفن سراً، ولا يحضرون جنازتها ولا الصلاة عليها؛ احتجاجاً^(٤٦).

ولكن الإمام عليه السلام عندما وجد أنَّ موقفه من الخلافة يُضعف الصفَّ الإسلامي، أثر أن يبيع أبا بكر على الخلافة.

يقول عليه السلام في كتاب له لأهل مصر مع مالك الأشتر لما ولّاه مصر: «قَالَ اللَّهُ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي وَلَا يَخْطُرُ بِيَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنْحَوُّهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْتِثَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ، يَدْعُونَ إِلَى مَحَقِّ دَيْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلَمًا أَوْ هَدْمًا تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ قُوَّةِ وَلَايَتِكُمْ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ»^(٤٧).

وقال عليه السلام: «لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللَّهِ لَا سَلَمَ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً؛ التَّيَّاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهْداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ مِنْ زُخْرُفِهِ وَزِينَتِهِ»^(٤٨).

ونكتفي بهذا المقدار في استعراض الروايات التي تكشف عن عدم رضا الإمام علي عليه السلام، وسخطه بما جرى من تنصيب الخليفة الأول، ومن بعده الخليفَتان الثاني والثالث، أئمة للمسلمين من بعد رسول الله ﷺ. وهذا الذي ذكرناه من حقائق التاريخ والسيرة والحديث، لا يمكن تجاهله، ولا رفضه، ولا التشكيك فيه، ولم نكن بحاجة إلى هذا التفصيل لولا الثبوت من النتائج التي سوف نصل إليها - إن شاء الله - في التحليل الذي يرد بعد هذا العنوان.

تحليل روايات الامتناع والاعتراض:

إنَّ الروايات المتواترة في امتناع الإمام علي عليه السلام منبيعة الخليفة الأول واعتراضه عليها - والتي استعرضنا نماذج منها - تدلُّ على أمرين اثنين:

الأول: عدم رضاه عليه السلام، بل غضبه وسخطه على ما جرى في السقيفة من بيعة الخليفة الأول، وكذلك عدم رضا وغضب الصديقة الزهراء فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

الثاني: أن الإمام عليه السلام كان يرى ويعتقد أن الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حقه الذي لا يجوز لأحد أن يزيحه عنه. وهذا وذاك مما لا يمكن إنكاره أو التشكيك فيه، والتشكيك فيه بحكم التشكيك في بدييات التاريخ والسيرة.

وهذا الحد يكفي في الإجابة على تحدي الشيخ البراك... فهذا عليّ سيد أهل البيت عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذه فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسيدة أهل البيت، يرفضان بيعة الخليفة الأول، ويعتقدان أن الإمامة من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لعلّي عليه السلام حصراً.

نقطتان لا بد منهما في التحليل:

ولكي نتوصل بصورة علمية إلى النتائج التي نريد الوصول إليها في هذا الموضوع، لا بد أن نضيف إلى النقطتين اللتين أشرنا إليهما، وهما:

- اعتراض الإمام على مبايعة الخليفة الأول وامتناعه عن البيعة.
- رأي الإمام وإيمانه بأن الإمامة من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حقه الذي لا يعارضه فيه أحد.

فلكي نتوصل إلى النتائج التي نريد أن نتوصل إليها في هذا الموضوع، لا بد أن نضيف إليها نقطتين؛ لتكتمل لدينا عناصر التحليل والتحقيق في هذا الموضوع. وهاتان النقطتان هما:

- تنزيه الإمام والزهراء عليهما السلام من المواقف الانفعالية والمنافسة على الرئاسة، وأنها لا ينطقان إلا حقاً.
- انعقاد البيعة للإمام - بناءً على مبدأ الاختيار - لعدد يعتد به من المسلمين

وأصحاب الرّأي، ولا يجب حضورهم جميعاً في انعقاد البيعة، ولكن البيعة تلزمهم جميعاً إذا انعقدت بصورة شرعية.

أما النقطة الأولى، فلقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنّه قال في حقّ عليّ عليه السلام: «عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ حيث كان»، و«عليّ مع القرآن، والقرآن مع عليّ لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

وهو عليه السلام سيّد أهل البيت عليه السلام بعد رسول الله ﷺ، وفاطمة الزهراء عليها السلام سيّدة أهل البيت عليه السلام، وفيهم نزلت آية التطهير التي تنزههم عن الرّجس، وتعلن بأنّ الله تعالى قد طهّرهم تطهيراً، وقد تحدثنا عن ذلك.

وأعلن رسول الله ﷺ أنّهم الثقل الأصغر بعد كتاب الله، وعلى المسلمين أن يرجعوا إليهم في حدود الله وشريعته وأحكامه.

فلا يمكن أن يتصور أنّ مواقفها صادرة من انفعالٍ نفسيّ أو منافسة على الزعامة وحطام الدنيا.

ولا بدّ أن يكون لهذا الامتناع والاعتراض أساسٌ شرعيّ، ولا بدّ أن يكون لموافقتهم ومخالفتهم وإعراضهم واستجابتهم ورفضهم أساسٌ شرعيّ واضح.

وأما النقطة الثانية، فإن البيعة للإمام تنعقد بعددٍ يعتدّ به من أصحاب الحلّ والعقد من المسلمين، ولا يجب حضورهم جميعاً للبيعة، فإذا بايع عددٌ يعتدّ به من المسلمين وفيهم من أصحاب الحلّ والعقد، واستجاب الإمام للبيعة، انعقدت البيعة له، ولزم الآخرين متابعة المبايعين، ومبايعة الإمام وطاعته، ولا يجوز التخلف عنه.

وقد انعقد على ذلك إجماع الفقهاء^(٤٩).

النتائج الأربعة

طبقاً للتّحليل المتقدّم نتوصّل إلى أربع نتائج بصورةٍ طبيعية، وفيما يلي

استعراض هذه النتائج على نحو الاختصار:

١. لا يمكن ردّ التحليل المتقدّم بأنّ غضب الإمام عليه السلام وسخطه وعدم رضاه لما جرى في السقيفة، وكذلك غضب الصّديقة فاطمة عليها السلام كان بسبب عدم استشارتهما في أمر البيعة، وليس لأنّ الإمام عليه السلام كان يرى أنّ الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حقّه هو دون غيره.

فإنّ البيعة قد انعقدت بصورة شرعية، مهما كانت ظروف السقيفة، إذا كان مبدأ الاختيار هو المبدأ الصّحيح للبيعة، فإنّ البيعة تنعقد بصورة شرعية، بأقل من هذا العدد الذي بايع أبا بكر من المهاجرة والأنصار. ولم يبق للإمام عليه السلام حقّ إلا العتاب، دون الامتناع والاعتراض، وكان عليه أن يستجيب للبيعة، ويحتفظ لنفسه بحقّ العتاب، وهو أمر آخر، ولا يتطلّب الامتناع والاعتراض، لولا أنّه كان يعتقد أنّ الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حقّ شرعيّ، ولا يصحّ لأحد أن يبايع الخليفة الأوّل مع حياته وحضوره.

يضاف إلى ذلك: الروايات الكثيرة التي يرويها أصحاب السّير والمحدّثون من تصريح الإمام عليه السلام مرات كثيرة بأنّ الإمامة كانت من حقّه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّه لم يكن يتوقّع أن يزيع عنه أحد هذا الحقّ.

٢. لو كان مبدأ الاختيار في الإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله صحيحاً، لم يكن للإمام عليه السلام بعد انثيال النّاس على الخليفة - كما يقول في رسالته إلى أهل مصر - أن يعترض ويمتنع عن البيعة؛ لأنّ البيعة تمت بصورة شرعية بحضور النّاس وبيعتهم لأيّ بكر، ولم يرشح الإمام عليه السلام نفسه للبيعة، بسبب اشتغاله بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله، وسبقه إليه أبو بكر، وبايعه النّاس.

فلماذا الامتناع والاعتراض؟! وقد قرأنا قبل قليل إجماع الفقهاء على وجوب البيعة للإمام على عامة النّاس لو تمت له بصورة شرعية.

وإذا عرفنا أنّ مواقف الإمام وحديثه حجّة على الآخرين؛ لقول رسول

الله ﷺ فيه «عليّ مع الحقّ، والحقّ مع عليّ»، ولأنّه كان من النّفر الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً... فلا بدّ أن يكون لموقف الإمام في الامتناع والاعتراض سببٌ شرعيّ.

وهذا السبب لا يكون إلا لأنّ الإمامة بعد رسول الله ﷺ لا تكون بالاختيار والانتخاب.

وإلا، فلو كانت الإمامة تنعقد بالاختيار والانتخاب والمبايعة.. لم يكن بدّ له ﷺ من المسارعة إلى بيعته الخليفة الأوّل. ويبقى حقّه في العتاب على الشيخين أنّهما لم ينتظراه في التّرشيح للخلافة والانتخاب محفوظاً، إلا أنّه لا يسوّغ له هذا الحقّ التّباطؤ عن إعلان التّبعية للخليفة الأوّل.

إذن - لا محالة - الإمام يعتقد بأنّ الإمامة بعد رسول الله ﷺ لا تتحقّق بالاختيار، وإذا ألغينا مبدأ الاختيار في انتخاب الإمام فلا يبقى إلا مبدأ النصّ، وهو الذي يراه الإمام، ويرى أنّ رسول الله ﷺ قد خصّه به يوم الغدير وغيره على مرأى ومسمع من النّاس.

فإنّ آراء المسلمين في الإمامة لا تزيد على ثلاث:

- مبدأ الاختيار.

- مبدأ الغلبة العسكرية.

- مبدأ النصّ.

وإذا ألغينا شرعية مبدأ الاختيار، فلا بدّ أن نلغي شرعية مبدأ الغلبة العسكرية على نحو أولى، فلا يبقى إلا مبدأ النصّ... والإمام يرى أنّ رسول الله ﷺ قد خصّه بالنّصّ يوم الغدير؛ ولذلك كان الاعتراض والامتناع. وحتى لو لم نقل بعصمة الإمام؛ فإنّ آية التطهير وحديث الثقلين وحديث الدوران مع الحق وعشرات الأحاديث الأخرى التي صحّت عن رسول الله ﷺ في حقّه ﷺ تلزمنا أن نأخذ برأيه وموقفه في هذا المجال.

٣. لقد اضطرَّ الإمام عليه السلام إلى البيعة، يوم عرف أنَّ امتناعه عن البيعة يؤدي إلى خللٍ في المجتمع الإسلامي الناشيء يومذاك، فتكون مصيبة الخلل في الإسلام والأمة الإسلامية أعظم من مصيبة عزله عن حقّه الذي خصّه به رسول الله صلّى الله عليه وآله، فأقدم على البيعة.

يقول عليه السلام: «فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْتِ دَيْنِ مُحَمَّدٍ صلّى الله عليه وآله، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثُلْمًا أَوْ هَدْمًا تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَكْثَرَ مِنْ فَوْتٍ وَلَا يَتَكُمُّ»^(٥٠).

فأقبل على مبايعة الخليفة للمحافظة على كيان الإسلام والأمة الإسلامية. وهذا كان هو سبب بيعة الإمام عليه السلام، لا ما يذكره البعض من أنَّ وجوه الناس قد تحوّلت عنه بعد وفاة بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله فأقدم على بيعة الخليفة. وبناءً على ذلك، فلا تغيّر بيعة الإمام عليه السلام - عن اضطرار - موازين الحكم الشرعي في الإمامة.

فإنَّ الإمام يعتقد ويؤمن بأنَّ الإمامة بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله لا تكون بالاختيار والبيعة، وإنما تتحقّق بالنصّ. فإذا اضطرَّ هو إلى البيعة لئلا يحدث الخلل في الإسلام، وفي الأمة الإسلامية، لن تكون بيعته سبباً لتغيير المباني الشرعية للإمامة والولاية بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله.

٤. وإذا واجهنا اختلافاً في الرّأي بين الشّيعين وأصحابهم من جانب والإمام عليه السلام من جانبٍ آخر في مباني الإمامة والولاية بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله فإننا لا نتردّد في اتّباع الإمام علي عليه السلام في رأيه وعقيدته إطلاقاً؛ انطلاقاً من (آية التطهير) و (حديث الثقلين) و حديث (عليّ مع الحقّ) وسائر الأحاديث التي صحّت عن رسول الله صلّى الله عليه وآله في اتّباع الإمام عليه السلام بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله.

• مرجعية أهل البيت (ع) الدينية للمسلمين

وهذه هي النقطة الثانية التي نذكرها في الجواب على تحدّي الشيخ البراك

لشيعة أهل البيت عليهم السلام، وهي مرجعية أهل البيت عليهم السلام، على امتداد العصور، للمسلمين في أمور الدين وأحكام الشريعة، وتبيين حدود الله تعالى في الحلال والحرام.

وهي ثابتة برواية أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي كذلك مما ينفرد به شيعتهم دون غيرهم.

فهم يعتقدون بمرجعية أهل البيت عليهم السلام للمسلمين على امتداد التاريخ، في كل العصور في الفقه والعقائد والثقافة، وعرفوا لذلك فيما بين المسلمين بأتباع أهل البيت وشيعتهم.

وأما الدليل على ذلك في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله ورواية أهل البيت عليهم السلام له: فهو حديث الثقلين الذي تواترت روايته عند الفريقين، وإليك متن الحديث وسنده ودلالته:

متن حديث الثقلين:

ورد هذا الحديث في روايات كثيرة، ويبدو أن الرسول صلى الله عليه وآله تحدّث به في أكثر من موضع، ورواه أئمة الحديث والتفسير والتاريخ بألفاظ مختلفة، ونحن نقل الحديث ببعض ألفاظه الواردة في كتب الحديث:

«أيها الناس إنما بشرّ أوشك أن أدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما (أو ما إن اعتصمتم بهما) لن تضلّوا أبداً، وهما: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، أحدهما أثقل من الآخر، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فاتّقوا الله، وانظروا كيف تخلّفوني (أو كيف تحفظوني) فيهما (أو أنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتى يلقياني)، فلا تسبقوهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم، وتوشكون أن تردوا عليّ الحوض وأسألكم حين تردون عليّ عن الثقلين كيف خلفتموني فيهما، فمن استقبل قبلتي وأجاب دعوتي فليستوص بهما خيراً».

وهذا الذي رويناه مزيحٌ من بعض ألفاظ الحديث، ومن يريد الوقوف على كُلِّ ألفاظه فليراجع الرسالة القيِّمة التي أصدرتها دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في هذا الحديث.

سند الحديث:

وقد ورد هذا الحديث ببعض ألفاظه في كُلِّ من صحيح مسلم، وسنن الترمذي، وسنن الدارمي، ومسند أحمد بن حنبل في أكثر من موضعٍ منه، وخصائص النسائي، ومستدرک الحاكم في أكثر من موضع، وكفاية المطلب للحافظ الكنجي الشافعي، وقال بعد نقل الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه، ورواه أبو داود وابن ماجة القزويني في كتابيهما، والطبقات لمحمد بن سعد الزهري البصري، والحلية لأبي نعيم الأصبهاني، وأسد الغابة لابن الأثير الجزري، والعقد الفريد لابن عبد ربه القرطبي، وتذكرة الخواص لابن الجوزي، وإنسان العيون لنور الدين الحلبي الشافعي، وذخائر العقبى لأحمد بن عبد الله الطبري، والسراج المنير للعزيمي الشافعي في شرح الجامع الصغير للسيوطي، وفي هامشه أيضاً للشيخ محمد الحنفي، والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي، ونسيم الرياض لشهاب الدين الخفاجي، والكشف والبيان للثعلبي في تفسير آية الاعتصام، وتفسير النظام للنيسابوري في تفسير آية الاعتصام، وفي تفسير آية المودة، وابن كثير الدمشقي في تفسير آية المودة وآية التطهير، وأيضاً في تاريخه في ضمن حديث الغدير، والمواهب العلية لحسين الكاشفي في تفسير آية (سنفرع لكم أيها الثقلان)، والنهاية لابن الأثير الجزري، وفي الدر المنثور للسيوطي، ولسان العرب لجمال الدين الأفرقي المصري في لغة العترة، وفي لغة الثقل والحبل، والقاموس لمجد الدين الشيرازي في لغة ثقل، ومنتهى الأرب لعبد الرحيم الصفي في لغة الثقل، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي، ومدارج النبوة لعبد الحق الدهلوي، والمناقب المرتضوية لمحمد صالح

الترمذي الكشفي، ومفتاح كنوز السنة، ومصابيح السنة للإمام البغوي الشافعي، وابن حجر في الصواعق في أكثر من موضع، وإسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار للشبلنجي، وينايع المودة لسليمان بن إبراهيم البلخي الحنفي، والعلامة الكبير شمس سماء العلم والجلالة ومجدد مذهب الإمامية السيد مير حامد حسين الهندي أعلى الله مقامه، وقد رواه عن جماعة تقرب من المائتين من أكابر علماء المذاهب من المائة الثانية إلى المائة الثالثة عشرة، وعن الصحابة والصحابيات، أكثر من ثلاثين رجلاً وامراًة كلهم رووا هذا الحديث الشريف عن النبي ﷺ (٥١).

دلالة الحديث:

- يبيّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث أنّ أهل البيت عليهم السلام هم صنو القرآن، ولا يتخالفان، ولا يفترقان، ولا يزالان كذلك إلى يوم القيامة.
- وهو ظاهرٌ في أنّ الله تعالى يعصمهم من الخطأ ومخالفة القرآن «وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».
- ويوصي رسول الله ﷺ المسلمين بالتمسك والاعتصام بهما من بعده إلى قيام الساعة في شؤون دينهم.
- ويعلن ﷺ للمسلمين يومئذ أنّهما يعصمان المسلمين من الضلال والزيغ، فمن اعتصم بهما عصمه الله تعالى من الضلال: «ما إن تمسكتم بهما - اعتصمتم بهما - لن تضلوا بعدي».
- وتبقى وتستمرّ هذه العصمة لهذه المرجعية إلى أن يردا على رسول الله الحوض: «وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»، ويبقى كتاب الله وأهل بيت رسول الله ﷺ مرجعاً أميناً للمسلمين في أمور دينهم إلى يوم يلقون رسول الله ﷺ على الحوض.
- ويوصيهم رسول الله ﷺ أن يتعلّموا منهما، ولا يعلموهما، وأن يتبعوهما

ولا يسبقوهما في قولٍ أو فعلٍ .

ويبقى أن نشير إلى أن هذا الحديث لا ينافي حديث التمسك بكتاب الله وسنة رسوله؛ فإن أهل البيت عليه السلام امتداداً لسنة رسول الله ﷺ، وليسوا بديلاً عنها، وهم ليسوا من أهل الرأي والاجتهاد، وإنما هم يروون لنا سنة رسول الله ﷺ في كل ما يقولون ويأمرون به.

ختام الجولة:

أما بعد، فقد أطلنا الوقوف مع (البراك)، وما كان ينبغي أن نقف معه هذا الموقف الطويل، لولا الحرص على وحدة كلمة المسلمين وانسجامهم، وتفاهمهم، واثتلافهم، وتحابهم في الله، وقطع الطريق على من يعمل لتفريق كلمة المسلمين وإثارة الفتنة بينهم، وإضعاف موقفهم وكلمتهم، عن قصد أو غير قصد.

فإن من الطبيعي أن تكون هذه الموجة من الاتهامات تقابلها اتهامات معاكسة، ومن الطبيعي أن يتصاعد هذا التراشق المتبادل من الاتهامات بين المسلمين، ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى شرخ في الصف الإسلامي، وانشطار في الموقف، وإضعاف للأمة، وثلمة في كلمة المسلمين...

وتقف أمريكا وإسرائيل والأنظمة الغربية المناوئة للإسلام تتفرج على محنة المسلمين وصراعاتهم الداخلية.

ولست اتهم الشيخ البراك أنه يقصد الإثارة والفتنة بين المسلمين، ويريد تفتيت الصف الإسلامي، ويريد أن يمكن الاستعمار العالمي الأمريكي - الإسرائيلي من بلاد المسلمين... لست أقول شيئاً من ذلك، ولكنني أقول إن تناول غير العلمي، والتشهيري، لهذه المسائل الحساسة، وفي أجواء غير علمية، بهذه اللغة الاستفزازية يؤدي إلى هذه النتيجة، أراد الشيخ، أم لم يرد.

فليس يصح علمياً وأخلاقياً أن تنسب هذه التّهم جزافاً إلى طائفةٍ واسعةٍ من المسلمين، لها حضور في كلّ الأوساط الإسلامية في العالم تقريباً، بمثل هذه الصورة غير العلمية، من غير دليل.

ولا يصحّ طرح هذه المسائل، وهي اتّهاماتٌ قديمة، أكل الزمان عليها وشرب، وتكرّر حتى ملّ المتهمون من الاتّهام، وتكرّر الجواب عليها حتى ملّ المدافعون من الجواب...

أقول: لا ينبغي أن تطرح أمثال هذه المسائل بهذه الصُّورة المثيرة للفتنة، وغير العلمية، وغير الموضوعية، في ظروفٍ سياسية كالظروف السياسيّة العسيرة القائمة اليوم، التي يحتاج المسلمون فيها إلى التفاهم والانسجام أكثر من أيّ شيء آخر، بعد الاتّكال على الله تعالى.

فها هي أمريكا تحتلّ بلدين إسلاميين: العراق وأفغانستان، وتمارس أبشع أنواع الاضطهاد والتعذيب بحقّ المسلمين في سجون أبو غريب وگوانتناما وغيرهما.

وها هي إسرائيل تمارس أبشع أنواع القتل والحصار الاقتصادي والاختطاف، ومداومة البيوت والأسر والتجويع بالمسلمين الفلسطينيين في غزة، ولا يستجيب لصراخهم واستغاثتهم حكّام العرب والمسلمين، غير استجابة محدودة لا تغني ولا تسمن.

ثم نجد أميراً من أمراء العرب والمسلمين يستقبل بصورة رسمية وزيرة خارجية إسرائيل، قاتلة الفلسطينيين في غزة، يرحب بها، ويصافحها، ويظهر على شاشات الفضائيات العالمية، ويده بيدها، وجراح المسلمين في غزة تنزف دماً عبيطاً كلّ يوم.

وتمارس أمريكا القصف الوحشي على البيوت والمستشفيات والمساجد في مدينة الصدر في بغداد بالقنابل الإنشطارية، تستهدف بها النساء والأطفال

والرجال الأبرياء، من غير رادع، كما قصفت إسرائيل لبنان في حرب تموز، وهدمت البيوت على رؤوس أصحابها، وحولت بيوت الناس ومحلاتهم التجارية ومساجدهم إلى أنقاض.

وسط هذه المصائب والمحن نجد - هنا وهناك - من ينكأ الجرح، ويعمل على إثارة الفتن في صفوف المسلمين، ويسعى بالبغضاء والالتهام فيما بين المسلمين، ويدعوهم إلى التراشق والتناحر وتبادل الاتهامات عن قصد أو غير قصد. نحن ندعو الشيخ البراك إلى أن يعود إلى صفوف المسلمين جميعهم، بلا استثناء، يحمل إليهم المحبة والتفاهم والانسجام والتقريب والتواصل، كما يريد الله تعالى ذلك للمسلمين.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وإذا كانت لدية شبهات وأسئلة وملاحظات وشكوك، فيطرحها في أجواء علمية، وبصورة موضوعية، وبلغة علمية هادئة.

* * *

الهوامش:

(١) راجع: الإمام ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد ١: ٧٥، دار صادر، بيروت. ابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٨، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصورة عن الطبعة الثانية ١٣٨٥ لدار إحياء الكتب العربية، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ١٤٠٤.

(٢) الترمذي، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٩، حققه وصححه: عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية ١٤٠٣، نشر: دار الفكر، بيروت.

(٣) تختلف المدرسة الأخبارية عن المدرسة الأصولية عند الشيعة في حجية الإجماع اختلافاً يسيراً لا

- تمسّ جوهر المسألة التي نشير إليها.
- (٤) وقد حقّق المتأخرون من علماء الأصول أنّ النزاع في ذلك هو نزاعٌ صغرويٌّ لا كبروي، وعلى رأس هؤلاء المحقّق الخراساني صاحب كفاية الأصول. (التحرير).
- (٥) الإمام زين العابدين، علي بن الحسين عليهما السلام، الصّحيفة السّجادية الجامعة ٤٤، تحقيق ونشر: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، إشراف: السيّد الأبطحي، الطبعة الأولى ١٤١١، قم.
- (٦) نهج البلاغة، الخطبة: (٢٠٦)، ص: ١٠٢، نسخة المعجم المفهرس، الطبعة الرابعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النّشر التابعة لجماعة المدرسين، قم.
- (٧) نقله عنه ابن أبي الحديد في شرح النّهج، شرح نهج البلاغة ٤: ٥٦، مرجعٌ سابق.
- (٨) الطبري، محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك ٤: ١٨٨، نسخة مقابلة مع نسخة مطبوعة بريل بمدينة ليدن، نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
- (٩) الجامع الصّحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠١، مرجعٌ سابق.
- (١٠) انظر: مسند أحمد ٢: ٤٤٢، مرجعٌ سابق. الحاكم النّيسابوري، المستدرك على الصّحاحين ٣: ١٤٩، إشراف: د. يوسف عبد الرّحمن المرعشي، دار المعرفة، بيروت. ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمّد، المصنّف في الأحاديث والآثار ٧: ٥١٢، تحقيق: سعيد اللحام، الطبعة الأولى ١٤٠٩، نشر: دار الفكر، بيروت.
- (١١) راجع: ابن حجر في صواعقه ١٤٢، ١٨٥، الطبعة: المحمدية.
- (١٢) ولا يسعنا المقام أن نجيب على ما يمكن أن يُقال بأنّ تقوى المعصومين وصلاحهم وعدالتهم على هذا التفسير يكون بإرادة من الله تعالى، وليس بإرادتهم؛ لأنّ الله تعالى أراد لهم ذلك، فلا يستحقون الثواب، كما يستحق غيرهم الثواب على صلاحهم وتقواهم وعدالتهم؛ لأنّ التقوى لم تتم بإرادتهم وإنّما بإرادة الله. ومن أراد تحريّ الجواب عن ذلك فليراجع كتابنا حول آية التطهير، وغيره من كتب التفسير عند الإمامية.
- (١٣) المستدرك على الصّحاحين ٣: ١٤٧، مرجعٌ سابق.
- (١٤) الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٢: ١٢، ضبط وتوثيق وتخرّج صدقي جميل العطار، دار الفكر ١٤١٥، بيروت. الحاكم الحسكاني، عبيد الله بن أحمد، شواهد التّنزيل لقواعد التّفصيل ٢: ١٢٠، تحقيق: الشّيخ محمّد باقر المحمودي، الطبعة الأولى ١٤١١، نشر: مؤسسة الطّبع والنّشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران.
- (١٥) ابن عسّاك، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ١٤٦، تحقيق: علي شيري، نشر: دار الفكر ١٤١٥، بيروت.

- (١٦) العاملي الناباطي، علي بن يونس، الصُّراط المستقيم إلى مستحقي التقديم ١: ١٨٥، تصحيح: مُحَمَّد باقر البهودي، الطبعة الأولى ١٣٨٤، نشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، نقلاً عن فضائل أحمد بن حنبل.
- (١٧) السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالماثور ٥: ١٩٨، دار المعرفة، بيروت.
- (١٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٢: ١٢، مرجع سابق.
- (١٩) المصدر نفسه.
- (٢٠) الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩: ١٦٨، نشر: دار الكتب العلمية ١٤٠٨، بيروت.
- (٢١) تقدّم تخريجه عن الحاكم في مستدركه.
- (٢٢)
- (٢٣) تقدّم تخريج ذلك.
- (٢٤) تقدّم تخريجه.
- (٢٥) لم يحضرنا المصدر (التحرير).
- (٢٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٩: ١٦٩، مرجع سابق.
- (٢٧) الدر المنثور في التفسير بالماثور ٥: ١٩٩، مرجع سابق.
- (٢٨) الحافظ ابن مردويه الإصفهاني، أحمد بن موسى، مناقب علي بن أبي طالب وما نزل من القرآن في عليّ، جمع وترتيب: عبد الرزاق مُحَمَّد حسين حرز الدين، الطبعة الثانية ١٤٢٤، نشر: دار الحديث، قم.
- (٢٩) العلامة العسكري، السيّد مرتضى، معالم المدرستين ٢: ١٠٦، نشر: مؤسسة النعمان ١٤١٠، بيروت.
- (٣٠) تقدّم تصحيح الحديث، وقد صحّحه الحاكم في مستدركه، فراجع.
- (٣١) الكليني، مُحَمَّد بن يعقوب، الكافي ٢: ٢٤، كتاب الإيمان والكفر، باب: إنّ الإسلام يحقن به الدّم... الحديث: ٤، تصحيح وتعليق: على أكبر غفاري، الطبعة الرابعة ١٣٦٥ ش، دار الكتب الإسلامية طهران.
- (٣٢) المصدر نفسه ٢: ٢٦، باب: أنّ الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشرك الإيمان، الحديث: الأوّل.
- (٣٣) المصدر نفسه ٢: ٢٦، الحديث: ٥.
- (٣٤) أبو جعفر الصّدوق، مُحَمَّد بن علي، الهداية في الأصول والفروع ٥٤، باب الإسلام والإيمان،

- تحقيق: مؤسسة الإمام الهادي عليه السلام، الطبعة الأولى ١٤١٨، قم.
- (٣٥) الكافي ٢: ١٦٩، كتاب الإيمان والكفر، باب: حقّ المؤمن على أخيه وأداء حقّه، الحديث: الثاني، مرجع سابق.
- (٣٦) المظفر، محمّد رضا، عقائد الإماميّة ١٢٤، تقديم: الدكتور حامد حنفي داود، انتشارات أنصاريان، قم.
- (٣٧) شيعة أهل البيت عليه السلام طائفة واسعة من المسلمين، يتبعون الكتاب والسنة، ويلتزمون بما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله، ويعتقدون أنّ حديث أهل البيت عليه السلام في امتداد حديث رسول الله. وقد ورد في طائفة واسعة من الروايات عن رسول الله ﷺ: أنّهم مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾. راجع في هذا المجال: كلاً من تفسير جامع البيان للطبري، وتفسير الدر المنثور للسيوطي في تفسير هذه الآية من سورة البينة، وغيرهما من التفسير الأثرية الأخرى.
- (٣٨) البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري ٨: ٢٧، كتاب المحاريب من أهل الكفر والردة، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، مصوَّرة عن طبعة دار الطّباعة العامرة باستانبول.
- (٣٩) تاريخ الأمم والملوك ٢: ٤٤٨، مرجع سابق.
- (٤٠) ابن الأثير، عزّ الدّين، الكامل في التاريخ ٢: ٣٢٦، نشر: دار صادر ١٣٨٥، بيروت.
- (٤١) أنساب الأشراف ١: ٥٨٧.
- (٤٢) الذهبي، محمّد بن أحمد بن عثمان، ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٣: ١٠٩، تحقيق: علي محمّد البجاوي، الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ، نشر: دار المعرفة، بيروت.
- (٤٣) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، لسان الميزان ٤: ١٨٩، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ. ق، نشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت.
- (٤٤) تاريخ الأمم والملوك ٢: ٦١٩، مرجع سابق.
- (٤٥) راجع: العلامة الأميني، عبد الحسين النجفي، الغدير ١: ١٩٧، الطبعة الرابعة ١٣٩٧، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، وسمّي هذا الحديث بالحديث المسلسل بالفواطم لوقوع ستّ من الفواطم في سنده.
- (٤٦) راجع: صحيح البخاري، كتاب المغازي، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، وغيرها كثير.
- (٤٧) نهج البلاغة، الكتاب: (٦٢)، ص: ١٤٥، مرجع سابق.
- (٤٨) نهج البلاغة، الخطبة: (٧٤)، ص: ١٤٥، مرجع سابق.

(٤٩) راجع : تفسير القرطبي ١: ١٨٥ - ١٨٦ في تفسير الآية ٣٠ من سورة البقرة، ومنهاج السنة النبوية لابن تيمية ١: ١٤١، والأحكام السلطانية للماوردي ص ٦ - ٧، والمغني للقاضي عبد الجبار، الجزء العشرين، القسم الأول ص ٣٠٣، ط: ١٩٦٦، والإيجي في المواقف ص ٣٩٩ - ٤٠٠، والفصل في الملل والنحل لابن حزم ٤: ١٦٧، وشرح جلال الدين المحلى على منهاج النووي ٤: ١٧٣، ط: محمد علي صبيح، وأصول الدين للبغدادى ص ٢٨٠ - ٢٨١، والنووي والرملي في منهاج الطالبين وشرحه ٧: ٣٩٠، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في الاعتقاد ص ٤٢٤، مطبعة السعادة بمصر، وأصول الدين البيزودي ص ١٨٩، والروضة للنووي ص ٢٦٧، وغير ذلك من المصادر.

(٥٠) نهج البلاغة، الخطبة: (٧٤)، ص: ١٤٥، مرجع سابق.

(٥١) راجع: أكثر هذه المصادر في كتاب الغدير للعلامة الأميني، ورسالة حديث الثقلين للشيخ الوشنوي.

الإسلام .. عقيدة وشريعة

نظرة في الفكر الإسلامي

□ الشيخ محمد جاسم الساعدي (*)

أعظم حدث

لا أبلغ إن قلت: إنَّ ظهور الإسلام كان أعظم حدثٍ في تاريخ العرب، وبداية تحوُّلٍ خطيرٍ في حياتهم الدِّينية والاجتماعية والسياسية والفكرية والأدبية، وكان له أكبر الأثر في حياتهم، لدرجة أنَّ أدَّى إلى حدوث انقلابٍ تامٍّ في معالم هذه الحياة، وتبدَّل في نفسية وأخلاق الإنسان العربي، بل ونمط تفكيره وسيرته. وبالرجوع إلى المعطيات التاريخية الملموسة، يمكن أن تتضح الرؤية بصورة شفافة وثاقبة، للمدى الواسع الذي بلغته مجريات التحوُّلات الاجتماعية التاريخية الكبرى للسُّكان القاطنين في شبه الجزيرة العربية، الَّذِينَ قُدِّرَ لهم أنْ يحتضنوا الرِّسالة الإسلامية العظمى، ويبدوا اهتماماً كبيراً تجاهها وتجاه صاحبها ﷺ.

ولعلَّ في مقدِّمة هذه المعطيات: هي درجة التَّغيير الكيفي الذي حلَّ في العلاقات والبنى الاجتماعيَّة المتخلِّفة في الوسط العربي الصَّعب، الذي تتحكَّم

(*) باحث إسلامي / العراق.

في جملة عوامل وظروف جعلت منه أن يكون أشبه ببيئة موبوءة بأمراض عسيرة العلاج، ناشئة إثر رؤى جاهليّة تعتمد الخرافة والتعصب والثأر أساساً لها. وكذلك التّغيير الكيفي، قد اشتمل على التّطوّر الاقتصادي والسياسي الذي أصاب تلك البقعة الكريمة من على سطح هذا الكوكب الدّوّار.

وبالعودة قليلاً إلى قراءة المسموح التي وثّقت بخصوص مسار المراحل التّاريخيّة التي تعاقبت على مرّ التّاريخ الإنساني والسياسي لمنطقة شبه الجزيرة العربيّة، ثمّ البلدان المتاخمة لها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وإلى حيث ما وصلت إليه الجيوش الإسلاميّة الفاتحة، نشهد خطأً بيانياً جليّاً يدلي بقوة، فيحكي أنّ ثمة حقبةً تاريخيّة قد مضت على فترات مختلفة شهدت تحولات منيرة، سواء على صعيد التّطوّر التّقني أم على صعيد بناء النّماذج الحيّاتيّة الجديدة التي لم تنقطع في يوم ما، قد تجسّدت في كلّ منطقة أصابها الطّوفان الإلهي، فاقتلع ما هو ماضٍ سخيّف، ليحلّ محله البديل الرّفيّع.

وقد استطاعت أنماط الإنتاج عبر الحقب التّاريخيّة المتلاحقة، منذ نشوء الإسلام وتوسّعه في المنطقة وحتى قيادته العالم الإسلامي والجزء الكبير من القسم المسيحي الجاثم على بقع شاسعة من ذلك العالم الغربي، فقد استطاعت أنماط الإنتاج والتّشكيلات الاجتماعيّة والأخلاقيّة الجديدة، ثمّ المخزون الثّقافي المتواصل العطاء، والثّروة الهائلة من الفكر والمبادئ والقيم التي جاء بها القرآن الكريم للبشريّة جمعاء.. كلّ ذلك استطاع أن يقدّم النّماذج الرّفيعة للإنسانيّة التي تقطن ربوع الأرض المترامية الأطراف، وتدعم ركائز تطوّرها وتقدّمها لتنافس أنماط الإنتاج الأخرى.

ولهذا يمكن القول: إنّ مضمون الحياة الجديدة التي أنشأها الإسلام، وفي ظلّ شريعته الغراء، تحتوي على نماذج حيّاتيّة تختلف كليّاً عن تلك التي قامت عليها حياة النّاس من قبل، من جاهليّة مشرّكة، ومسيحيّة محرّفة بعدما فقدت

بريقها وأصالتها جرّاء أيدي العابثين والمبطلين ممّن تجرّأوا على أن يُقدموا على أفعال خشيت الجبال من حملها، وتجاسروا على الانقضاض على أغلب تعليقات السيّد المسيح ﷺ وقيم السّماء التي جاء بها.

الإسلام... النمط الجديد

ولم يعد خافياً على أحد أنّ نمط الدّين الجديد الذي بات يكتسح كلّ العراقيل التي وُضعت أمامه، ويخترق كلّ الحدود الموضوعية، وأضحى قوّة عالميّة جديدة ينبغي أن يقام لها وزن في العالم آنذاك، وأنّ نمط هذا الدّين بدأ يكتسب بعداً خاصّاً يحسب له حسابه، ومفهوماً اجتماعياً شاملاً تلتحم في إطاره جميع الأوجه: الاقتصادية والسياسيّة والتّقنيّة والثقافيّة والتعليميّة، إضافة إلى الأطر الأيديولوجيّة الحديثة، ممّا يشكّل في النّهاية مدرسة حضاريّة متكاملة قائمة على أسس ومبانٍ أبهرت النّاس، وجذبت اهتمام حتى من كان يقطن الأقطار البعيدة عن هذه الحوادث المتلاحقة والمتسارعة، من خلال ما تنقل عبر التّجّار والمسافرين من أخبار وتطوّرات متعلّقة بهذا الدّين الجديد.

ولكن هذا لا يعني أنّ الإسلام كان يلغي بالضرورة جميع تأثيرات التّراكمات الحضاريّة والآثار الموروثة بالمرّة، وإنّما أثبت منها ما هو صالح وما لا يخالف قيمه ومبادئه وأخلاقيّاته، وكلّ ما هو يوائم الفطرة ولا يعارضها، ممّا لا يؤدّي إلى خلخلة البنية الاجتماعيّة التي راح يؤسّس قواعدها ويرفع من أعمدها.

كتب المؤرّخ الأمريكي ستودارد يقول: «كاد يكون نبأ نشوء الإسلام الخبر الأعجب الذي دوّن في تاريخ الإنسان. لقد ظهر الإسلام في أمّة كانت قبل ذلك العهد متضعضة الكيان، وفي بلاد منحطّة الشّأن، فلم يمضِ على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض! ممزّقا ممالك عالية الدّرى مترامية الأطراف، وهادماً أدياناً قديمة كرّرت عليها الحقب والأجيال، ومغيّراً ما بنفوس الأمم

والأقوام، وبانياً عالماً حديثاً متراصّ الأركان، هو عالم الإسلام»^(١).

كما وأثبت التاريخ أيضاً - من خلال قراءة في صفحاته وإلقاء نظرة فاحصة على بياناته المتعددة - أنّ التطوّرات الحضارية، سواء على المستوى التقني والمدني، العلمي والعملي، اللذين تهيّأ للغرب عموماً ولدول أوروبا خصوصاً، والطّفرة النوعية العالية، والكيفيّة المدهشة التي أنجزتها على كافّة الأصعدة، ولما أدّى إلى نشوء بنية تحتية اجتماعية واقتصادية راقية، إنّها هو أثر النموذج الجديد الذي أفرزته الظاهرة الإسلامية إبان احتكاكها مع شعوب وأمم ما وراء البحار، ممّا أحدث سلسلة تفاعلات غيرت بالضرورة الأنماط القديمة، وأوجدت لها هزّات عنيفة دفعت الغرب برمته إلى حالة (تقبّل) النمط الجديد، ثمّ استيعاب التّغيير الذي تمّ في نماذج مختلفة وعلى أصعدة مختلفة.

كتب المؤرّخ (هـ. أل. فيشر) يقول في هذا الصّدّد: «لم يكن هنالك في الجزيرة العربيّة قبل الإسلام أثر لحكومة عربيّة أو جيش منظمّ أو طموح سياسي عامّ. كان العرب شعراء خياليّين محاربين وتجاراً، لم يكونوا سياسيين إطلاقاً، إنهم لم يجدوا في دينهم قوّة تثبّتهم أو توخّدهم، إنهم كانوا على نظام منحطّ من الشّرك، ولكن بعد مائة سنة من ولادة الإسلام فقط انتزعوا أفريقيا من البيزنطيين والبربر وإسبانيا من الغوط، وهذّدوا فرنسا في الغرب والقسطنطينيّة في الشّرق، ووجدت الدّول النصرانيّة من أقصى أوروبا إلى أقصاها، منذرة ومهدّدة بحضارة شريقيّة مبنية على دين شرقي، ألا وهو الإسلام»^(٢).

عصران متفاوتان

قد تصيب الدّهشة كل من يحاول أن يستقرئ الحوادث التي صنعها الفكر الإسلامي عبر التاريخ الإنساني. وربّما تعقد لسانه هذه الدّهشة إذا ما سعى إلى إمعان النّظر والبحث في هذه الحوادث، وألقي بعض الضّوء على الانتصارات

السَّاحقة التي حَقَّقَهَا على أكثر من جبهة، وفي فترة زمنية قصيرة.
وقد تزداد هذه العقدة شدة لو عكف على المقارنة بين هذا التَّوسُّع المذهل
وتلك الإمكانيات البسيطة التي ابتدأت بها الرِّسالة الإسلامية في فجر دعوتها
المباركة.

شيءٌ مدهشٌ حقاً!!

إذ كيف يمكن لدينٍ ظهر في أمةٍ أقلَّ ما يوصف بحَقِّها: أنَّها همجيَّة! لا تعتقد
إلا بالخرافات، وليس لها همٌّ إلا الغارات والغنائم، أن تنقلب - بفضل هذا
الدين - إلى أمة ذات حضارة وملك ومنعة وقوَّة، امتدَّت لتخضع مساحات
شاسعة، قاربت نصف الكرة الأرضيَّة - على إحدى التَّقديرات - تحت سيطرتها،
وعلى حساب قوتين عظيمتين آنذاك: الامبراطوريَّة البيزنطيَّة الرُّوميَّة،
والامبراطوريَّة الكسرويَّة الفارسيَّة!!؟
لا بدَّ أنَّ في هذا الأمر سرّاً!!

ظلمة الجاهليَّة

لقد ظهر الإسلام في ظروف سيئة للغاية عاشتها الإنسانيَّة ككل، يسودها
الجهل والخرافة والوثنيَّة والسَّحر والشعوذة والتَّنجيم.
ففي شبه الجزيرة العربيَّة اتَّخذ سكَّانها الجاهليُّون الأصنام المصنوعة من
الذهب أو الفضة أو النُّحاس أو الحجارة الثمينة لتقرَّبهم إلى الإله، معتقدين أنَّ
هذه الأصنام تدافع عنهم وتذبُّ عن القبائل وتحميها في الحروب، ومن هنا جاء
تعظيمهم لها، والتَّقرُّب إليها بالصَّلاة والسُّجود، وبالطَّواف أيضاً حولها،
وتقديم القرابين والنُّذور إليها.
وكانت لهم عاداتٌ سيئة يارسونها في حياتهم اليوميَّة، ولعلَّ أشنعها: عادة
وأد البنات تخلُّصاً من العار الذي يمكن أن يلحق بهم إذا ما خطفن أو تمَّ

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٥٨)
 يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ
 ﴿٥٩﴾ [النحل].

كما ومن عاداتهم الجاهليَّة التي كانت جارية بينهم: العرافة، والكهانة، والرَّقى، والطِّيرة، وضرب المريض لغرض إخراج الجنِّي أو الشَّيْطان من جسده، واستعمال الأدوية الخاصَّة بتنفير الجنِّ والشَّياطين، على حدِّ قول الأستاذ عزَّ الدين إسماعيل في كتابه: (المكوّنات الأولى للثقافة العربيَّة).

وأما في بلاد فارس المجاورة فقد تجلَّت عند سكَّانها عبادة الظَّواهر الطَّبيعيَّة، كالسَّماء والضَّوء والنَّار والماء، فعبدوها على أنَّها كائنات إلهيَّة، وتفنَّوا في إطلاق التَّسميات عليها، فسَمَّوا الشَّمس عين الله! والضَّوء ابن الله!! كما اعتقدوا بأنَّ الظُّلْمَة والجذب ونحوهما كائنات إلهيَّة شرِّيرة وملعونة.

وعرف سكَّان الهند بعبادة الحيوانات، وبخاصَّة البقر، إذ إنَّها حظيت بقدسيَّة خاصَّة دون سواها، وقد ألِّفت في تقديسها الأناشيد؛ لأنَّهم اعتقدوا بأنَّ الله سبحانه يتجلَّى فيها. كما عرفوا بعبادة القوى الطَّبيعيَّة، وعبادة عضو التَّلقيح؛ لأنَّه باعتقادهم سبب الخلق كلُّه!!

وأما عند سكَّان ماليزيا والجزر الأخرى القريبة منها فتجري طقوس غريبة وخاصَّة تتجلَّى في تقديس الجنس البشري؛ لأنَّهم باعتقادهم أنَّه نزل من صلب بعض الكائنات العليا! وأنَّ الزوجين الأوَّلين من البشر خرجا من بيضة باضها طائر!

وأما في أفريقيا فقد طغت الخرافات عند سكَّانها، والاعتقاد بالقوى الرُّوحيَّة، حيث اعتقدوا أنَّ لكلِّ شخص نفسين: الأولى تنفصل عن الجسد تنضمُّ إلى أجدادها، والأخرى جماعيَّة، وهي جزء من الأسرة التي تحلُّ في أجساد جميع أعضائها بصفة مؤقتة! كما واعتقدوا بأنَّ البشر إنَّما نشأوا من جذع شجرة

أو من الحيوان!

وهكذا الأمر في أستراليا والسُّكَّان القاطنين في خليج البنغال، وكذا عند سكَّان القارَّة الأمريكيَّة، فإنَّ ممارستهم وأساطيرهم وإيمانهم بالخرافات كانت على درجة كبيرة، بل بلغت حدَّ القدسيَّة كما ينقلها العميد عبد الرَّزَّاق في كتابه: (المدخل إلى دراسة الأديان)^(٣).

انطلاق النُّور الإسلامي

وسط هذه الفوضى والجمود العقلي ووسط الجاهليَّة المنحطَّة، هبط الوحي من السَّماء حاملاً أنواره القرآنيَّة؛ ليكشف الزَّيف عن الحقائق والخرافات عن المصاديق، وليعرِّف الإنسانيَّة جمعاء الصَّواب من الخطأ. في تلك الظُّروف الصَّعبة نزل القرآن الكريم في قلب شبه الجزيرة العربيَّة؛ ليحطِّم الأوثان، ويكشف الظُّلمة، ويدعو إلى حياة جديدة حيَّة ومشقة بعيدة عن الخرافات والأساطير.

وكانت أولى دعواته أن (اقرأ)، دعوة إلى القراءة والاهتمام بالعلم وفنونه؛ إذ بالعلم تفتح مسالك الوعي عند الإنسان، فتتهيأ فرص كسب المعارف، وعندئذٍ تعرف الحقائق فيتمسَّك بها، والأساطير والخرافات فيرغب عنها. فكانت هذه تمثِّل طفرة نوعية أولى في حياة الإنسانيَّة المعذَّبة، أدَّت إلى تزلزل نظم ومقاييس ومرافق الحياة السَّائدة، وزعزعة أركان العقائد البالية، ونسف الخرافات المنتشرة. بل كانت هذه الدَّعوة بداية ثورة على الواقع الفاسد، وإعلان الطَّلاق من الأفكار المهترئة، وانكشاف الصُّبح الجديد.

القضاء على الوثنيَّة

لقد قضى الإسلام على الوثنيَّة، وقرَّر التَّوحيد المطلق لله سبحانه وتعالى في

الذات والصفات، والتوجه له بالعبادة وحده. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهُ وَحْدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

فأفاد المسلم من هذه العقيدة:

- الاستقلال والحرية؛ إذ ليس لأحد عليه سلطان.
- العفة والأنفة؛ حيث يعتقد أن لا رازق إلا الله تعالى.
- الشجاعة وعدم هيبة الموت؛ لأن الذي يملكه هو الله وحده، وبذلك يرتفع إلى العزة والإباء وطلب الاستشهاد في سبيل الحق.
- كما أنه حارب الشرك بالله بكل أشكاله وأضرابه؛ لأنه وليد الجهل والوهم: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

كما دعا إلى أن ما وراء هذه الحياة حياة أخرى، يحاسب فيه كل إنسان على ما أتى من خير أو شر، فالإنسان يعز عليه أن لا ينال الخير أجره، وأن لا يلقي الشر جزاءه، والاعتقاد بوجود إله عادل يستتبع حتماً جزاءً على الخير والشر، فإن لم يتم العدل في عالم الأرض فلا بد أن يتم هناك في عالم آخر، يقول الله تعالى: ﴿وَلَنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

والإيمان بالملائكة يوجب الاعتقاد بأن للإنسان حياة روحية، وأنه يجب عليه تنشيط هذه الحياة، والاستجابة لعوامل الخير التي أودعها الله فيه، والغرض من ذلك: التسامي بالإنسان والرقى به إلى أرفع درجات الكمال.

ولهذا جعل الإسلام الإيمان بالملائكة ركيزة من ركائز الدين، قال تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فيقرر الوجوب في الإيمان بالقرآن وبما سبقه أيضاً من الكتب التي أنزلت على رسل الأمم الماضية في صورتها الحقيقية غير المحرّفة، وكذلك الاعتقاد ببعثة

الرُّسل وتصديقهم، وضرورة الاقتداء بهم في سيرتهم. وهذه ميزة اختصَّ بها الإسلام دون غيره، بل لعلَّها من أبرز خصائص الإسلام الدِّينية وما يبشِّر به من قيم أخلاقية تعدُّدية على هذا الصَّعيد. وبشكل عامٍّ فإنَّ هذا النِّحو من الإيَّان أثر بصورة كبيرة على الوضع السِّياسي والاجتماعي في البلاد الإسلامية؛ إذ أدَّى إلى خلق استراتيجية جديدة حظيت باهتمام الشُّعوب التي لم تعرف سوى العصبيَّة الدِّينية، والتَّعصُّب المذهبيِّ الأعمى، وإذا بهم ينبهرون أمام حالة جديدة تدعو إلى عكس ما ألفوه، فانفرد الإسلام بالهيمنة على قلوب النَّاس بعد أن زاد الاعتماد الإسلامي واندفاع النَّاس نحو هذا الدِّين الملائكي الجديد!

- لقد أراد الإسلام بهذا الاعتقاد الجديد جملة أهداف سامية، من أهمِّها:
- التَّوفيق بينه وبين غيره من الأديان؛ لأنَّها جميعاً نزلت من مصدر واحد.
 - وضع الأساس المتين للتَّعارف والإخاء والوحدة بين شعوب الأرض.
 - تمهيد الاعتقاد المطلق بالرسالة المحمَّدية الأصيلية.
 - تأكيد أصالة هذه الرِّسالة، وأنَّها ليست بغريبة عن غيرها.
 - الاعتقاد بخاتم هؤلاء الرُّسل عليه السلام محمد عليه السلام، وأنَّ رسالته إلى النَّاس كافَّة، وإلى جميع شعوب الأرض: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ النَّاسُ إِلَهِي رَسُولُ اللَّهِ إِلَهُكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وأنَّها خاتمة لجميع الرسالات السَّابقة، وناسخة لما تقدَّم منها، ومكمِّلة ومتمِّمة للأديان السَّابقة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

التَّدْفُقُ الحرّ

وأتساقاً مع هذه التّعاليم والعقائد الجديدة، ازدادت معدّلات التّوجه نحو هذا الدّين الجديد، وارتفعت مؤثّرات الاندفاع من كلّ أرجاء العالم بأنّجاه هذا النّمط الإنساني والأخلاقي الرّفيع الذي يدعو له الدّين الإلهي النّازل على رجل عربي شرقي، فكان أن يلاحظ دخول البشريّة زرافاتٍ زرافاتٍ في هذا الدّين، واعتناق الأمم والشّعوب لهذه العقائد الإلهيّة السّامية.

فكان أن نشأت مرحلة التّدْفُق الحرّ وغير المقيّد لفلك الإسلام على الصّعيد العالمي، وشوهدت القرارات والتّشريعات والسيّاسات الوضعيّة والسّماويّة المحرّفة تنهار قواعدُها وتهوي أركانها على رؤوس مؤسّسيها والقائمين عليها، فأضحت منفلتة عن غرف صنّاع القانون والقرارات السيّاسيّة والدّينيّة في العالم المسيحيّ الفسيح، بل بلغ التّدْفُق أوجّه لما خفّت قارّات ومجتمعات بكاملها - وبسرعة - نحو اعتناق هذا الدّين القويم.

لقد أحدث الإسلام ثورةً عارمةً في الدّنيا غيّرت وجه التّاريخ، وهزّت جميع الحضارات السّابقة البدائيّة وغيرها، وكوّن على أثرها حضارةً إنسانيّةً متكاملة، وقام بتقديم الحلول المناسبة لمشاكل البشريّة المختلفة، ووضع لها القوانين المتطوّرة لتمارس من خلالها عمليّة الرّقي والتّحضّر.

كتب المستشرق الفرنسي الشهير غوستاف لوبون^(٤) يقول: «فالعرب كانوا إذا ما استولوا على مدينة صرفوا همّهم إلى إنشاء مسجد وإقامة مدرسة فيها، فإذا كانت تلك المدينة كبيرة أسّسوا فيها مدارس كثيرة.. ومنها العشرون التي روى بنيامين التّطليبي المتوفّي سنة ١١٧٣م أنّه شاهدها في الإسكندريّة، وهذا عدا اشتغال المدن الكبرى كبغداد والقاهرة وطيّطلة وقرطبة على جامعات محتوية على مختبرات ومراصد ومكتبات غنيّة وكلّ ما يساعد على البحث العلمي. فكان للعرب في إسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامّة، وكان في مكتبة الخليفة الحكم

الثاني بقرطبة ستُّ مائة ألف كتاب، منها أربعة وأربعون مجلِّداً من الفهارس^(٥). ويقول المستشرق لويس سيديو^(٦): «كان المسلمون في القرون الوسطى منفردين في العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها أينما حلَّت أقدامهم، وتسرَّبت عنهم إلى أوروبا، فكانوا سبباً لنهضتها وارتقائها»^(٧).

كَمْ عِلْمِيَّ هَائِل

لقد كان لهذه العقائد والتعاليم الجديدة أثرها الواضح في رفع المستوى العلمي والثقافي والحضاري للمسلمين، فتغيَّرت قيمة الأشياء والأخلاق في نظرهم، فارتفعت قيمٌ، وانخفضت بالمقابل قيمٌ أخرى، إنَّ صحَّ التعبير، وأصبحت اهتماماتهم غيرها بالأمس.

ففي الوقت الذي حارب الإسلام الخرافات والأوهام، دعا النَّاسَ إلى التفكير المنطقي والتأمُّل العقلي وطلب العلم والمعرفة. فحرَّك العقول وفتح الأذهان على أمورٍ كان من شأنها أن بدَّلت المعادلات الفكرية والثقافية والعلمية عند المسلمين بعدما غيَّرت نفسيتهم.

فقد أُتيح للعقل في الإسلام مجالٌ واسع للنَّظر في سرِّ الوجود، وإدراك حقيقته وماهيَّته. وقد نصَّت آياتٌ كثيرةٌ على ضرورة تأمُّل خلق السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وما بينهما من كواكب وأفلاك، وما في الأرض من جبال وبحار وحيوانات وطيور ونباتات وأعشاب.. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥].

كما حثَّ على تحكيم العقل في كُلِّ ما يعرض للإنسان من أمر، ودعا إلى استخدامه في تعريف وفهم الظواهر الطبيعية والاجتماعية، منعاً من تسرُّب كلِّ ما من شأنه التَّوهُّم وكلِّ ما له علاقة بالخرافة والأساطير.

ومن إحصاء بسيطٍ نقوم به لو اطلعنا على بيانات إحصائية تدلي بأن القرآن قد ذكر (العقل) باسمه وأفعاله زهاء ثلاثين مرّة، وذكر تعبير (أولو الألباب) أكثر من (١٥) مرّة، كما وذكر (العلم) في مواضع من آياته الكريمة أكثر من ثمانين مرّة، وذكر مشتقاته أضعاف ذلك. فإنه يتبيّن لنا من هذا الإحصاء أنّ القرآن قد رفع من منزلة العقل مكاناً عليّاً؛ لأنّ العقل السليم هو الذي يرتضي الفضائل ويرفض الرذائل.

كما وحضّ الإسلام على العلم؛ لأنّه يعلم أنّ الشخصية الإنسانية لا يقومها ولا يرقّيها ولا يشحذ قواها إلّا العلم. ولذا كان تفريقه بين أهل العلم وغيرهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]. ولا ريب أنّ العلماء هم أكثر الناس فهماً لآلاء الله، ووعياً لحكمة آياته، وتمثلاً لبديع قدراته، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ولذلك فهو يسجّل لهم ميزات رفيعة لا يشاركهم فيها غيرهم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ولهذا تخرّج في ظلّ هذا الدين الحنيف كمّ علمي هائل من المفكرين والفلاسفة والأدباء والعلماء في حقول طبعية ونظرية متعدّدة، ثمّ السّياسيين والاجتماعيين والأخصائيين في الكلام والأخلاق والتربية، على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم في ميدان تخصّصهم، فكان أن أبهر العالم وجذب انتباه المعنّين من جميع الأطراف.

خطب عميد كلّية الحقوق بفينيا في مؤتمر الحقوق الذي عقد عام ١٩٢٧ م: «إنّ محمداً استطاع أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمّته بعد ألفي سنة!»^(٨).

وعلى الامتداد كتب المستشرق الأستاذ (آدموند يورك) يقول: «إنّ القانون

المحمّدي قانون ضابط للجميع، من الملك إلى أقلّ رعاياه، وهو قانون نسج بأحكم نظام حقوقي، وأعظم قضاء علمي، وأعظم تشريع عادل، لم يسبق قطّ للعالم إيجاد مثله»^(٩).

رايات خفّاقة

ومن هنا فقد ارتفعت راية جماعات العلم الفكر وقادة الرّأي والحكمة الرّفيعة عالية خفّاقة، تذرّع المنتديات الفكرية العالمية، وتكتسح أروقة المؤسّسات الدّولية وساحات العلم والفنّ وحقول المعرفة بكلّ أقسامها، فصاروا يشار إليهم بالبنان، هؤلاء الذين أصبحوا قريباً لكلّ الاتجاهات العظمى التي كانت سائدة حينذاك، فعرفوا بالتّيّار المحمّدي أو التّيّار الجديد؛ لما تضمّنه هذا الدّين من تعاليم وقيم وأخلاق رفيعة، اشتملت على دلالات إزاء السّياسة الصّادرة من القوى العظمى آنذاك.

فلمعت نجومٌ في سماء الإنسانيّة، كان لها الأثر الكبير في دفع عجلة العلوم والمعارف خطوات نحو الأمام، كـ (جابر بن حيّان) في الكيمياء، و (ابن سينا) في الطّبّ والفلسفة، حيث لا يزال إلى الآن كتاباه: (القانون) و (الشّفاء) موضع إعجاب الباحثين، و (ابن الهيثم) في البصريّات والفيزياء، و (الخوارزمي) و (البيروني) في الرّياضيّات والفلك، و (أبي بكر الرّازي) في الكيمياء والطّبّ، و (القزويني) في الطّواهر الطّبيعيّة، و (ابن البيطار) في علم الأعشاب والنّبات، و (ابن النّفيس) و (الزّهراوي) في الطّبّ والجراحة، و (نصير الدّين الطّوسي) في الفلك والرّياضيّات والكلام، وغيرهم ممّن لا يتّسع المجال لعدّهم وإحصائهم.

نزعة جديدة

رأينا أنّ الإسلام يمتلك لغة أو خطاباً مزدوجاً، هي لغة الدين وتقديم

تعاليم السَّاء للنَّاس كافَّة، وخطاب العالميَّة التَّناسيَّة. وهذا الخطاب المزدوج قد أدَّى دوراً بالغ الأهميَّة في سياق تطوُّره العالمي، وتنافسِه على المواقع المتقدِّمة في الكيانات السِّياسيَّة القائمة في العالم آنذاك.

فمن وجهة أولى: يقوم الطَّرف الأوَّل من الخطاب بتثبيت المعادلة الدَّاخليَّة للوضع الرَّاهن في داخل العائلة المسلمة، وتنظيم حياتها بحيث يبلغ بها بأنَّجاه السَّعادة الدُّنيويَّة والأخرويَّة، من خلال جملة قيم وتعاليم تعين النَّاس على تنظيم أمور معاشهم، وتبعد كلَّ العقبات التي قد توجد أثناء المسيرة الحياتيَّة للكيان الاجتماعي الأوَّل للمجتمعات.

ومن وجهة أخرى: يقوم في معادلة النُّظام الخارجي بتوظيف سياسة خاصَّة قائمة على طائفة من الأسس الثَّابتة والمبرمجة بشكل يتلاءم والظُّروف المحيطة بالبلاد الإسلاميَّة؛ لغرض دعم القدرة التَّناسيَّة الحقيقيَّة للدولة الإسلاميَّة، وتقوية مسيرتها التَّنمويَّة على جميع الأصعدة.

وإنَّما يتمُّ هذا بالاتِّكاء على القدرات الدَّاتيَّة والتَّفوق الخالص الذي لا يدع مجالاً للمقارنة مع الآخرين، من خلال سلسلة التَّعاليم الذَّهبيَّة التي يشتمل عليها التَّشريع الإسلامي الحنيف، والتي أطلقها لمعتنقيه لأجل توفير الحدِّ المقبول من المستوى العلمي والثقافي لأفراده.

ففي الوقت الذي حضَّ الإسلام على طلب العلم ورغب فيه، وأبرز نصوصاً تؤكِّد على فضيلة هذا الصُّنع ومكانة العلماء وقدسيَّتهم، وأوعز أنَّ لهم مقاماً محموداً يوم القيامة؛ لأنَّهم كانوا الأكثر فهماً لآلاء الله ونعمائه، والأعظم وعياً لحكمة آياته، والأشدَّ تمثُّلاً لبديع قدراته، في الوقت ذاته، دعا المسلمين إلى محاولة إقامة البرهان اليقيني على كلِّ شيء يراد أن يعرف حقيقته، أو فقه كنهه، قال تعالى، مخاطباً أناساً معيَّنين: ﴿قُلْ هَآؤُنَا بُرْهَٰنُكُمۡ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]، وعدم اللجاج والاجتهاد في طلب الجدل غير العلمي؛ حيث قال

تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

ولذا، فقد أمر الإسلام أتباعه بأن يتقيدوا بالأسس العلمية في مساعيهم عند صياغة الخطاب العلمي أو الأدبي أو الأخلاقي، والتزام جادة الحق حين المسير والدوران في أروقة العلوم والمعارف النظرية والعملية، وأن لا يتوهموا، فيسلكون مسالك الآخرين التي - بلا ريب - ستؤدّي بهم إلى المزالق العظيمة والخطرة.

ذلك أنّ هؤلاء يقومون على أسس وضعيّة محدودة، ويتخذون من الظنون قواعد في بنيانهم، ومن المؤكّد أنّ الظنون والأوهام هما السبب في تضليل الناس وإفساد معتقداتهم، وعلى مستويات مختلفة، يقول تعالى: ﴿وإن تطلع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخوضون﴾ [الأنعام: ١١٦].

فقد حارب الإسلام بكلّ قوّة ذلك الانسياق الأعمى، وشدّد النكير على الذين يتمسّكون بالرأي، لا لأنهم عقلوه، ولكن لأنّ آباءهم فعلوه: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ [المائدة: ١٠٤].

ونهى - أيضاً - عن التقيّد بوجهة نظر واحدة، وذلك من خلال دعوته للأخذ بالأحسن، ونشر روح الأخوة والوداد بين أفرادهم، ولو مع الآخرين، وتعاطي الشورى لتحقيق الدّرجة القصوى من الكمالية في الرأي والصّوابية في القرارات.

وهذه بطبيعتها تعدّ نزعة جديدة في الإخلاص للحقائق، وبلوغ التّجليات القيومية، والانطباع بالأبلغ والأكمل من الصّور الحياتية بكل إشكالياتها وتداعياتها، وهذه النزعة لم تتجلّ على أكمل حالاتها إلا لدى مفكّري أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، الذين أدركوا أنّ الحقائق طالما لم تنزل من لدن خالق الكون فهي محدودة غير مطلقة، وأنّ هذه الحقائق لا يمكن

أن تكون وفقاً على فلسفة مقررة واحدة، بل يجب عليهم أن يأخذوا بأحسن ما يجدونه من جميع الفلسفات؛ إذ إنَّ أسلوباً واحداً من البحث لا يصحُّ أن يحتكر أحسن الطرق للوصول إلى الحقيقة.

وهذه النزعة تتضح بشفافية لكل من يتعاطى مع هذا الكتاب الجليل، ويسافر مع سطره عبر كلماته التي تفوح منها رائحة البحث عن الحقيقة والإصرار على بلوغ الحق وفق الموازين العلمية المسلمة.

تقول (فاليزي) في مقال لها: «فرضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام بها وبأعبائها؛ لبعدها عن مدى الأفهام، على حين كان الإسلام عجباً في سهولته صريحاً في فروضه، وهذا كان سبباً آخر في سرعة انتشاره بين الشعوب التي اضطربت أخلاقها كل الاضطراب بما أصابها من الشك المظني بعقائدها الدينية، وهذا - أيضاً - كان ولا يزال السبب في انتشاره المتواصل بين الأمم في آسيا وأفريقيا؛ لنفوذه إلى أرواحهم دون حاجة إلى التّطويل في شرحه والتّلفّظ في الدّعاية له».

وهذا ما دعا (ر. دافيد) كبير أساتذة القانون المقارن الفرنسي إلى الاعتراف بمقام الإسلام ومكانته العلمية؛ إذ يقول: «... لا تزال الشريعة الإسلامية تعدّ من الأنظمة الفقهية العظيمة في العالم الحديث»^(١٠).

منهج تربوي

تحتفظ كلّ أمة من أمم الأرض بصفات خلقية خاصة بها، كالكرم والشجاعة والإباء والإيثار والتّضحية، إلّا أنّ أغلبها تضعف وتتغير معاييرها الأساسية عند حدوث التناصر والتعصّب القومي، وقد تنسف لمجرد حصول ما يخالف هواها، أو تقدّم نشاطات معادية أقوى في الكيد والعدّة والعدد، فتتنازل عمّا هي عليه من صفات وتقحمها تحت الأقدام، غير عابئة بتاريخها ولا

أصولها المتوارثة.

وقد جبلت الشعوب على أخلاق ملوكها كما هو معروف، لكن لما حلَّ الإسلام محلَّ أولئك وتصدَّر مواقع القرارات، أبرز معطيات جديدة وأسساً متكاملة على هذا الصَّعيد؛ حيث وضع للأخلاق مثلاً علياً تخالف الجاهليَّة، وتقيّد بقيمها في جميع الأحوال، في السَّلم والحرب، في زمان الاستقرار والاضطراب.

فحينما ظهر نوره وشعَّ في أطراف شبه الجزيرة العربيَّة، أهر الناس بقيمه الخلقية ومبادئه التَّربويَّة السَّامية؛ لأنَّ من أهدافه آنذاك: التَّأكيد على المبادئ الأخلاقيَّة التي تحلَّى بها العرب قبل الإسلام، لكنَّه اشترط أن تكون قائمة على فلسفة جديدة تتمتَّع بمثل راقية وأسس جديدة، وصياغة خطاباتها بحيث تتواءم ومبادئ العدل والإنصاف التي دعا إليها الإسلام منذ أوَّل إطلالة إشعاعه النُّوراني على صفحة الأفق الرَّحيب.

فإنَّ الكرم - مثلاً - كان خُلُقاً فاضلاً في الحياة الجاهلية، لكنَّه كان قائماً على فلسفةٍ منحطَّة، خلاصتها: التَّباهي والتَّفاخر، فيشيد به المادحون، وينتشر ذكر أصحابه في أطراف العرب المترامين داخل شبه الجزيرة العربيَّة.

فإذن، كان الكرم نوعاً من أنواع الوسائل للفخار والكلف بحسن الأحذوثة، وطلب حسن الذِّكر، والتَّنافس بين الوجوه العشائريَّة والاجتماعيَّة على إحراز (اللقب).

أمَّا الكرم الذي دعا إليه الإسلام: فإنَّه كان مظهرًا لسخاء النَّفس ورحمة القلب وابتغاء ثواب الله سبحانه ورضاه. فغايته إذاً ليس طلب الأبهة أو المباهاة أو السَّيادة أو الفخر المشوب بالرَّياء، بل القربى إلى الله والشُّوق إلى ثوابه. ولهذا حصَّ الإسلام على البذل، وآثر أن يكون بعض البذل في خفاء. وهكذا الكلام في الشَّجاعة والإيثار والمروءة ونصرة المظلوم وغيرها...

لقد بنى الإسلام صرحاً متيناً من معالي الأخلاق والمثل العليا، كان لها الأثر البارز في بناء صرح حضارة عريقة، والدور الكبير في صياغة شخصية الإنسان والمجتمع المسلم.

وقد تجسّد كل ذلك تجسّداً حياً بكلّ تلك القيم والمثل الحقّة في الرّسول الكريم ﷺ، ومن بعده الأئمّة المعصومين من أهل بيته عليه السلام، فكانوا ثروة هائلة من الفضائل، وكما غزيراً من القيم العليا، وقمة باسقة وسامية وسامقة من مكارم الأخلاق والتّربية السّليمة.

ويكاد لا يفترق اثنان في أنّ الإسلام قد بنى جيلاً مؤمناً رسالياً، يتمتّع بموهبة تربويّة عالية، أهّلتهم لامتلاك زمام الانبعاث والتّحرُّر والبناء، فصاروا عماد القوّة الكبرى التي اندفعت في الأرض ترفع راية الإسلام، وتعلن اسمه، وتمدّ نفوذه من حدود الصّين إلى حدود فرنسا، ثمّ تنشر تلك الرّوح في نفوس شعوب البلدان المفتوحة.

واقعيّة فذّة

فالإسلام فكراً وعملاً لم يدع الإنسان يعيش الفوضى والاضطراب النّاجمين عن إفرازات نظريّات وقوانين وضعيّة أو سماويّة محرّفة إثر دوافع ونزعات شخصيّة وعصبيّة مختلفة، كما لم يتركه يحيا حياته بوحى الاجتهاد الشّخصي، بل هيأ له الأرضيّة المناسبة لسعادته؛ للعيش الكريم مع بني جنسه.

ولذا سعى إلى وضع منظومة عمليّة وواقعيّة، همّها تنظيم علاقة الإنسان بخالقه أولاً، ثمّ وجه هذه العلاقة لتطوير العلاقات الإنسانيّة داخل المجتمع الواحد ثانياً، كما أحكم لها ضوابط عامّة تمثّل صياغة مقنّنة وبجديّة لإصلاح الإنسان وبيئته ثالثاً.

وطبيعيّ أنّ هذه النّقلة النّوعيّة في المساعي، والطّفرة الحضاريّة في المدنيّة

والرقي، لم تكن لتقوم لها قائمة لولا وجود فلسفة ثابتة، ومنهجية عمل متكاملة، قد وضعت في حسابها جميع الحلول للمشاكل التي يمكن أن يحدثه هذا التحوّل والنقطة الحضارية للبشر.

إنّ هذه الفلسفة وهذه المنهجية العملية اللتين أعدّهما الإسلام ونظّم حباتها لتظهرها بالشكل اللائق، قد اتّسمتا - فضلاً عن تكاملهما وشموليتهما - بالواقعية، ممّا كان له الأثر الفاعل في خلود رسالة الإسلام وانتشارها في أنحاء المعمورة. فالديانات السّماوية الأخرى قبل الإسلام، رغم اشتغالها في صورتها المصفّاة على جوهر العقيدة الخالدة التي أرادها وأنزلها ربّ السّماوات والأرض، إلّا أنّها - جميعاً - كانت تعبّر عن مرحلة من مراحل تطوّر البشر على المستوى الاجتماعي والثقافي، فكانت كلّ رسالة موجّهة لمجموعة من النّاس لتلائم وضعهم الحضاري، ثمّ تقلّصت في نهاية المطاف جرّاء جحود النّاس وعصيانهم، وتوقّفها عن تقديم الإجابات المناسبة في المراحل الأكثر تطوُّراً من حياة النّاس، فكان أن أصبحت رمزاً للجمود والتّعصّب والتّحريف على أيدي العابثين، فضاعت صيغة الخطاب الحقيقي واندثرت الحقيقة المعنيّة، ففقدت بذلك انسجامها وجوهرها الصّافي النّقي، كما هو الحال في رسالة نبي الله موسى عليه السلام التي أصابها أيّما تحريف، لدرجة أن استحالت إلى ديانة قوميّة وعنصريّة لليهود خاصّة، تحلّ له ما تحرّمه على غيرهم، حتى انتهى بهم الأمر أن جعلوا الله سبحانه، ربّ النّاس، إلهاً قوميّاً خاصّاً بهم دون قاطبة البشر!

وجاءت المسيحية لغرض تصحيح هذه التّحريفات حتى يتّسع دين الله لمحبة النّاس جميعاً، ويخرج من الإطار القومي الذي صنعه أحبار اليهود وحصره فيه، ليصبح كما أراد سبحانه وتعالى ربّاً لكلّ النّاس، لا لليهود وحدهم. ولكنّ المسيحية قد أصابها مثل الذي أصاب اليهوديّة من قبل، فقد نفذت إليها يد التّحريف، وصار عندها - لظروف تاريخيّة معلومة - عوامل العبث

والتَّغْيِير، فطالها الضَّعْف والعجز عن تقديم الأفضل للإنسانيَّة المعذَّبة، ولم تتوسَّع في تنظيم علاقات المجتمع، وإنَّما اكتفت بما جاءت به التَّوراة، وما وضعه الأَحبار من تشريع يتواءم ومصالحهم الجارية!

لقد كانت البشريَّة في حالة ظمأ شديد، وفي حاجة أشدَّ إلى من يروي عطشها، يضاف إلى حاجتها الملحة إلى تعبير جديد عن تطوُّرها، يقوم بالإجابة عن كلِّ ما يعترىها من مشاكل، ويعوقها من مستجدَّات، وهي تعيش مرحلة حضاريَّة متطوِّرة ووعي متقدِّم تجاه الكون والأشياء المحيطة بها.

كانت البشريَّة بحاجة إلى (فلسفة) جديدة تقدِّم لها الحلول المناسبة لما أصابها من مستحدثات حضاريَّة مختلفة، ممَّا يحتاج الأمر معها إلى صياغة جديدة للفرد والمجتمع معاً بما يناسب تطوُّرها الجديد، وتعيد إليهما جميعاً التَّوازن والانسجام بما يحفظ للمجتمع تماسكه وتكافله ويضمن للفرد حرَّيته وتطوُّره.

على أن تتمتَّع بـ:

- حماية ذاتيَّة كافية من كلِّ أيادي العبث والتَّحريف التي قد تطالها كما طالت ما سبقها.

- شموليَّة كاملة لتحتضن جميع النَّاس، وليس أقواماً دون قوم.

- تكامليَّة هادفة لتجيب عن جميع الأسئلة، وتلبِّي كلَّ الحاجات في ظلِّ جميع الظروف.

- واقعيَّة فذة لتقدِّم الأفضل، وتحلِّد فلا تموت كما ماتت غيرها.

فكان الجديد الذي أتى به القرآن الكريم من لدنِّ عليم حكيم تعبيراً عن هذا الوضع الجديد وجواباً للحاجات المطروحة، فأكمل رسالة موسى وعيسى عليهما السلام، بأن أدخل الدِّين في حياة المجتمع، فأصبح الدِّين هو الدُّنيا، وأصبحت الدُّنيا هي الواجهة الأخرى للدِّين، على حدِّ تعبير الدكتور عون شريف القاسم في كتابه: (الإسلام والثَّورة الحضاريَّة).

إذ لم يتمتع دين سابق بمثل ما يتمتع به الإسلام من خصائص تكفيه شرَّ أيادي العبث والتَّحريف، وتضمن له خلوده واستمراريته مع الزَّمن وفي ظلَّ كلِّ الطُّروف المتغيِّرة، وتقديمه الإجابة عن جميع ما تواجهه الإنسانية من تساؤلاتٍ مستحدثةٍ عبر الزَّمن.

كما لم تتجلَّ الواقعيَّة في فكر أو فلسفة أو ديانة سابقة بمثل ما تجلَّت في الفكر الإسلامي؛ ذلك لأنَّه موجَّه أصلاً لتعريف الإنسان المؤمن بخالقه وبنفسه وبمركزه في هذا الوجود، وبكونه خليفة في الأرض، يتعامل بكفاءة مع قوانينها الماديَّة وحقائقها الموضوعيَّة.

وهذا التَّعامل لا يتمُّ إلَّا في حدود فطرته وطاقته واستعداداته التي يَسرها الله سبحانه له وأودعها فيه، بما يناسب حجمه ومقدرته، فلا يحمله ما لا يحتمله، ولا يسوء به الظَّنُّ، ولا يحتقر دوره في الأرض، ولا يهدر قيمته، كما ولا يرفعه إلى مقام الألوهيَّة في أيِّ جانب من جوانب حياته، وإنَّما يعتبره مخلوقاً كباقي المخلوقات، إلَّا بما اشتمل عليه من الشَّئائل المميَّزة له عن باقي الموجودات مع العلم بأنَّه أسمى مخلوقات الله تعالى.

إنَّ هذه (الواقعيَّة) في الفلسفة الإسلاميَّة، كانت إحدى الأركان الأساسيَّة التي أسَّس عليها الإسلام نظامه الحضاري الشَّامل في كونه يجمع بين الدِّين والدُّنيا، بين الشَّرع والوضع، في وحدة عضويَّة متفاعلة بصورة مدهشة، تجعل قيم الدِّين وأحكامه جزءاً معاشاً من حياة الناس.

وبذلك صاغ حياة الأفراد صياغة اجتماعيَّة بالغة الدِّقَّة، أثارت دهشة الأخصائيِّين في هذا المجال، وهو - بالضَّبط - ما كان المستشرق (جورج روبر) يعنيه حينما قال: «إنَّ الإسلام ليس ديناً فحسب، إنَّه آخر الأديان التي ظهرت في التاريخ، وإنَّه - بصفة خاصَّة - مجتمعٌ روحيٌّ واجتماعيٌّ ونظامٌ سياسيٌّ وأسلوبٌ للعيش. لقد أعطى الإسلام للدُّنيا حقَّها وللآخرة حقَّها، فلا يُرهبُ الرُّوح على

حساب البدن، ولا يُرهق البدن على حساب الرُّوح، فالازدواج كامل بين الرُّوحية والمادية في شخصية المسلم»^(١١).

وفي هذا السياق، يؤكّد (إميل درمنجم) فيقول: «الإسلام ليس عقيدة مادية تنطبق عليها المقاييس المادية، وليس عقيدة روحية لا صلة لها بالمادة ولا بالحياة، وإنما الإسلام عقيدة تركز على المادة والروح، والدُّنيا والآخرة، جسم وروح، ودولة ودين، وحياة وغيب. والإسلام عقيدة تقدُّمية، لا بوصفه مؤيِّداً لنظريات الاجتماع الحديثة، بل لأنه يدفع الإنسان دوماً إلى الأمام»^(١٢).

قواعد عقلية

هذا من جانب، ومن جانب آخر إنّ أساس التربية الإسلامية قد قام على قواعد عقلية بعيدة عن الخرافات والأساطير، فالقواعد التربوية التي بناها ليست إلا سلسلة من العقائد النزيهة عن شوائب الأوهام، ومجموعة قيم وفضائل بعيدة عن ملابس البدع والردائل.

ذلك أنّ الفكر الإسلامي قائم على الاعتقاد المؤيّد بالعقل الذي يتحرّك في داخله حركة موزونة هادفة، وهي تحصل من محورين:

الأوّل: المحور الثابت، ويدور حول حقيقة الوجود الإلهي، وأنّ الله هو الخالق والمعبود الحق، وحقيقة الإنسان وكونه خليفة الله في الأرض، وأنّ البشر كلّهم من أصل واحد، خلقوا للعبادة والإخلاص بها، والعمل بما أمرهم الخالق، وأنّه سبحانه قد اصطفى منهم رسلاً وأوصياء؛ ليتّموا إبلاغ رسالاتهم، ويهدوا النّاس إلى الرّشاد والصّواب في الفعل والقول، وأمّا الباقيون فقيمهم الحقيقية تكمن فيما يربطهم بالعقيدة من صلة، ومدى التزامهم بها، وليس للجنس أو الأرض أو اللون أو اللّغة أو الطّبقة قيمة بتاتاً ولا يحسب لها حساباً. بل الدُّنيا ما هي إلا دار ممرّ وليست بمستقرّ، فيها عمل وتكليف، وفي الآخرة

حساب وجزاء، وهذه الأصول التي لحّصت في خمس: التّوحيد والعدل والنّبوة والإمامة والمعاد، تعدُّ المركز الذي يدور حوله هذا المحور الثّابت، لا يصيبه التّغيّر، ولا مجال فيه للاجتهاد أو التّصدير. وبتعبير آخر: هذه الأصول تمثّل وظيفة بنود أساسيّة لـ (أيديولوجيّة) الدّولة الحديثة.

والحكمة في إيجاد هذا المحور هو ضبط حركة الإنسانيّة عامّة، كي لا تضلّ في مشاعرها وتصوّراتها، ولا تتخبّط في تسيير نظمها الحيويّة بأنّجاه بعيد عن الصّراط القويم الذي أراه الباري عزّ وجلّ، فتستسلم إلى الهوس والخرافة والأسطورة.

الثّاني: المحور المتغيّر، إذ إنّ الفكر الإسلامي يؤمن بقانون التّطوّر العامّ في الكون والمجتمعات، والمتمثّل في تطوّر علاقة الإنسان بالعالم الخارجيّ، بل ويدعو إليه، وذلك من خلال دعوته إلى اكتشاف قوانين الحياة والطّبيعة، والعمل على تسخيرها لسعادته وتطوير حضارته.

ومن أجل ذلك فسح الشّرع الإسلامي المقدّس المجال أمام العقل البشري أن يتحرّك ويجتهد ويستنبط، لكن ضمن ضوابط ثابتة ومحدّدة. وربّما لهذا الأمر أشار المستشرق (غوستاف لوبون) حينما قال: «الإسلام من أكثر الدّيانات ملاءمة لاكتشاف العلم»^(١٣).

وهكذا نقل عن الأستاذ (هورتن) قوله: «نجد في الإسلام اتّحاد الدّين والعلم، وهو الدّين الوحيد الذي يوحد بينهما، ونجد فيه كيف أنّ الدّين موضوع بدائرة العلم، ونرى وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيه سائرتين معاً باتّحاد، ومتجاورتين كتفاً إلى كتف»^(١٤).

إنّ تصريحات هذا الرّجل تبرز حقيقةً ظهرت على لسان عالم غير مسلم، ومراقب أخصّائي في هذه الشّؤون، يمكن أن يعدّ ناقداً (لدوداً) ينبغي كلّ ثغرة

يمكن أن تطال الفكر أو التشريع الإسلامي، ويضرب على أثره عرض حائط الاندحار والتلاشي.

فجاءت تصريحاته - وكذلك الذي سبقه - لتبرز قدرة الإسلام العالية على التكيف السريع لهياكل مجتمعات بني البشر على اختلاف بيئاتها وتطورها، وهياكل حاجاتها الوظيفية والاستهلاكية معاً، والإمكانية الهائلة على المناورة لمواجهة الظروف الطارئة التي قد تظهر في حقب زمنية مختلفة كتحديات ظرفية، فيعمل على تسير دفعة الشعوب باتجاه هذا التحول الطارئ والسريع الذي قد ظهر فجأة، والابتعاد عن تلك الوتيرة السابقة التي كانت تسير عليها تلك المجتمعات.

وبذلك يمكن القول: بأن هذا المجال الذي يدور فيه المحور الثاني أشبه بوظيفة استراتيجية الدولة الحديثة وهي تخوض غمار المواجهات والتحديات العسيرة منها واليسيرة.

فالاستراتيجية متغيرة تبعاً للظروف المحيطة، ونوعية التحديات، وأشكال المواجهات، ودور الزمان والمكان في العملية، بينما الأيديولوجيا ثابتة ومحددة، منها يتم تصدير الأوامر باتجاه الحركة والعمل والبناء وغير ذلك.

وظيفة اندماجية

فالأيديولوجيا والاستراتيجية، اللتان جُمعتا في هذا الدِّين ومُزجتا في قالب واحد، أدتا إلى إنشاء قدرة هائلة على الاستمرار في تقديم الأفضل للبشرية، وتعزيز أركان العدل في ربوع هذا الكوكب السَّيَّار.

ومن خلال هذه الوظيفة الاندماجية، استطاع أن يقوم الإسلام بمهمته التي نزل من أجلها، والمتمثلة في تأسيس مجتمع تتوثق فيه الروابط الأخلاقية السَّامية، وتتحد فيه الحقوق والواجبات، بعدما وضع لكل شيء دستوراً عاماً

للعبادات والمعاملات والجنايات والأحوال الشخصية. وأقام أهدافاً علياً لصيانة هذا المجتمع، وهي ثابتة لا تتغير، تحافظ على نسل أفراده بفرض حدّ الزنى واللواط ونحوهما، وعلى الكرامة الإنسانية في حدّ القذف، وعلى نفس الإنسان في عقوبة قتل العمد، وعلى الملكية الفردية في حدّ السرقة، وعلى حفظ الأمن والطمأنينة في حدّ قطاع الطرق، وعلى الدولة في حدّ أهل البغي وغيرها. كما شرّع كثيراً من الشرائع الاجتماعية التي تزيد من وحدة المجتمع الإسلامي وقوّته، كالزكاة والصدقة والإحسان وصلاة الجماعة والجمعة والحجّ، وحارب الرذائل الاجتماعية، والعادات الفاسدة، والخرافات الكاذبة، وعصبيّة الجاهليّة، واستبدل بها دعوة الدين، والقيم الفاضلة، والحقائق الناصعة، والحكمة في السلوك والعمل.

وعالج حرّية المرأة وفق روحه الدنيّة بقصد صيانتها، ورفع شأنها أكثر من ذي قبل، وأعاد إليها كرامتها المسلوبة، وصحّح النظرة إليها، حاسماً كلّ جدل وكلّ تساؤل يثار في هذا السياق، معتبراً إياها كائناً إنسانياً له روح وكرامة ونفس، كالرجل سواء بسواء، يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُ لِلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

كما أعلن الرسول الكريم ﷺ إنسانية المرأة بكلمة موجزة: «النساء شقائق الرجال»^(١٥)، أي: نظائرهم وأمثالهم في الخلق والطبائع، كأئهنّ شققن منهم. ولا يخفى أنّ حرّية المرأة في لدن القوانين والنظريات والوضعية بالنسبة إلى حرّية الرجل غير متكافئة، وهذا الاختلال في التوازن سوف يفضي إلى تكريس التخلف والتبعية المقيتة، أو تؤدّي إلى الانحطاط من مستواها إلى أبعد حدوده، ثمّ العجز عن اللحاق بركب الرجل في العملية التنمويّة العامّة للدولة. وبعبارة أخرى أكثر تحديداً: إنّ الحواجز المصطنعة التي تقرّها الأنظمة والقوانين الوضعيّة، وتحجيم دور المرأة - سوى في دور الإباحة ومراكز اللّهُو

ومؤسسات الدعاية والإعلانات - سوف يقضي على دورها الإبداعي في المجتمع، ويؤدي إلى تحويلها إلى مجرد سلعة رخيصة يتدافع المشترون من أجلها أحياناً، وأحياناً أخرى يصيبها الصّدأ من كثرة ما تعرض تحت الشّمس حينما يكون السّوق في كساد! وهذا بحدّ ذاته سوف يهدّد كيان المجتمع برمّته، حيث يعرّض نصفه الحيوي إلى خطر الضّيع والانهيار، وبالتالي تكون إحدى العوامل القويّة التي تساعد على انهيار المجتمعات وتلاشيها.

ومن الجليّ: أنّ هذه المشكلات تزداد حدة في البلدان التي تعاني أزمة في الأخلاق وانحداراً في التّربية وتهذيب النّفس، وتخلّفاً في الاقتصاد، وعلى الخصوص في الدّول التي يكون الاضطهاد الدّيني سمة لها.

فإذاً، العامل الأساسي المشترك في هذه التّرتيبات السّلبية، التي أقلّ ما توصف به بالضعف والانحلال والتّخلّف، إنّما يتمثّل في فقدان الاتّزان الذي أصاب المعادلة القائمة على الاندماجية بين الأيديولوجيّة والاستراتيجيّة، فأفصى هذا بظلاله الثّقيلة على مساحات شاسعة من المحاور الأساسيّة التي تدخل في عمليّة البناء والتّطوّر والرّقي.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار هذا (الاندماج)، وارتباطه باقتصاديات دولة تمتلك امتيازات على أكثر من صعيد، فإنّها ستطلّع بلا شكّ إلى ممارسة (استراتيجية) كونيّة هائلة تنفذ إلى ما وراء المحيطات، محطّمة كلّ العراقيل أمامها، وذلك باعتبارها امتداداً للاستراتيجية (الإلهيّة) في الأرض.

الإيجابية المحضة

والحالة الإيجابية التي تظهر غالباً في نفوس معتنقي الإسلام، إنّما هي من جهتين:

الأولى: عقيدة المسلم أنّ الله سبحانه علاقة بالوجود، وأنّ له سبحانه وتعالى

اعتناء بكل ذرة فيه، وأن علمه محيطٌ بكل شيء، وقدرته قد طالت كل شيء مع التدبير الحكيم له.

فإن هذه الخاصية تمد الحياة الإنسانية بالمشاعر الخلّاقة، وتمنحها نوعاً من العواطف الوجدانية الجياشة التي لها الأثر الكبير في إفراز حالة خاصة تأخذ على عاتقها مهمة ضخ الحياة البشرية بالنشاط والحيوية والإحساس بالطمأنينة والأمان.

إذ هناك فرق كبير بين الذي يؤمن بإله أصم لا إرادة له ولا شعور، وبين من يؤمن بإله واحد قادر فعال، مدبر حكيم. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ [يونس: ٣٥].

فإن الأول يعيش الاضطراب والصراع الروحي الناشئ من اصطدام المادة بالروح والشعور الغامر بالتعاسة والقهر والشقاء، بينما الثاني يعيش السعادة النفسية واطمئنان القلب والتوازن الروحي والمادّي.

ومن هنا، يعيش المسلم وهو مستودع للطمأنينة والأمان، وينبوع للخير والبركة، مخلص في سلوكه وتصرفاته؛ لأنه يطيع خالقه ويعبده في أعماله وأوراده، فتراه لا يفتن إلا للثواب وإرضاء الرب الكريم.

وعليه، فالعبادة - من وجهة نظر الإسلام - لا تقود الإنسان قط إلى العزلة والتفوق، ولا تدعوه إلى الخرافة، ولا تهديه إلى مسالك الكذب والدجل وابتغاء الحيلة والطعن في كرامة الآخرين، بل تناهض كل ما من شأنه أن يثير (الزوابع) بين الناس، والكراهية بين أبناء الجلدة الواحدة، وتحالف كل ما له صلة بالعدوان والضرر والاعتداء على الغير، ولو كان هذا الغير على دين آخر.

كتب اللورد (هيدلي) - بعد إسلامه - يقول: «ليس هناك في الإسلام إلا إله واحد نعبد ونعبه، إنه أمام الجميع وفوق الجميع، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه، إنه لمن المدهش حقاً أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول

والألباب على هذا القدر من الغباوة، فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن مظهرهم رؤية السماء، رؤية القهار المتصل دوماً مع مخلوقاته، سواء كانوا عاديّين أم أولياء مقدّسين»^(١٦).

الثانية: من حيث إيجابية الحياة الإنسانية ككلّ، الصّادرة عن أفراد يتمتّعون بصفات إيجابيّة مشرقة، تجعلهم كتلةً مشتعلةً من الفعاليات الخيرة والنيرة. فالمؤمن بالإسلام يكاد لا يستقرّ الإيمان في ضميره حتى يحسّ أنّه قوّة فاعلة ومؤثّرة في نفسه، وهي هذا الكون من حوله، فلا يعرف القعود، ويرفض الشُّكون في انتظار هبوط المعجزات، بل يحاول التّغيير المستمرّ... وهذا أكثر ما يكون باعثاً على العمل والجدّ فيه.

ينقل الدّكتور (عبد الحليم محمود) قصّة طريفة حول إسلام (الكونت هنري دي كاستري)، أحد كبار الموظّفين الفرنسيّين في الجزائر، يقول شارحاً حاله: «كان من عادته أن يسير ممتطيّاً صهوة جواده، ويسير خلفه ثلاثون من فرسان العرب الأقوياء، فخوراً بمركزه، وكان يملؤه الغرور للمدح الذي يزجيه إليه هؤلاء الذين تحت إمّرتة، وفجأة، وجدهم يقولون له في شيء من الخشونة: لقد حان موعد صلاة العصر! ودون أن يستأذّنه ترجّلوا واصطفّوا للصّلاة متوجّهين إلى القبلة، ودوّت في أرجاء الصّحراء كلمة الإسلام الخالدة: الله أكبر! فشعر الكونت في هذه اللحظة بشيء من المهانة في نفسه، وبكثير من الإكبار والإعجاب بهؤلاء الذين لا يبالون به، وذلك لأنّهم اتّجهوا إلى الله وحده بكلّ كيانههم وبدأ يتساءل: ما الإسلام؟! أهو ذلك الدّين الذي تصوّره الكنيسة في صورة بشعة تنفر منها النّفس ولا يطمئنّ إليها الوجدان؟! وبدأ يدرس الإسلام، وتغيّرت فكرته عنه، ورأى من واجبه أن يعلن ما اهتدى إليه، فكان كتابه: الإسلام خواطر وسوانح...»^(١٧).

وفي هذا المضمار - أيضاً - كتب (توماس آرنولد) يقول: «إنّ البلجيكيّين

حكموا على زعيم مسلم بالإعدام، ففضى هذا ساعاته الأخيرة وهو يحاول أن يدخل الإسلام إلى قلب المبشر المسيحي الذي كان قد أرسل إليه ليزجي إليه التعزيزات الدينية!!»^(١٨).

العقيدة أساس الشريعة

لقد قامت دعوة الإسلام على أساس تنظيم الشؤون الدينية والدنيوية للبشر عامة، فهو دين ودولة، وعقيدة وشريعة.

والعقيدة هي الجانب النظري النابض في الإسلام، حيث يطلب الإيمان به أولاً وقبل كل شيء، بينما الشريعة تعدُّ (النظم) التي شرع أصولها سبحانه، ليأخذ الإنسان بها نفسه وفي علاقته بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان ممن يقاسمه السكن على سطح هذا الكوكب، وعلاقته بالكون الذي يحيط به مع جميع مكوّناته وأشياءه.

وإذا نظرنا إلى هذه المعادلة في إطارها العام، نرى أنّ العقيدة ليست هي ما يساعدك على معرفة وتشخيص الشريعة، أو يحدّد المسؤولية تجاهها فحسب، بل هي ما يقوم بدفع الحركة نحو العمل والبناء والنشاط، وهذا ما يفسّر السرّ في تكريس الثنائية التي يبرزها القرآن حينما يأتي على ذكرهما.

فقد عبّر القرآن الكريم في كثير من آياته عن العقيدة بالإيمان، وعن الشريعة بالعمل الصالح، فيذكر هذا الثنائي في العديد من المواضع، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾.

إنّ التأكيد المستمر على هذه الثنائية الحساسة، يرافقها تأكيد آخر يتمثل بضرورة تأسيس منظومة حضارية ذات طابع عالمي وشمولي، تمتلك مجموعة هائلة من القيم والتعاليم المختلفة.

ولكن الذي يلفت النظر على هذا الصعيد: أنّ العقيدة في هذه المعادلة تعدُّ

الأصل والأساس الذي تبنى عليه الشريعة. وعليه: فإنَّ الشريعة تعتبر أثراً تستتبعه العقيدة، بحيث لا تقوم الأولى بدون الثانية، فهما أمران متلازمان ومترابطان لدرجة أنَّه لا يصحُّ إهدار أحدهما أو صرفه دون الآخر.

وأوَّل أساس ارتكز عليه نظام التشريع الإسلامي هو التَّوحيد، وهو أيضاً أوَّل ركن من أركان العقائد الإسلامية.

والمراد من التَّوحيد: هو أنَّ الله سبحانه هو خالق الكون وما فيه، وله وحده الحكم والسُّلطان والعبودية والأمر والنَّهي: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

ولمَّا كان القرآن كلام الله المنزَّل على جميع البشر، فإِطاعته إنَّما تتحقَّق بالقرآن؛ لأنَّه يحوي أوامر الله سبحانه ونواهيه، وبعد فهو المصدر الأوَّل من مصادر التشريع.

كما أمر الله في كتابه المنزل بطاعة رسوله الأكرم ﷺ؛ لأنَّه هو الذي بيَّن لنا أحكام الشَّرع ومقاصده، ويوضِّح ما أُجمل في كتاب الله، ويفسِّر معانيه. وبذلك، ففي القرآن والسُّنة النبويَّة أصول الدِّستور الأساسي الذي ينهض عليه صرح النُّظام الإسلامي برمته.

وعلى الامتداد أمر الله سبحانه بطاعة أولي الأمر الذين عيَّنهم الرِّسول الكريم ﷺ نصّاً وبالأسماء الصَّريحة ليديموا حركة الرِّسالة، ويحافظوا عليها من كلِّ عوامل الهتك والتَّحريف والتَّغيير، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وبذلك تنضاف حلقة أخرى إلى تلك السُّلسلة المعدَّة لتصدير الرِّسالة الرِّبانيَّة إلى أطراف المعمورة.

فالعقيدة بهذا المنظار، تتكوَّن من ثلاث شعب، تؤدِّي إلى تكريس مجال جديد متداخل، همُّها نقل البشريَّة من طور العبوديَّة والجهل والتَّخلف نحو طور آخر

يتميز بالقوة والحقيقة الناصعة والتقدم نحو الكمال.

فالعالم في الواقع ينحدر نحو الانكماش فيما لو أدار ظهره للعقيدة الحقّة، ويزداد انحداراً لو فكّر في محاربتها، ولا خلاف بين المصلحين أنّ الأهمّ من هذا كلّهُ - وهو أخطر من قبله - هو ضرورة وعي الإنسان للعقيدة، ومحاولة الإحاطة بجوانبها، وهو ما يشكّل لديه بعداً جديداً للانطلاق وسط هذا العالم الرّحب المليء بالأشياء والعلاقات الشائكة المتداخلة مع بعضها.

فالوعي بتفاصيل العقيدة يعني تزايد حضور وتأثير القيم مع جميع مبرراتها ومستنداتها في واقع الإنسان وإدراكه، والإحاطة بجوانب هذه الأصول تشير إلى ضخامة أعداد المفردات ذات الصّلة بحقائق الدّين الحنيف، والعزوف عن الأساطير والخرافات التي لا طائل تحتها.

والسؤال هنا: كيف يمكننا أن نزيد من هذه المعدّلات على هذا الصّعيد؟ وأي علم هذا الذي يعيننا في هذا الاتجاه؟ ولهذا السؤال جواب يأتي في مناسبة أخرى إن شاء الله تعالى.

* * *

الهوامش:

(١) حاضر العالم الإسلامي: ٦٧.

(٢) History of Europe ١٣٧.

(٣) المدخل إلى دراسة الأديان ١: ٢٦ - ٣٠.

(٤) غوستاف لوبون: طبيب وعالم اجتماعي فرنسي، يعدُّ رائداً لعلم الاجتماع. ولد سنة ١٨٤١م، دعا إلى تفسير السّلوكة الجماعي بالمقارنة مع نفسيّات فردية. من كتبه: نفسيّة الجماهير، وعلم النّفس في الأزمنة الجديدة. توفّي سنة ١٩٣١م. (المنجد في الأعلام: ٤٩٥).

(٥) حضارة العرب: ٥٢٧، ترجمة عادل زعير.

- (٦) لويس جان جاك سيديو، مستشرق ومؤرخ وفلكي فرنسي. ولد في باريس سنة ١٨٠٨ م، اشتهر بكتابه (تاريخ العرب). توفي سنة ١٨٧٥ م. (المنجد في الأعلام: ٣١٩).
- (٧) تاريخ العرب، ترجمة عادل زعير، ١: ٢٨٦.
- (٨) نقلاً عن كتاب روائع إسلامية: ٨٨.
- (٩) المصدر نفسه.
- (١٠) نقلاً عن كتاب روائع إسلامية: ١١٣.
- (١١) نقلاً عن كتاب سقوط العلمانية لأنور الجندي: ١٩٥.
- (١٢) المصدر نفسه.
- (١٣) حضارة العرب: ١٢٦.
- (١٤) نقلاً عن كتاب سقوط العلمانية لأنور الجندي: ١٩٧.
- (١٥) لاحظ مسند أحمد ٦: ٢٥٦، سنن أبي داود ١: ٦١، سنن الترمذي ١: ١٩٠، مشكاة المصابيح ١: ١٥٧، كنز العمال ١٦: ٤٠٧.
- (١٦) نقلاً عن كتاب: (أوروبا والإسلام) لعبد الحليم محمود: ٥١-٥٢.
- (١٧) المصدر نفسه.
- (١٨) الدعوة إلى الإسلام: ١٨٧.

حديث الغدير

في ميزان علماء اليمن

□ الشيخ علي عبد الله الثلثيا (*)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تعيش الأمة الإسلامية في هذه الأيام حالة من التخبُّط والاختلاف، مما يجعلها في أمس الحاجة للرجوع إلى التعاليم الربانية، خصوصاً تلك التي تعتبر مفصلية في حياة الأمة الإسلامية في بداية الرسالة واستمرارها.

ومن أمهات ذلك ما حصل في حجة الوداع لرسول الله ﷺ؛ حيث قد أنزل عليه قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

[المائدة: ٦٧].

وقد كان في علم الله تعالى أن رسوله الذي بعثه إلى الأمة هادياً وقائداً، سيلتحق بالرفيق الأعلى، وأن الأجل قريب. فكان على نبيه ﷺ أن يبلغ الأمة أن قيادتها - بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى - ستكون لخليفته عليها، وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

(*) باحث يماني / ماجستير علوم القرآن من كلية أصول الدين.

وإذا لاحظنا ما نقلته المصادر الحديثية والتاريخية، وما نقله من حضر نزول هذه الآية، فإننا نجد الأهمية التي أولاها الله سبحانه وتعالى لهذا الأمر، حتى قال لنبِيِّهِ ﷺ: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتُهُ﴾، أثناء عودته من حج بيته الحرام في ظهيرة يوم شديد الحر، بين رواية الخبر شدته، وقد جاءت هذه الآية لتبين توقف قبول بلاغ الرسالة على بلاغ هذا الأمر، أي: إن لم تبلغ هذا الأمر فأنت إذن لم تبلغ الرسالة التي عملت على إبلاغها مدة ثلاث وعشرين سنة.

فما كان منه ﷺ إلا أن أوقف الناس، وطلب عودة المتقدمين ولحوق المتأخرين، وجمعهم، وأبلغهم بأمر الله تعالى إياه بإبلاغ ما كان ﷺ قد ذكره أمام الملاء في مواطن متفرقة، ابتداءً من يوم الدار حين جمع أقاربه^(١)، مروراً بخبر المنزلة^(٢)، إلى إبلاغ سورة براءة^(٣)، إلى غير ذلك من الأحاديث التي كان رسول الله ﷺ قد كررها في شأن عليٍّ عليه السلام، إلى نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾. كل ذلك، ورسول الله ﷺ يذكرهم بمنزلة أمير المؤمنين عليه السلام، وأنه القائم بالأمر بعده، سواء أكان هذا في سلم أم في حرب.

ومن هذه المواقف: موقفه يوم الصوح حين برز أسد بن غويلم فاتك العرب، على ما ذكره ابن شهر آشوب في كتابه (مناقب آل أبي طالب)، وعبدالله بن حمزة في (الشافعي)، ذكر فيه بإسناده:

«... عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن عبد الله بن أبي أنيس، قال: أشهد بالله لسمعت رسول الله ﷺ يوم الصوح، وقد أقبل إليه أسد بن غويلم فاتك العرب على فرس له يُجِيلُهُ ويُدِيرُ رُحْمَهُ، وهو يرتجز:

وجرد سعال وزعف مدال	وسمر عوال بأيدي رجال
كآساد ديس وأشبال خيس	غداة الخميس بيض سقال
تجيد الضراب وحز الرقاب	أمام العقاب غداة النزال
تكيد الكذوب وتجري الهبوب	وتروي الكعوب دماً غير آل

ثم سأل البراز، فأحجم الناس معاً، فقال رسول الله ﷺ: من خَرَجَ إلى هذا المشرك فقتله، فله على الله عِزٌّ الجنة، وله الإمامة بعدي، فاحرّنجم الناس، وكُنْتُ في من احرّنجم، فقام عليّ بن أبي طالب، تهزّه العروى، فقال رسول الله ﷺ: ياذا القبقب، ما بالك؟ قال: ظمآن إلى البراز، سغبُ إلى القتال. فقال رسول الله ﷺ: نحن بنو هاشم جود مجد، لا نجبن ولا نغدر، وأنا وعليّ من شجرة لا يَخْتَلِفُ وَرَقُهَا، اخرجْ إليه، ولكَ الإمامة بعدي، فخرج عليّ بن أبي طالب نحوه، واتبعه الناس أبصارهم، حتى ضربه في مفرق رأسه، فمرّ السيِّف في الفرق والقمّة وطرف الفودين إلى القمحدوة والنقرة والجبهة على الاستواء في الأسارير إلى فوق الحاجين، مع قصبه الأنف والمارن والحاجر والشفة العليا والعنق، قاطعاً للحلقوم، واللبة واقعة في الترائب والحقي، وفاصلة لعُرى النياط، قاطعة للحناجر والحشرة إلى مقدّمة السرج ومؤخرته فخرّ نصفين، فكانها خطفته الطير أو هَوَتْ به الرّيح، وهزّ عليّ عليه السلام سيفه، وحمل على المشركين، فانهزموا، وآب راجعاً، وهو يقول - شعراً -:

ضربته بالسيف وسط الهامة	بشفرة صارمة	صدّامة
فتكّت من جسمه عضامه	وبيئت من أنفه	أرغامه
أنا عليّ صاحب الصمصامة	وصاحب الحوض لدى القيامة	
أخو نبيّ الله ذي العلامة	قد قال إذ عمّني العمامة	
أنت أخي ومعدن الكرامة	ومن له من بعدي الإمامة ^(٤)	

وفي مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب: «وفي يوم الفتح برز أسد بن غويلم قاتل العرب، فقال النبي ﷺ: مَنْ خَرَجَ إلى هذا المشرك فقتله فله على الله الجنة، وله الإمامة بعدي»^(٥).

فقد بيّن رسول الله ﷺ لأصحابه هذا في مواضع وأيام مختلفة، إلا أنّ الأمر الإلهي في هذه الآية كان واضحاً، فقد علّق تبليغ الرسالة على تبليغه له في هذا

الموقف. فما كان منه ﷺ إلا أن امثل أمره تعالى، فبدأ ﷺ بحمد الله، وبيان قُرب أجله، فقررهم على طاعته وأنه أولى بهم من أنفسهم، ثم بين لهم أن مَنْ كان رسول الله ﷺ أولى به من نفسه، فعليّ أولى به من نفسه، وثبت الولاية لعليّ عليه السلام، وأن ولايته ولاية لله، وعداوته عداوة لله - كما جاء في حديث الغدير - وألزمهم طاعته، مشدداً على أنها من طاعة الله وطاعة رسول الله ﷺ.

وما نريده في هذا المقال، هو أن نبين حال حديث الغدير عند بعض علماء اليمن، ورأيهم في دلالته، وأنه هل المراد من لفظة (وليّ) في قوله ﷺ: «ألستُ أولى بكم من أنفسكم؟» هو ما ذهب إليه البعض: من أن المراد منها المحبة والنصرة، وغير ذلك من المعاني التي ذكروها؟ أم أن المراد بها خلافة رسول الله ﷺ وزعامة الأمة من بعده؟

ولكن قبل أن نستعرض رأي بعض علماء اليمن في معنى ودلالة هذا الحديث، نتعرض أولاً لبيان معنى كلمة: (الوليّ) لغةً، بالاعتماد على ما ذكره العلامة ابن منظور، لنرى بعد ذلك ما هو المعنى الأنسب لكلمة: (مولى)، في قول رسول الله ﷺ في ذلك المشهد العظيم: «مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ، فعليّ مَوْلاهُ».

اللغة:

قال في لسان العرب:

«في أسماء الله تعالى: الوليّ، هو الناصر، وقيل: المتولّي لأمر العالم والخلائق، القائم بها. ومن أسائه عز وجلّ: الوالي، وهو مالك الأشياء جميعها، المتصرف فيها. قال ابن الأثير: وكانّ الولاية تُشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع ذلك فيها لم يُنطلق عليه اسم الوالي. ابن سيده: وَلِيَ الشَّيْءَ وَوَلِيَ عَلَيْهِ وِلَايَةً وَوَلَايَةً، وقيل: الولاية الخطّة، كالإمارة، والولاية المصدر. ابن السكيت: الولاية - بالكسر -: السّلطان، والولاية النَّصرة... وقال سيبويه: الولاية - بالفتح -:

المصدر، والولاية - بالكسر -، الاسم، مثل الإمارة والنقابة؛ لأنه اسم لما توليته وقُمتَ به، فإذا أرادوا المصدر فتَحُوا...

والولي: وليّ اليتيم الذي يلي أمره ويقوم بكفانيته، ووليّ المرأة: الذي يلي عقد النكاح عليها...

والوليّ والمولى واحدٌ في كلام العرب... ومنه قول سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله [وآله] وسلّم: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ)، أي: مَنْ كُنْتُ وَلِيَّهِ... والتوليّ .. بمعنى: النَّصْر، من الوليّ والمولى، وهو: النَّاصِر، ورُوي أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ [وآله] وسلّم قال: (مَنْ تَوَلَّانِي فَلْيَتَوَلَّ عَلِيًّا)، أي: مَنْ نَصَرَنِي فَلْيَنْصُرْهُ... فالولاية - بالفتح - في النسب والنصرة والعق، والولاية - بالكسر - في الإمارة، والولاء في المُعْتَق، والموالة من: والى القوم. قال ابن الأثير: وقوله صلى الله عليه وآله [وآله] وسلّم: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ)، يُحْمَلُ على أكثر الأسماء المذكورة ... وقوله: (اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ)، أي: أَحِبْ مَنْ أَحَبَّهُ. وقول عمر لعليّ: (أَصْبَحْتَ مَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ، أي: وَلِيَّهِ)»^(٦).

هذه المعاني اللغوية للفظ: (مولى)، الواردة في حديث رسول الله ﷺ يوم غدير خم. فأَيُّ من هذه المعاني اللغوية هي التي قصدها رسول الله ﷺ في هذا الحديث؟

الذي يتبادر إلى الذهن، بقرينة الموقف، وربط هذه الولاية بولاية الله عز وجل وولاية رسوله ﷺ: أمّا: الولاية والرئاسة والإمامة التي أعطاها الله تعالى لرسوله ﷺ على النَّاسِ في أمور الدِّين والدُّنْيَا، وهي لأمير المؤمنين ﷺ في قوله ﷺ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ».

ويؤيد هذا المعنى ما ذكره صاحب الكشاف، عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا

كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ [الأحزاب: ٦].

فقد ذكر: أنَّ المراد من لفظة: (أُولَى) في الآية هو أنَّ رسول الله ﷺ أُولَى بالمؤمنين من أنفسهم في أمورهم كلها، دينيةً ودنيويةً.

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية:

«التَّبَيُّ أُولَى بالمؤمنين في كُلِّ شيءٍ من أمور الدين والدُّنْيَا من أنفسهم، ولهذا أُطْلِقَ ولم يَقَيَّد، فيجب عليهم أَنْ يكون أَحَبَّ إليهم من أنفسهم، وَحُكْمُهُ أَنْفَذَ عليهم من حُكْمِهَا، وَحَقُّهُ أَثَرٌ لَدَيْهِمْ من حقوقها، وَشَفَقَتُهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَمُ من شَفَقَتِهِمْ عَلَيْهَا، وَأَنْ يَبْذُلُوها دُونَهُ، وَيَجْعَلُوها فِدَاءَهُ إِذَا أَعْضَلَ خَطْبٌ، وَوَقَاءَهُ إِذَا لَحَتْ حَرْبٌ، وَأَنْ لَا يَتَّبِعُوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، وَلَا تَصْرِفُهُمْ عَنْهُ، وَيَتَّبِعُوا كُلَّ ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وَصَرَفَهُمْ عَنْهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ ما دعا إِلَيْهِ فَهُوَ إِرْشَادٌ لَهُمْ إِلَى نَيْلِ النِّجَاةِ وَالظَّفَرِ بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، وَما صَرَفَهُمْ عَنْهُ فَأَخَذَ بِحُجَزِهِمْ^(٧)، لئَلَّا يَتَهَاوَنُوا فِيمَا يَرْمِي بِهِمْ إِلَى الشَّقَاوَةِ وَعَذَابِ النَّارِ.

أو: هو أُولَى بِهِمْ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّهُ أَرْأَفُ بِهِمْ وَأَعْطَفَ عَلَيْهِمْ وَأَنْفَعُ لَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾^(٨). وَعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا أَنَا أُولَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اقْرَأُوا إِنَّ شَتْمِي: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾^(٩)....)^(١٠).

فَمَا كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ وَلَايَةٍ عَلَى النَّاسِ فَهِيَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهُوَ الْقَائِمُ وَالْقَائِدُ لِلْأُمَّةِ بَعْدَهُ بِنَصِّ حَدِيثِ الْغَدِيرِ وَغَيْرِهِ، مَا عَدَا النَّبُوَّةَ، فَهِيَ خَاصَّةٌ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِيهَا، وَقَدْ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(١١). فَالْنَّبُوَّةُ لِرَسُولِ اللَّهِ، وَإِمَامَتُهَا وَقِيَادَتُهَا لَهُ ﷺ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

علماء اليمن وحديث الغدير

عندما نراجع مذهب الكثير من علماء اليمن، نجد أنَّهم لا يحيدون عن المعنى

المذكور أعلاه، في كونه هو المراد لرسول الله ﷺ، وهو تولى عليّ عليه السلام لشؤون المسلمين الدينية والدنيوية بعد رحيل رسول الله ﷺ، وأنه لا يُراد من كلمة: (المولى) غير ذلك، ونحن في هذه الصفحات، سوف نبين أقوال قسم منهم. وهم:

(١) الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الرسي (٢٤٥-٢٩٨هـ):

ذكر حديث الغدير في كتابه (الأحكام) بعد كلامه عن رسول الله ﷺ، وأنه أدّى ما أمر به، كما أَراده الله تعالى، فذكر ولاية أمير المؤمنين عليه السلام بعده، وقد بين أدلته في ذلك، ومن جملتها: حديث الغدير، فذكر أنّ ولايته صلوات الله عليه هي بأمر الله عز وجل، حيث قال:

«...فاذا فهم ذلك، وكان في ضمير قلبه كذلك، وجب عليه أن يعرف ويفهم، ويعتقد ويعلم أنّ ولاية أمير المؤمنين وإمام المتقين عليّ بن أبي طالب رحمة الله عليه واجبة على جميع المسلمين، فرض من الله رب العالمين، ولا ينجو أحد من عذاب الرحمن، ولا يتم له اسم الإيمان حتى يعتقد ذلك بأيقن الإيقان؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿إِنبَأُوا لَكُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(١٢)، فكان ذلك أمير المؤمنين رحمة الله عليه^(١٣) دون جميع المسلمين.... وما جاء له من الذكر الجميل في واضح التنزيل فكثير غير قليل، وفيه أنزل الله على رسوله بغدير خم: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(١٤).

فوقف ﷺ وقطع سيّره، ولم يستجز أن يتقدم خطوة واحدة حتى ينقذ ما عزم به عليه في عليّ عليه السلام، فنزل تحت الدوحة مكانه وجمع الناس، ثم قال: (يا أيها الناس، ألسنتُ أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: اللهم أشهد، ثم قال: اللهم أشهد، ثم قال: فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، فَعَلَيْ مَوْلَاهُ، اللهم وال

مَنْ وَالَاه، وَعَادٍ مِنْ عَادَاه، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ»^(١٥).

(٢) المرتضى محمد بن الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم (٢٧٨ - ٣١٠هـ):
فقد تحدّث عن حديث الغدير في كتابه: (كتاب الأصول)، موضحاً أنّه -
أي: عليّ عليه السلام - أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ، وقال:

«ثُمَّ تَعْلَمُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَبْدَ الْمَطْلَبِ
أَخُو رَسُولِ اللَّهِ وَوَصِيِّهِ، وَأَفْضَلَ الْخَلْقِ بَعْدَهُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ،
وَأَقْوَمُهُمْ بِحَقِّ اللَّهِ، وَأَشَدَّهُمْ بِلَاءً فِي جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ... وَفِيهِ
مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ غَدِيرِ خَمٍّ: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ
مَنْ وَالَاه، وَعَادٍ مِنْ عَادَاه، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ)، وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ
مَجْتَمِعُونَ يَسْمَعُونَ كَلَامَ الرَّسُولِ ﷺ وَهُوَ رَافِعٌ بِيَدِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى أَبْصَرَ بَيَاضَ
أَبَاطِهِمَا وَهُوَ يَنَادِي بِهَذَا الْقَوْلِ»^(١٦).

(٣) المنصور بالله عبد الله بن حمزة الحسني (٥٦١ - ٦١٤هـ):

له في كتابه (الشافي) كلامٌ مفصّلٌ عن حديث الغدير سنداً ودلالةً. وقد رواه
بأسانيده وطرقه الخاصّة في الجزء الأول من هذا الكتاب، مبيناً أنّ الخبر متواترٌ،
وأنّ دلالته تفيد الإمامة والزّعامة، وهي مراد رسول الله ﷺ، وفي هذا الإطار،
نذكر هنا - وبشكلٍ مختصر - طريقتين أو ثلاثةً من الطرق التي ذكرها في رواية
حديث الغدير، ثمّ نبين موقفه من دلالته.

بدأ كلامه عن الغدير بذكر أسانيده لرواية الغدير، ثمّ تعرّض للدلالة، وأنها
هل هي الولاية العامّة على المسلمين، أو أنّها النّصرة والمحبة... وغير ذلك من
المعاني المذكورة في اللّغة. وقد بدأ هذا بقوله:

«فَصُلِّ فِي ذِكْرِ يَوْمِ غَدِيرِ خُمٍّ: مِنْ مُسْنَدِ ابْنِ حَنْبَلٍ، وَبِالْإِسْنَادِ الْمَقْدَمِ، قَالَ:
حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي... عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ
عَازِبٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرَةٍ، فَنَزَلْنَا بِغَدِيرِ خَمٍّ، وَنُودِيَ فِينَا:

الصلاة جامعة، وكسح لرسول الله ﷺ تحت شجرتين، فصلّى الظهر والعصر وأخذ بيد عليّ عليه السلام، فقال: (أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوَّلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟) قالوا: بلى، قال: (أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوَّلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ؟)، قالوا: بلى، وأخذ بيد عليّ عليه السلام، فقال لهم: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ)، قال: فلقيه عمر، فقال: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة.

وبالإسناد المقدم... عن عبد الله قال: قال زيد بن أرقم - وأنا أسمع -: نزلنا مع رسول الله ﷺ بوادٍ يقال له: وادي حُحْمَ، فأمرنا بالصلاة، فصلاها، قال: فخطبنا، وظلل لرسول الله ﷺ بثوبٍ على شجرة من الشمس، فقال النبي ﷺ: (أَوَلَسْتُمْ تَشْهَدُونَ أَنِّي أَوَّلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ؟) قالوا: بلى، قال: فمن كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ) (١٧).

ومن تفسير الثعلبي أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ (١٨)، وبالإسناد المقدم (١٩)، قال: وسئل سفيان بن عيينة عن قول الله عز وجل: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، في من نزلت؟ فقال: لقد سألتني عن مسألة ماسألني عنها أحد قبلك، حدثني جعفر بن محمد عن آبائه عليه السلام، قال: لما كان رسول الله ﷺ بغدير حُحْمَ، نادى الناس فاجتمعوا، فأخذ بيد عليّ، صلى الله عليهما، فقال: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ)، فشاع ذلك وطار في البلاد، فبلغ ذلك الحارث بن النعمان الفهري، فأتى رسول الله ﷺ على ناقته، حتى أتى الأبطح، فنزل عن ناقته فأنأخها وعقلها، ثم أتى النبي ﷺ، وهو في ملأ من أصحابه، فقال: يا محمد، أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصلي، فقبلناه منك، وأمرتنا أن نصوم شهراً فقبلناه منك، وأمرتنا أن نحج البيت، فقبلناه منك، ثم لم ترَضْ بهذا حتى رفعت بضبع ابن عمك فضلتته علينا، وقلت: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ)، وهذا شيء منك أم من الله تعالى؟

فقال: والذي لا إله إلا هو أنه من أمر الله، فولى الحارث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء أو آتنا بعذاب أليم، فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته، وخرج من دبره فقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (٢٠) (٢١).

معنى المولى:

وأما في معنى لفظة (المولى): فقد ذكر أنه سيبيّن معناه لغةً ووجه دلالته، فقال:

«ونحن الآن نذكر معاني لفظة (مولى) في أصل اللغة، ووجه دلالته على إمامته عليه السلام، فنقول: اعلم أنّ لفظة (مولى) في اللغة تنقسم على عشرة أوجه. أولها: (الأولى)، وهو الأصل والعماد الذي ترجع إليه المعاني في سائر الأقسام. ثم اعلم أنّ أهل اللغة ومصنّفي العربية قد نصّوا على أنّ لفظة (مولى) تُفيد الأولى، وفسّروا ذلك في كتبهم من كتاب الله تعالى ومن أشعار العرب. فأما الكتاب العزيز: فإنّ أبا عبيد بن المثني، وهو مقدّم في علم العربية، غير مطعون عليه في معرفتها، قد ذكر في كتابه المتضمن تفسير غريب القرآن المعروف بالمجاز في سورة الحديد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبَسَّ الْمَصِيرُ﴾ (٢٢)، يريد جلّ اسمه: هي أولى بكم، على ما جاء في التفسير، واستشهد بقول ليبيد:

قعدت كلا الفرجين تحسب أنّه مولى المخافة خلفها وأمامها
معناه: أولى بالمخافة، يُريد: أنّ هذه الظبية تحيّرت، فلم تدّر أخلّفها أولى بالمخافة أم أمامها، ويقول الأخطل في عبد الملك بن مروان:

فما وجدت فيها قريش لأمرها أعفّ وأوفى من أبيك وأمجدا
وأورى بزنديه ولو كان غيره غداة اختلاف الناس أكدى وأصلدا

فأصبحت مولاها من الناس كلهم وأخرى قريش أن تهاب وتحمدا
فخاطبه بلفظة (مولى)، وهو خليفة مطاع الأمر من حيث اختص بالمعنى
الذي احتمله، وليس أبو عبيدة متّهماً بالتقصير في علم اللغة ولا مظنوناً فيه الميل
إلى أمير المؤمنين عليه السلام، بل هو معدود من جملة الخوارج، وقد شاركه في مثل ذلك
التفسير ابن قتيبة، وهو أيضاً لا ميل له إلى أمير المؤمنين عليه السلام؛ إلا أنه لو علم أن
الحق في غير هذا المعنى لقاله»^(٣٣).

ثم إن المؤلف تابع في بيان معاني (المولى)، إلى أن قال:
«والعاشر: الإمام السيد المطاع، وهذه الأقسام التسعة بعد (الأولى) إذا تأمل
المعنى فيها وُجد راجعاً إلى معنى (الأولى) ومأخوذاً منه؛ لأن مالك الرق لما كان
أولى بتدبير عبده من غيره كان مولاة دون غيره... والإمام المطاع لما كان له من
طاعة الرعية وتدبيرهم ما يماثل الواجب بملك الرق، كان لذلك مولى، فصارت
جميع المعاني فيما حدّثناه ترجع إلى معنى الوجه الأول، الذي هو (الأولى)،
ويكشف عن صحّة معناه فيما ذكرناه في حقيقته ووصفناه فليتأمل ذلك، فيه
بيان لمن تأمله. فإن قيل: فإذا ثبت أن لفظة (مولى) قد تُستعمل مكان (الأولى)،
وأنها أحد مُحتملاتها، فما الدليل على أن النبي ﷺ أراد بها يوم الغدير: (الأولى)،
دون أن يكون أراد بها غيره من الأقسام التي يُعبّر بها عنها؟ قيل له: مقدّمة
الكلام التي بدأنا بذكرها وأخذ إقرار الأمة بها من قوله ﷺ: (أَلَسْتُ أَوْلَى بِكُمْ
منكم بأنفسكم؟)، ثم عطف عليها بلفظٍ يحتملها ويحتمل غيرها، دليل على أنه لم
يُردّ بها غير المعنى الذي قرّره عليه، من دون أحد مُحتملاتها، وأنه قصد
بالمعطوف ما هو معطوف عليه، ولا يجوز أن يرد أمر من الحكيم: تقرير بلفظٍ
مقصود على معنى مخصوص، ثم يعطف عليه بلفظٍ يحتمله إلا ومراده
المخصوص الذي ذكره وقرّره دون ما عداه. يوضح ذلك ويزيده بياناً أنه لو
قال: أَلَسْتُمُ تَعْرِفُونَ دَارِي الَّتِي فِي مَوْضِعِ كَذَا، ثُمَّ وَصَفَهَا وَذَكَرَ حَدُودَهَا، فَإِذَا

قالو: بلى، قال: فاشهدوا أنّ داري وقُفَّ على المساكين، وكانت له دورٌ كثيرةٌ، لم يَجْزْ أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُهُ فِي الدَّارِ الَّتِي وَقَفَهَا إِلَّا عَلَى أَنَّهَا الدَّارُ الَّتِي قَرَّرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهَا وَوَصَفَهَا...، وإذا كان الأمر على ما ذكرناه، ثبت: أنّ مراد النبي ﷺ بقوله: (من كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ)، معنى (الأوّل) الذي قدّم ذكره وقرّره، ولم يَجْزْ أَنْ يُصَرَّفَ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ أَقْسَامِ لَفْظَةِ (مَوْلى) وما يَحْتَمِلُهُ، وذلك يُوجِبُ أَنْ عَلِيّاً ﷺ أَوَّلَى بِالنَّاسِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَا ثَبَتَ أَنَّهُ مَوْلَاهُمْ كَمَا أَثَبَتَ النَّبِيُّ ﷺ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ مَوْلَاهُمْ. وَأَثَبَتِ الْقَدِيمُ تَعَالَى: أَنَّهُ أَوَّلَى بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَثَبَتَ أَنَّهُ أَوَّلَى بِلَفْظِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَثَبَتَ أَنَّهُ مَوْلى بِلَفْظِ نَفْسِهِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْمَعْنَى وَاحِداً، لَمَا تَجَاوَزَ مَا حَدَّ لَهُ فِي لَفْظِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ إِلَى لَفْظِ غَيْرِهِ، فَثَبَتَ لِعَلِيِّ ﷺ مَا ثَبَتَ لَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى، مِنْ غَيْرِ عَدُولٍ إِلَى مَعْنَى سِوَاهُ. وَيَزِيدُهُ بَيَاناً أَيْضاً: أَنَّا نَتَصَفَّحُ جَمِيعَ مَا يَحْتَمِلُهُ لَفْظُ (مَوْلى) مِنَ الْأَقْسَامِ الَّتِي يُعَبَّرُ بِهِ عَنْهَا، وَنَنْظُرُ مَا يَصَحُّ أَنْ يَكُونَ مَخْتَصِماً بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنْهَا، وَمَا لَا يَصَحُّ اخْتِصَاصُهُ بِهِ، وَمَا يَجُوزُ أَنْ يُوجِبَهُ لغيرِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِمَّا يَخْصُهُ، وَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُوجِبَهُ، وَمَعَ اعْتِبَارِهَا لَا يُوجَدُ فِيهَا مَا يُوْجِبُهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ غَيْرِ الْأَوَّلَى وَالْإِمَامِ وَالسَّيِّدِ وَالْمُطَاعِ...»^(٢٤).

ثم إنّ المؤلّف أخذ بعد ذلك بمناقشة المعاني التي لا يَصَحُّ أَنْ تَكُونَ مُرَادَةً لَهُ ﷺ فِي ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ، وَلَا يَصَحُّ مِنْهُ أَنْ يُوقِفَ هَذِهِ الْجُمُوعَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ أُمُوراً هُمْ عَلَى مَعْرِفَةٍ بِهَا، مِثْلُ: الْمَالِكِ، وَالْمُعْتَقِ، وَالنَّاصِرِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرُوهَا وَهِيَ لَا تَنَاسِبُ ذَلِكَ الْمَوْقِفَ وَالْمَشْهَدَ الْعَظِيمَ، وَلَا يَصَحُّ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ ﷺ مِنْهَا إِلَّا (الأوّل) و(السَّيِّدُ الْمُطَاعُ)، وَهُوَ وَاضِحٌ مِنْ كَلَامِهِ، فَقَدْ قَالَ: «فَلَا يَجُوزُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَجْمَعَ النَّاسُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْمَقَامِ الْعَظِيمِ الْكَبِيرِ، وَيُوقِفَهُمْ عَلَى الرَّمْضَاءِ فِي الْحَرِّ الشَّدِيدِ، ثُمَّ يَعْلَمُهُمْ مَا هُمْ عَالِمُوهُ، وَيُخَبِّرُهُمْ بِمَا هُمْ مُتَقِنُوهُ، وَإِذَا لَمْ يَصَحَّ أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ ﷺ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ، عَلِمْنَا أَنَّ مُرَادَهُ مَا بَقِيَ مِنْهَا، مِمَّا هُوَ وَاجِبٌ لَهُ عَلَى الْعِبَادِ، وَيَصَحُّ أَنْ يُوجِبَهُ لِمَنْ أَرَادَ، وَلَمْ

يَبْقَى غير قسَمين، وهما: (الأولى) و(السَّيِّدُ الْمُطَاعُ)، فهما على كُلِّ حالٍ المراد، ولو لم يكونا، ولا واحد منهما، مراده، خرج كلامه عن أَنْ يَتَضَمَّنَ معنى يُسْتَفَادُ، وهذا دليلٌ مُعْتَمَدٌ، فَلْيَتَأَمَّلْ، ففيه كفايةٌ في هذا الباب، غير مُفْتَقِرٍ إلى ذكر المقدمة المقررة في أول الكلام، وهو شاهدٌ بأنَّ أمير المؤمنين عليه السلام الأولى، والسَّيِّدُ الْمُطَاعُ.

ويزيده بياناً: أَنْ لو حَمَلْنَا ما في الخبر، من ذكر لفظة (مولى)، على أَنَّ المراد بها جميع المعاني التي يصحُّ ثبوتها في حقِّها عليه السلام، ممَّا لا تنافي بينهما، لكان ذلك وجهاً صحيحاً مُسْتَعْمَلاً في اللغة العربية... وممَّا يؤيد ما قلناه من أَنَّهُ: ما أراد بلفظة (مولى) إلاَّ استحقاق الإمامة وولاء الأمة، دون ما عداه من سائر الأقسام: ما ذكرناه من قول عمر بن الخطَّاب: (هنيئاً لك يا بن أبي طالب، أصبحتَ مولى كلِّ مؤمنٍ ومُؤمنة)، فدَلَّ بالتهنئة له على استحقاق الولاية، فمن كان مؤمناً فعلياً مَوْلَاهُ، ومن كان ليس بمؤمنٍ، فلا حاجة إلى ذكره؛ لخروجه عن دائرة الإسلام، بأنَّ عليّاً لم يكن مَوْلَاهُ، لموضع شرط النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشهادة عمر بذلك، وهذا من أدلِّ دليل [الأدلة] ^(٢٥) على صحَّة ما أردناه.

وممَّا يزيد ذلك بياناً: أَنْ قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر الخبر: (اللَّهِمَّ وَالِ مَنْ وَاوَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ)، يُوجِبُ ثبوت عصمته، ووجوب موالاته ظاهراً وباطناً، والقطع على مغيبه، وذلك يَقْتَضِي أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَقُّ بالإمامة من غيره ممَّنْ لم يَثْبُتْ ذلك فيه؛ إذ لا يجوز العدول عن المعلوم عدالته وعصمته إلى المظنون ذلك فيه، كما لا يجوز العدول إلى الاجتهاد مع وجود النَّصِّ ^(٢٦).

(٤) الشَّهيد حميد بن أَحْمَدَ الْمُحَلِّي (٥٨٢ - ٦٥٢ هـ) ^(٢٧):

بحث الشَّهيد حُمَيْدُ حَدِيثُ الْغَدِيرِ في كتابه محاسن الأزهار ^(٢٨) بحثاً مفصلاً، مبيناً معناه ودلالته، ومذهبه: أَنَّ المراد من لفظة: (الوليِّ) و(المولى) في الحديث، هو: المالك المتصرِّف على المؤمنين؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلِيَّ التَّصَرُّفِ، ولا يليه على هذا الحد إلاَّ الإمام، قال:

«والمقصود من النصّ الذي أشار إليه الإمام [المنصور بالله ﷺ] [هو] خبر الغدير^(٢٩)، وقد رواه خلقٌ كثيرٌ عن النبي ﷺ، وطرقه كثيرةٌ، وقد رواه [من الصحابة] مائة نفس، [أو] يزيد على ذلك، منهم العشرة [المبشرة بزعم حفاظ آل أمية] عن النبي ﷺ.

ونحن نذكر طرفاً فنقول: أخبرنا الفقيه الأجلّ الفاضل الزاهد العابد العالم المجاهد، بهاء الدين أبو الحسن عليّ بن أحمد بن الحسين الأكوخ رضي الله عنه، قال: أخبرنا الشيخ الأجلّ عفيف الدين عليّ بن محمد بن حامد الصنعاني... قال: حدّثنا نوح بن قيس الحداني، حدّثنا الوليد بن صالح عن ابن امرأة زيد بن أرقم، قال: أقبل نبيّ الله ﷺ من مكّة في حجة الوداع، حتّى نزل [ﷺ] بغدير الجحفة، بين مكّة ومدينة، فأمر بالدوحات، فقمّ ما تحتهنّ من شوك، ثمّ نادى: (الصلاة جامعة!)، فخرجنا إلى رسول الله ﷺ في يوم شديد الحرّ، إنّ منّا لمن يضع بعض رداءه على رأسه، وبعضه على قدميه من شدّة الرمضاء، حتّى انتهينا إلى رسول الله ﷺ، فصلّى بنا الظّهْر، ثمّ انصرف إلينا فقال: (الحمد لله، نحمده ونستعينه ونؤمن به... ألا وإني يؤشك أن أفارقكم، ألا وإني مسؤولٌ وأنتم مسؤولون، هل بلغتكم؟ فماذا أنتم قائلون؟)، فقام من كلّ ناحية من القوم مجيبٌ، يقولون: نشهد أنّك عبد الله ورسوله، قد بلغت رسالته... فقال: (ألسنتم تشهدون أن لا إله إلا الله لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ الجنة حقٌّ وأنّ النار حقٌّ، وتؤمنون بالكتاب كلّ؟)، قالوا: بلى. قال: (فإني أشهد أن قد صدقتكم وصدقتموني، ألا وإني فرطكم وأنكم تبعي، توشكون أن تردوا عليّ الخوض فأسألكم حين تلقوني عن ثقلّي كيف خلّفتُموني فيهما؟)... ثمّ أخذ بيد عليّ بن أبي طالب ﷺ فرفعها وقال: (مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فهذا مَوْلاهُ [و] مَنْ كُنْتُ وَلِيَّهُ فهذا وَلِيُّهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ). قالها ثلاثاً^(٣٠).

هذه إحدى طرق رواية الشهيد حميد لحديث الغدير، ذكرناه مختصراً، ومعه

مختصر من خطبة رسول الله ﷺ، في ذلك المشهد.

وقد أوضح الشهيد حميد في شرحه لمعاني هذه الخطبة مراد رسول الله ﷺ، سواء فيما يخص العترة أم الولاية، التي هي الإمامة، أم غير ذلك، ونلاحظ ما ذكره في معنى (المولى)، حيث قال:

«ومنها: قوله في عليّ عليه السلام - بعد أخذه بيده ورفعها -: (من كنت مولاه فهذا مولاه)، و(المولى) إذا أُطلق من غير قرينة فهم منه أنه المالك للتصرف، وإن كان في الأصل يُستعمل في معانٍ عد[يد]ة: منها: المالك للتصرف. ولهذا: إذا قيل: هذا مولى القوم، سبق إلى الأفهام أنه المالك للتصرف في أمورهم...»^(٣١).

ومنها: قوله ﷺ: (من كنت وليه فهذا وليه)، و(الولي): المالك للتصرف بالسبق إلى الأفهام [من هذا التعبير، وسبق معنى من لفظ إلى الذهن وتبادره منه علامة الحقيقة]، وإن استعمل في غيره [على سبيل المجاز]، وعلى هذا قال ﷺ: (السلطان ولي من لا ولي له)^(٣٢)، يريد به: ملك التصرف في عقد النكاح، يعني: أن الإمام له الولاية حيث لا عضة^(٣٣).

وقال في موضع آخر، ناقلاً عن شيخه - تعقياً على أبيات حسان بن ثابت التي أنشدها يوم الغدير - هذا المعنى:

«قال شيخ الإسلام أيده الله: وما ذكره حسان رحمه الله من قوله: (رضيتك من بعدي إماماً وهادياً)، فإنه دليل على أنه عقل من كلام النبي ﷺ: (من كنت مولاه فعلي مولاه): المالك للتصرف؛ لأنه عقل منه الإمامة، التي هي مفيدة للملك التصرف، فدل على أن لفظة (المولى) تُفيد ما ذكرناه، وقول حسان حجة في ذلك؛ لأنه لا يشكّل حاله في معرفة اللغة»^(٣٤).

قال الشهيد حميد:

«وأخبرنا الشيخ الأجلّ العالم الورع الصالح، محيي الدين، عمدة محدثين، شيخ المتكلمين، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الوليد القرشي، رضوان الله عليه،

قراءةً عليه، قال: أخبرنا القاضي الأجل الإمام شمس الدين، جمال الإسلام والمسلمين، جعفر بن أحمد بن أبي يحيى رضوان الله عليه، قراءةً عليه، قال: ... عن إبراهيم بن رجاء الشيباني، قال: قيل لجعفر بن محمد: ما أراد رسول الله ﷺ بقوله^(٣٥) يوم الغدير: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ)، قال: فاستوى جعفر بن محمد قاعداً، ثم قال: سئل والله عنها رسول الله، فقال: (الله مولاي، أولى بي من نفسي، لا أمر لي معه، وأنا مولى المؤمنين، أولى بهم من أنفسهم، لا أمر لهم معي، ومن كُنْتُ مَوْلَاهُ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ لَا أَمْرَ لَهُ مَعِي، فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ أَوْلَى بِهِ مِنْ نَفْسِهِ لَا أَمْرَ لَهُ مَعَهُ).

قال شيخ الإسلام - أيده الله -: (وهذا يوضح صحّة المعنى الذي قدّمنا: أنّ المراد بالمولى: المالك للتصرّف؛ لأنّه ﷺ بيّن المراد بقوله: الله مولاي أولى بي من نفسي لا أمر لي معه، وإنّما أراد ملك التصرّف عليه؟ قال: وأنا مولى المؤمنين، أولى بهم من أنفسهم لا أمر لهم معي. وهذا يبتدر إلى الفهم منه: ملك التصرّف عليهم، وقد زاده إيضاحاً بقوله: لا أمر لهم معي. يريد: تمام التصرّف عليهم، والولاية فيهم، كما يقال: فيمن لم يبلغ الحلم: أنّه لا أمر له مع أبيه، ولا أمر لليتيم مع الوصي ووليه. ولا وجه لذلك إلّا أنّ الأب يملك التصرّف على ولده، وكذلك حال الوصي مع اليتيم. ومتى ثبت لعلّي ﷺ، ملك التصرّف على المؤمنين، كان إماماً؛ لأنّه لا يلي التصرّف على هذا الحدّ إلّا الإمام. فصحّ ما قلناه: من أنّ خبر الغدير يُفيد الإمامة، وقد انطوى أيضاً على فضائل عدّة سوى الإمامة، ومتى اقتضت فضله على غيره، كان أولى بالإمامة أيضاً؛ لكونه أفضل، إذ الأفضل أولى بالإمامة من المفضول عند مَنْ أَمَعِنَ النَّظَرَ...»^(٣٦).

(٥) حميدان بن يحيى بن القاسم بن الحسن القاسمي (٠٠٠ - ق ٥٧هـ)

ذكر السيد حميدان بن يحيى القاسمي حديث الغدير، عند كلامه على الإمامة، وقد جعله أول أدلته عليها، وذلك تحت عنوان: (الأدلة على إمامة أمير

المؤمنين (عليه السلام)، وجاء في كلامه:

«منها: ... وقال لكافة من حضر يوم غدیر خمّ، وهو على مكانٍ عالٍ، في يومٍ شديد الحرّ، وهو آخذٌ بيد عليٍّ - عليه السلام -: (أَلَسْتُ أَوَّلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، فَعَلِيَ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ). قال الإمام عليه السلام: وهذا الخبر ممّا نقلته الأئمة نقلاً متواتراً، ولم يختلفوا إلّا في تأويله»^(٣٧).

(٦) القاسم بن محمد بن عليّ (٩٦٧ - ١٠٢٩ هـ):

وذكر هذا المعنى القاسم بن محمد بن عليّ، في كتابه (الأساس)، عند كلامه على الإمامة، مستدلاً بكلمة: (مولى) الواردة في حديث رسول الله ﷺ، حيث إنّ أحد معانيها هو: مالك التصرف، وهذا يفيد معنى الإمامة، ولوجود قرينة لفظية عليها، قال:

«العترة عليهم السلام جميعاً والشّيعّة: والإمام بعد رسول الله ﷺ بلا فصل: عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين عليه السلام... وممّا يدلّ على إمامته عليه السلام [من السنّة]: قوله صلى الله عليه وآله وآله وسلّم: (أَلَسْتُ أَوَّلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ لَا أَمْرَ لَكُمْ مَعِيَ؟) قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: (فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ، فَعَلِيَ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ). وهذا الخبر متواترٌ مُجمّعٌ على صحّته.

وبيان الاستدلال به: أنّ كلمة (مولى) مُشتركةٌ بين معانٍ، من جُمَلتها: مالك التصرف، فهو مفيدٌ لمعنى الإمامة على قواعد كلّ مذهب. أمّا على قاعدة أئمتنا عليهم السلام والجمهور: فكما مرّ. وأمّا على قاعدة غيرهم: فقد أجمعوا على أنّ المُشترك يُحمّل على أحد معانيه إنّ دلّت عليه قرينة، ومعنى الإمامة قد دلّت عليه قرينة لفظية، قوله ﷺ [في أوّله]: (أَلَسْتُ أَوَّلَىٰ بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)، وقوله ﷺ: (لا أَمْرَ لَكُمْ مَعِيَ)، وقوله ﷺ في آخره: (وانصر من نصره، واخذل من

خَذَلَهُ»^(٣٨).

وفي كتابه: (الاعتصام بحبل الله المتين)، ذكر حديث الغدير في عدّة مواضع منه. منها: عند كلامه عن وجوب التمسك بأهل البيت عليهم السلام، وكان هذا الحديث من الأحاديث التي استدلل بها على ولاية أهل البيت عليهم السلام، وقد ذكره بعدّة طرق، تختلف ألفاظ بعضها، لكنها تؤدّي المعنى الذي أراده، وهو: إثبات ولاية أهل البيت عليهم السلام، فقد قال:

«وعن عامر بن ليلي بن ضمرة، وحذيفة بن أسيد رضي الله تعالى عنهما، قال: لما صدر رسول الله ﷺ من حجة الوداع ولم يحجّ غيرها... ثم انصرف إلى الناس، وذلك يوم غدير خم، - وخم من الجحفة، وله بها مسجد معروف - فقال: (يا أيها الناس، إني قد نبأني اللطيف الخبير، أنّه لم يُعمر نبيّ إلاّ نصف عمر الذي يليه من قبله، وإني لأظنّ أنّ أَدْعَى فأجيب، وإني مسؤول، وأنتم مسؤولون، هل بلغت؟ فما أنتم قائلون؟)، قالوا: نقول قد بلغت وجاهدت ونصحت، فجزاك الله عنّا خيراً، قال ﷺ: (ألسنتم تشهدون أنّ لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنته حقّ، والبعث بعد الموت حقّ؟ قالوا: بلى نشهد، قال ﷺ: (اللهم اشهد)، ثم قال: (أيها الناس ألاّ تسمعون؟ ألاّ فإنّ الله مولاي، وأنا أولى بكم من أنفسكم، ألاّ ومن كنّ مولاه، فهذا مولاه)، وأخذ بيد عليّ عليه السلام فرفعها، حتّى عرفها القوم أجمعون، ثم قال: (اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه). ثم قال ﷺ: (أيها الناس أنا فرطكم على الحوض...، ألاّ وإني سائلكم، حين تردون عليّ الحوض عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما....، قال: الثقل الأكبر: كتاب الله، سبب طرف بيد الله وطرف بأيديكم... وعترتي، فإني قد نبأني اللطيف الخبير أنّ لا يفترقا حتّى يلقىاني، وسألت الله لهم ذلك فأعطاني، فلا تسبقوهم فتهلكوا، ولا تعلّموهم فهم أعلم منكم)، أخرجه ابن عُقْدَة في الموالاة من طريق عبد الله بن سنان عن أبي الطفيل عنهما: به»^(٣٩).

(٧) أحمد بن محمد بن صلاح بن أحمد الشرفي (٩٧٥ - ١٠٥٥هـ):

العلامة السيّد أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي القاسمي، في كتابه: (عدّة الأكياس في شرح معاني الأساس)، فقد بحث، بدوّره، أدلّة إمامة عليّ عليه السلام بحثاً مفصّلاً، أورد أدلّتها وبيّنها، وكان حديث الغدير من جملة الأدلّة التي ذكرها، مستدلاً بوجود قرائن لفظيّة، وهي: (ألسنتُ أولى بكم من أنفسكم)، وقوله: (لا أمر لكم معي)، وقوله: (وانصر من نصره واخذل من خذله). وحاليّة، وهي: تعظيم رسول الله ﷺ لهذا الموقف، الذي جمع الناس له، والصلاة جامعة، والتعريس^(٤٠) في غير وقته.

كلّ هذه قرائن تدلّ على أنّ المراد الإمامة، فهي صريحة في ملك أمرهم، ولا يصحّ أن يراد غير ذلك، ونلاحظ كلامه هنا حيث قال:

«ومّا يدلّ على إمامته عليه السلام من السنّة: قوله ﷺ لما رجع من حجّة الوداع ونزل بالوادي الذي يسمّى حمّا، وفيه غدير ماءٍ يُنسب إليه: أنزل الله تبارك وتعالى عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾»^(٤١)، فأمر رسول الله ﷺ مناديه أن يُنادي بالتعريس، وكان ذلك الوقت غير وقت تعريس؛ لأنّه كان في وسط اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة، فكسح له ﷺ تحت دوحات هنالك، وأمر المنادي أن ينادي... فكان ممّا قال: (أيّها الناس، ألسنتُ أولى بكم من أنفسكم، لا أمر لكم معي؟)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (من كُنْتُ مؤلّاه فعليّ مؤلّاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله).

وهذا الخبر متواترٌ، مُجمّعٌ على صحّته، عند الموالف والمخالف، ومن وقف على طرفٍ من علم الحديث، علم صحّة تواتره... فإذا عرفت ذلك: فهو، أي: الخبر المتقدّم، مفيدٌ لمعنى الإمامة، على قواعد كلّ مذهب: أمّا على قاعدة أئمّتنا عليهم السّلام والجمهور، من وجوب حمل المُشترك على جميع معانيه، (فكما مرّ)

ذكره في كلمة (ولي). فنقول: المراد بالمولى هنا: مالك التصرف، والمؤد والناصر، والأولى بالشيء، ويمتنع أن يُراد هنا: ابن العم، أو الجار، أو المعتق، أو المعتق؛ لاستحالة ذلك عقلاً وشرعاً. (وأما على قاعدة غيرهم)، أي: غير أئمتنا عليهم السلام والجمهور، (فقد أجمعوا، على أن المشترك يحمل على أحد معانيه، إن دلت عليه، أي: على ذلك المعنى قرينة).

(ومعنى الإمامة) هنا (قد دلت عليه قرينة لفظية)، وهي قوله ﷺ في أوله: (ألسنت أولى بكم من أنفسكم)، فإنه صريح في ملك أمرهم، والتصرف عليهم، وإذا كان كذلك، كان المناسب له، أن يكون المراد بلفظ (مولى) المالك للتصرف والأولى به، إذ لو أُريد [به] خلاف ذلك لما تناسب الكلام. (و) كذلك قوله ﷺ: (لا أمر لكم معي). وقوله في آخره: (وانصر من نصره واخذل من خذله)، فإنه قرينة أخرى مؤكدة لمعنى الإمامة؛ لأن النبي ﷺ حث على نصرته، وحذر من خذلانه، وذلك أوضح دليل على أن النبي ﷺ أراد إمامته واستخلافه على أمته بعده.

ومما يؤكد ذلك أيضاً: القرينة الحالية، وهي تعظيم النبي ﷺ للموقف الذي جمع الناس له، وأمره للمنادي أن ينادي: الصلاة جامعة، في غير وقت التعريس، في شدة الحر، في موضع شديد الحر، ولم يزد في ذلك الجمع العظيم، والموقف الكبير، على الخطبة وإثبات ولاية علي عليه السلام^(٤٢).

(٨) السيد مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي (١٣٣٢ - ١٤٢٨ هـ):

العلامة السيد مجد الدين المؤيدي، من علماء اليمن المعاصرين، وقد ذكر حديث الغدير في كتابه: (لوامع الأنوار)، تحت عنوان: (وجوب التمسك بالثقلين)، جاء فيه:

«وقد أقام الله جلّ جلاله حججه على هذه الأمة كما أقامها على الأمم، فكان مما أوجب عليهم وحثهم، وأمرهم به وألزم، وافترضه عليهم وحكم، في مُحكم

كتابه الأكبر، وعلى لسان رسوله سيّد البشر ﷺ، المأخوذ ميثاقه في مُنزَلات السّور، الاعتصام بحبله والاستمسك بعِرة نبيّه وآل رسوله... الذين سيّدهم، ومقدّمهم وإمامهم، وليّ المؤمنين، وموّلِي المسلمين، سيّد الأوصياء وإمام الأولياء، وأخو خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»^(٤٣).

وقد بيّن المؤلّف أنّ من أعظم ما بيّنه رسول الله: أنّهم حجّته على أمّته، وأعظم ما جاء من الأخبار هو في أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، حيث إنّ الرسول ﷺ كان يبيّن منزلتهم ﷺ في موافقه كلّها، منذ أنّ بدأت الدّعوة الإسلامية، إلى أن انتقل إلى الرّفيق الأعلى، فقد كان يبيّن حجّته للنّاس بعده. ومنها: يوم غدِير خمّ، ففي ذلك الجُمع العظيم، بأمر العليّ القدير، نصّب أمير المؤمنين عليه السلام حُجّة وخليفةً له. قال:

«وأعظمه وأبلغه ما لإمام المتّقين، أمير المؤمنين، وسيّد الوصيين، وأخي سيّد المرسلين - عليهم صلوات ربّ العالمين - وهو ما لا يُستطاع حضره، ولا يُطاق إحصاؤه وذكره، فما زال إمام المرسلين وخاتم النبيّين - صلوات الله عليهم وسلامه - يبيّن للأمة مقامه في كلّ مقام، ويقرّر لهم حجّته عند الله وعند رسوله من ابتداء الدّعوة النّبويّة إلى آخر الأيام، فأما المقامات العظام التي خُطِبَ بها الرسول ﷺ لإبلاغ الحجة أهل الإسلام، فإنّ أكثرها من أعلام نبوة سيّد الأنام، ومعجزاته المخبرة بالغيوب على مرور الأعوام. كالمقام الشّهير، الذي قام به الرسول ﷺ يوم الغدير في ذلك الجَمّ الغفير، والجمع الكثير؛ لتأكيد حُجّته عام حجّته، ووداعه لأُمّته، مُوصياً لهم بالثّقليّن، مستخلفاً عليهم الخليفتين، مبيناً لهم اقتراب إجابته لداعي الله، وتليّيته لوعد الله، مقرّراً بحجة الله، قائلاً لهم: (أَلَسْتُ أَوَّلَى بَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ؟). قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: (اللّهُمَّ اشْهَدْ)، ثمّ قال: (اللّهُمَّ اشْهَدْ). ثمّ قال: (فَمَنْ كُنْتُ مُوَلّاهُ، فعليّ مُوَلّاهُ، اللّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وعادِ مَنْ عاداه، واخْذَلِ مَنْ خَذَلَهُ، وانصُرْ مَنْ نَصَرَهُ).

وفي هذا اليوم أنزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤٤)، ولا ينافي هذا ما رواه بعضهم - أي: العامة - من نزول الآية يوم عرفة، فالجمع مُمَكِّنٌ مع الصَّحَّة، بتكرّر النزول، كما نصَّوا على ذلك في غيرها من الآي، كآية التطهير؛ ذكره الطَّبْرِيُّ وغيره^(٤٥).

وأخرج صاحب جامع آل محمد - صلوات الله عليهم - فيه، عن الإمام الحسن بن يحيى بن الحسين بن الإمام الأعظم زيد بن علي^{عليه السلام}، ما لفظه: ثم دلَّ على أنَّ الإمام أمير المؤمنين، وسيدهم عليَّ بن أبي طالب؛ فقال لنبيه - ^{عليه السلام} -: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^(٤٦)، فلما نزل جبريل بهذه الآية، وأمر أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه، أخذ بيد علي - صلى الله عليه - عليه - فأقامه، وأبان ولايته على كلِّ مسلم^(٤٧).

وقد ذكر المؤلف حديث الغدير في مواضع متفرقة من هذا الكتاب، مبيِّناً كثرة رواته وتعدّد طرقه ووجوه الاختلاف في بعض ألفاظه، لتعدّد طرقه. فمنها: ما ذكره بقوله:

«وأخرج الإمام المرشد بالله^{عليه السلام}، بسنده إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.. إلخ: أنزلت في عليّ، أمر رسول الله أن يبلغ فيه...

وروى بسنده^(٤٨) إلى أبي سعيد: أن رسول الله^{صلى الله عليه وآله} لما دعا الناس بغدير خم... إلى قوله: فلم يتفرقوا حتى نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾... إلخ، فقال رسول الله^{صلى الله عليه وآله}: (الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الربّ برسالي والولاية لعليّ).

وروى مثل ذلك إمام الشيعة، محمد بن سليمان الكوفي - رضي الله عنه - عن أبي سعيد الخدري، بلفظ: (ورضا الربّ بولايتي وبالولاية لعليّ من بعدي)، ثم

قال: (من كُنْتُ مَوْلَاهُ...)»^(٤٩).

تهنئة الخلفاء لأمر المؤمنين:

وفي موضعٍ من كتابه هذا: (لوامع الأنوار)، قال المؤلف:
«وسأذكر طرفاً مما اقتضاه المقام، مقدّماً لأجل المقامات العظام، المتضمّن
تهنئتهما لمولاهما، ومولى المؤمنين يوم الغدير، بمشهد الجَمِّ الغفير.
ومن ألفاظها^(٥٠) قول أبي بكر وعمر: (أَمْسَيْتَ يا بن أبي طالب، مولى كلِّ
مؤمنٍ ومؤمنَةٍ)، لما قال رسول الله ﷺ: (مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ
مَنْ وَالَاهُ...). أخرجه الكنجي عن سعد بن أبي وقاص.

وروى عبد الرزاق بسنده إلى البراء بن عازب، قال: لما نزل النبي ﷺ، بغدير
خم... إلى قوله: ثم قال: (أَلَسْتُ أُولَى بالمؤمنين من أنفسهم؟) ... فقال عمر:
(يُهِنِكَ يا بن أبي طالب، أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ مَوْلَى كلِّ مسلم). ذكره في الكامل
المنير^(٥١).

وقد ذكر السيّد مجد الدين أنّ هذه التهنئة جاءت بألفاظٍ مختلفة. منها: لفظ
(بنخ)، و(أَصْبَحْتَ مولاي)، وغير ذلك من الألفاظ التي تُفيد معنى التهنئة كما
ذكر المؤلف، فقال: فاتبعه عمر بن الخطّاب، فقال: بنخ بنخ يا أبا الحسن،
أَصْبَحْتَ مولاي ومولى كلِّ مُسلم^(٥٢).

وفي موضعٍ آخر، نقله المؤلف عن الحاكم الجشمي، حيث قال:
«فقام عمر بن الخطّاب، وقال: بنخ بنخ يا بن أبي طالب، أَصْبَحْتَ مولاي
ومولى كلِّ مؤمنٍ ومؤمنَةٍ»^(٥٣).

وذكر في موضعٍ آخر - كما في حديث جابر^(٥٤) -: فقام عمر، وقال: هنيئاً لك
يا بن أبي طالب، أَصْبَحْتَ مولاي ومولى كلِّ مؤمنٍ ومؤمنَةٍ^(٥٥).

وذكر المؤلف من مواقف عمر الأمر التالي:
«وقيل لعمر: إنّنا نراك تَصْنَعُ بَعْلِي شَيْئاً، لا نراك تَصْنَعُهُ بِأَحَدٍ من أصحاب

رسول الله ﷺ! فقال: إِنَّهُ مُؤَلَاي، وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ. أَخْرَجَهُ الْمُرْشِدُ بِاللَّهِ ﷻ، عَنْ أَبِي فَاخْتَةَ»^(٥٦).

هذا ما أردنا بيانه من مواقف هؤلاء الأعلام من حديث الغدير، ولو أردنا أن نحصي من يرى رأيهم من علماء اليمن لاحتجنا إلى مجلدات، وإنما الغرض هو بيان نموذج، لمن يرى أن حديث غدير خم صريح في الإمامة والولاية. والحمد لله أولاً وآخراً.

* * *

الهوامش:

- (١) ذكره الشيخ المفيد في الإرشاد ١: ٧. وغيره من علماء الإسلام، أن رسول الله جمع بني عبد المطلب وطلب المؤازرة منهم، ومن آزره كان خليفته من بعده.
- (٢) وهو قول النبي ﷺ لعليّ عليه السلام: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى...»، وقد ذكره الكثير من رواة أخبار رسول الله ﷺ، منهم الطبراني في المعجم الأوسط ٥: ٢٨٧.
- (٣) يراجع: خبر براءة وكيفية إبلاغها في: علل الشرائع ١: ١٩٠ للشيخ الصدوق. وتراجع كتب الخاصة والعامة في هذا الأمر، وكيف أرسل رسول الله أبا بكر ثم استدرك الأمر وأرسل أمير المؤمنين؛ لأنه لا يؤدي ذلك إلا هو ﷺ أو رجل منه، كما ذكر رواة الأخبار النبوية.
- (٤) الشافي ٣: ١٩٩-٢٠٠، ط: مكتبة اليمن الكبرى. سنة ١٤٠٦ هـ.
- (٥) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٣٢، ط سنة: ١٣٧٦ هـ، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.
- (٦) ابن منظور، لسان العرب ١٥: ٤٠٠-٤٠٣، ط ١٤١٦ هـ، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي.
- (٧) قال في القاموس المحيط ٢: ٢٤٤، باب الزاي فصل الحاء: الحجرة بالضم: معقد الإزار، ومن السراويل موضع التكة.
- (٨) التوبة: ١٢٨.
- (٩) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٢: ٧، ط دار المعرفة والنشر، بيروت.

- (١٠) الزمخشري، جار الله، الكشاف ٣: ٥٣١-٥٣٢، عند تفسير الآية ٦ من سورة الأحزاب.
- (١١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي ٨: ١٠٧، تصحيح وتعليق على أكبر غفاري، الطبعة الرابعة ١٣٦٥ ش، دار الكتب الإسلامية طهران.
- (١٢) المائدة: ٥٥.
- (١٣) ذكر محقق كتاب (الأحكام) في الحاشية: أنه ورد في نسخة أخرى: عليه السلام.
- (١٤) المائدة: ٦٧.
- (١٥) الرسي، يحيى بن الحسين، الأحكام في الحلال والحرام: ١: ٣٦-٣٧-٣٨، تحقيق السيد محمد قاسم الهاشمي، ط: سنة ١٤١٠هـ-١٩٩٠م. ومثل هذا المعنى في: (كتاب فيه معرفة الله عز وجل) للهادي يحيى بن الحسين أيضاً، عن الغدير وإمامة أمير المؤمنين عليه السلام، فقد جاء فيه: «ثم يجب عليه أن يعلم أن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، ووصي رسول رب العالمين، ووزيره وقاضي دينه، وأحق الناس بمقام رسول الله صلى الله عليه وآله، وأفضل الخلق بعده، وأعلمهم بما جاء به محمد، وأقومهم بأمر الله في خلقه... وفيه أنزل الله على رسوله بغدير خم: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رَسُولَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (١٥) فوقف عليه السلام وقطع سيره...، ثم قال: (أيها الناس، ألسنتُ أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: اللهم اشهد، ثم قال: اللهم اشهد، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله). والناس كلهم مجتمعون يسمعون كلام رسول الله...»، وهو ضمن مجموع رسائل الهادي: ٥٣، بتحقيق: عبد الله بن محمد الشاذلي ط مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، سنة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- (١٦) محمد بن الهادي يحيى بن الحسين، كتاب الأصول: ٣٧-٣٨-٣٩، تحقيق: السيد عبد الله بن حمود العزي، ط مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية (سنة ١٤٢١هـ).
- (١٧) الحسن بن المنصور بالله عبد الله بن حمزة، الشافي: ج ١ ص ١١١-١١٢.
- (١٨) المعارج: ١.
- (١٩) أسانيد هذه الأخبار وطرق روايتها في كتاب الشافي للمؤلف ١: ١١١-١٢٢. فقد بين طرقه وأسانيده، وحرص على أن تكون بطرق العامة؛ لأنه كان في بحث مع أحد علمائهم عن فضائل ومناقب أهل البيت عليهم السلام.
- (٢٠) المعارج: ١-٢.
- (٢١) الشافي ١: ١١٤-١١٥. هناك حاشية في كتاب الشافي بعد ذكره سبب نزول الآية أعلاه، وهي قوله: وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ الآية.. يُجمل على تكرّر نزول الآية كما ذلك واقع في الكثير من الآي عند تكرّر الأسباب، فلا يشكل ذلك.

- (٢٢) الحديد: ١٥.
- (٢٣) الشافي: ١١٩.
- (٢٤) المصدر نفسه: ١١٩-١٢٠-١٢١.
- (٢٥) في المصدر: دليل، وما بين المعقوفين من عندنا.
- (٢٦) الشافي: ص ١٢١.
- (٢٧) ترجم له صاحب (أعلام الزيدية)، السيد عبد السلام الوجيه، ص: ٤٠٧. جاء في ترجمته: [٥٨٢ - ٦٥٢هـ] حميد بن أحمد المحلي التميمي الوادعي الهمداني أبو عبد الله الشهيد، من أكابر علماء الزيدية وأفاضلهم....).
- (٢٨) كتاب (محاسن الأزهار) هو شرح لقصيدة الإمام عبد الله بن حمزة، من علماء الزيدية وأئمتهم، متوفى (٦١٤هـ)، والشهيد حميد بن أحمد ممن تتلمذ على يديه. وهذا الكتاب قام بنشره: مجمع إحياء الثقافة الإسلامية في قم، بتحقيق وإشراف العلامة المحقق المدقق آية الله الشيخ محمد باقر المحمودي، سنة ١٤٢٢هـ.
- (٢٩) المقصود من النص هو البيت الوارد في القصيدة، وهو قوله: أيها نص بها أحمد * له على المكّي واليثربي.
- (٣٠) محاسن الأزهار: ٧٥-٧٦-٧٧-٧٨.
- (٣١) محاسن الأزهار: ٨٣.
- (٣٢) الحديث النبويّ موجودٌ في الكتب الفقهية، منها: الحكيم، السيد محسن، مستمسك العروة الوثقى ١٤ : ٤٣٨. ط مؤسسة دار التفسير، قم. والروحاني، السيد محمد صادق، فقه الصادق ١٣ : ٢٩٧، ط: مؤسسة دار الكتاب، قم. وغير ذلك من الكتب الفقهية.
- (٣٣) محاسن الأزهار: ٨٤.
- (٣٤) المصدر السابق: ٩٩.
- (٣٥) في المصدر: يقول.
- (٣٦) محاسن الأزهار: ٩٩-١٠٠.
- (٣٧) مجموعة السيد حميدان: ٤٣٤ - ٤٣٥، تحقيق أحمد أحسن علي الحمزي - هادي حسن هادي الحمزي. ط مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، اليمن، صعدة.
- (٣٨) القاسم بن محمد بن علي، الأساس لعقائد الأكياس: ١٥٨، تحقيق السيد محمد قاسم الهاشمي، منشورات مكتبة التراث الاسلامي اليمن صعدة، سنة: ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

- (٣٩) الإمام القاسم بن محمد بن عليّ، الاعتصام بحبل الله المتين ١: ١٤٢، ط مكتبة اليمن الكبرى، سنة: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- (٤٠) التعريس: نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة، من قولهم عرس القوم: إذا نزلوا آخر الليل للاستراحة. ذكره الطريحي في مجمع البحرين ٣: ١٥١. الطبعة الثانية، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، سنة: ١٤٠٨هـ.
- (٤١) المائدة: ٦٧.
- (٤٢) الشرفي القاسميّ، أحمد بن محمد بن صلاح، عدّة الأكياس في شرح معاني الأساس ٢: ١٤٧ - ١٥١، ط دار الحكمة البيانيّة، صنعاء.
- (٤٣) المؤيّد، السيّد مجد الدّين محمد بن منصور، لوامع الأنوار ١: ٦٥ - ٦٦، تحقيق: محمد علي عيسى. طبعة مركز أهل البيت للدراسات الإسلاميّة، اليمن، صعدة، سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- (٤٤) المائدة: ٣.
- (٤٥) لوامع الأنوار ١: ٦٦ - ٦٧.
- (٤٦) المائدة: ٦٧.
- (٤٧) لوامع الأنوار ١: ٧١ - ٧٢.
- (٤٨) يقصد: المرشد بالله، المذكور أعلاه، وهو يحيى بن الحسين بن إسماعيل الجرجاني، من علماء الزيدية، له مؤلفات، منها: الأمالي الاثنيّة، (وتسمى الأنوار)، والأمالي الخميسيّة، وغيرها، وله في فضائل آل البيت (عليه السلام)، له ترجمة في أعلام الزيدية، للسيّد عبد السلام الوجيه: ١١٠٠ - ١١٠١.
- (٤٩) لوامع الأنوار ١: ٧٤ - ٧٥.
- (٥٠) يقصد التهئية.
- (٥١) لوامع الأنوار ٢: ٥٢٥ - ٥٢٦.
- (٥٢) المصدر السابق: ٥٢٦.
- (٥٣) المصدر السابق: ٥٢٦.
- (٥٤) ذكر المؤلّف حديث جابر في كتابه لوامع الأنوار ٢: ٥٢٧.
- (٥٥) المصدر السابق: ٥٢٧.
- (٥٦) المصدر السابق: ٥٢٧.

معرفة الاستشراق

في الحوار الحضاري المشترك بين روسيا والإسلام

□ د. عبد الله أبو هدف (*)

ارتبط الاستشراق بتحقيق سلطة المعرفة نحو الاستعمار، وتمكينه من آليات استلاب الشعوب والأمم الضعيفة إلى حين تبدلات مفهوم الاستعمار نفسه ودخوله في الاستعمار الجديد وطابعه الاقتصادي والاستقطاب والتبعية والغزو الفكري والتطبيع والهيمنة والعولمة، ضمن تنازعات الحوار الحضاري الذي ألبس عند منظري الهيمنة لبوس نهاية التاريخ؛ للشروع في نظام دولي جديد يندرج في مصالح القطبية المهيمنة، وتسييرها الولايات المتحدة الأمريكية، أو لبوس الصراع الحضاري تغطية على العرب والمسلمين تُزيّف معها الحقائق، وتُضلل الوقائع، وتهتمش الحقوق.

وتنامت هذه التبدلات مع رؤية الآخر الذي يتماهى مع تمثيل العدو أو الغازي أو المحتل إلى وقت قريب، فنشأ الاستغراب (دراسة الغرب ووعي علائقه بالذات القومية) في مقابل الاستشراق الذي تطور مفهومه وتخصّص بالاستغراب؛ إذ ضاق إطار الاستشراق ضمن الجغرافية العربية وحدها على

(*) باحث وأستاذ الأدب المقارن في جامعات سورية.

الرَّغْم من أنَّ حدود الثقافة لا تقتصر على الجغرافية، فالعربيُّ الَّذي يعيش خارج وطنه يظلُّ عربياً.

وشهد مفهوم الاستشراق أو الاستعراب بالنسبة إلينا نحن العرب تطوراً لافتاً للنظر في حمأة الحرب الباردة، ومحاولات كسب العرب إلى قطبية مسيطرة دون أخرى، ورأى بعض الباحثين في ذلك انسداداً لأفق الاستشراق، حسب تعبير سالم حميس، بتأثير العوامل التالية:

- ضعف ثقة الإنسان الغربي بتفوقه الحضاري والعقلي إثر الحربين العالميتين الأولى والثانية.

- نموّ حركات التحرُّر الوطني في البلدان المستعمرة، ونجاحاتها ضدّ مدّ السيطرة وتخطيطاتها، ممّا نجم عنه اضطراب في مدى معرفة الغرب بالشرق إزاء الاستقلالات الذاتية.

- تطوّر العلوم الإنسانية ممّا أفضى إلى إلغاء هيمنة المناهج الاستشراقية التقليدية، «وفتح أعين الباحثين على إشكالات وقضايا تمت إلى الثقافة والمجتمع بمعنييهما التاريخي الكلي»^(١).

ويفيد هذا التطوُّر في فهم الاستشراق الآخر الغربي، فركن إلى تعديل معرفته في ضوء المتغيرات الدولية العاصفة خلال العقدين الأخيرين، ودخل في ذرائعية سلطة المعرفة، وقوبل الاستشراق بالاستعراب اختراعاً للآخر في الخطاب الانثروبولوجي. ورأى منذر الكيلاني ذلك استجابةً لدواعٍ معرفية اختراع الآخر، وأنّ علينا أن نحقق داخل المرجعية الكونية تمفصل العلاقة التراتبية بين الذات والآخر، بين المركز والتخوم، بين الملاحظ والملاحظ؛ بطريقة واعية ونقدية نحو: «فرصة مجاوزة النزعة الأصولية المغالية في الهوية، وفرصة المروق من مأزق علم اجتماع قويم أو أنثروبولوجية قومية»^(٢).

وتظهر الذرائعية جليّة انصياعاً لمصالح الغرب بالدرجة الأولى في أشكال

نظرة الآخر إلى الغرب في موروث الاستشراق الطويل من العرقية والعنصرية إلى كبش الفداء، ويين محمد نجيب بو طالب أن الصور والأفكار والتسويغات التي خرج بها (فير) ناتجة عن تأثره بفرضيات المستشرقين، «ومن الضروري الإشارة في النهاية إلى أن استمرار المواقف التّحاملية وملاحم العدائية لا يمكن تحميلها لأفراد، وإنما إلى منظومة حضارية اجتماعية سياسية إعلامية يساهم الأفراد في صياغتها. ويمكن لهؤلاء أن يتمردوا على هذا النظام، ولو معرفياً، مثلما تمرد برك وروندسون وغارودي وغيرهم»^(٣).

ومن الواضح أن الاستشراق قد أنجب مستشرقين جددًا استفادوا من فضاءات العلوم الإنسانية وتحديثها من جهة، وانغمروا في رحابة الحوار الحضاري بما لا يتفق مع أهواء الأنظمة الغربية ومصالحها من جهة أخرى.

وقدّم الاستشراق الروسي وتطوّراته السوفييتية، ثمّ العود إلى الإطار الروسي أنموذجاً لمكانة الاستشراق في تعزيز الحوار الحضاري بين الغرب والشرق، بين الشمال والجنوب، وتحديدًا بين الآخر الغربي السّاعي إلى الاستعلاء والتّكبر والهيمنة، وهو مختلفٌ كثيراً عن الاستشراق الروسي من جهة، والعرب المستضعفين والواهنيين عن المواجهة والمقاومة من جهة أخرى. وقد خصّصتُ البحث للنظر في الاستشراق وتنمية الحوار الحضاري من خلال تعامل الاستشراق الروسي مع الأدب العربي الحديث، على أنّه عزز موروته الثقافي نحو قضية تطوير الأجناس الأدبية العربية الحديثة، ولا سيّما القصّة والرواية. ويُقسّم البحث إلى الأقسام التالية:

١. الاستشراق الروسي ورؤاه العربية.
٢. الاستشراق الروسي والأدب العربي.
٣. نجيب محفوظ في مرايا الاستشراق الروسي.
٤. الأدب الجزائري في مرآة الاستشراق الروسي.

١. الاستشراق الروسي ورؤاه العربية:

يستند الاستشراق الروسي إلى تقاليد راسخة ومكينة في أمرين:

الأول: الميل العلمي لمعرفة الآخر في خضم هيمنة المعرفة الاستشراقية على وجه العموم التي اعتمدت على «النص» الإنشاء لتركيز «السلطة الاستعمارية أو الغربية، أو سلطة الآخر على العرب»، كما بين ذلك بجلاء سفر إدوار سعيد الكبير (قسم الاستشراق)^(٤). وقد ظل الاستشراق السوفييتي وهو سليل الاستشراق الروسي متعزراً ومتزهداً وحائراً عن مصالحه والعلم إلى فترة متأخرة نسبياً عن بدء الاستشراق؛ إذ لم يستقر الاستشراق الروسي حتى أواخر القرن الثامن عشر في عهد القيصرية كاترين، بينما نشط الاستشراق الأوروبي قبل ذلك بقرون.

والثاني: وهو تأثير الثورة الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي، فما كان في المجال السياسي الماركسي اللينيني هو المتبع أيضاً في مجال الاستشراق، فانتهدت (الدراسات الإسلامية) أو الأثنوغرافية أو الأنثروبولوجية، أو كادت لصالح الأرضية السياسية والاجتماعية والاقتصادية في فهم المجتمع وتطويره، ولا يستطيع المرء في هذه العجالة أن يشير إلى تعثر الموقف من الاستشراق في ظل إعادة البناء (البيروستريكا)؛ حيث يعاد النظر في مفاهيم وممارسات كثيرة ولكنها لا تستمر طويلاً على الرغم من محاولات التطوير الكثيرة دون أسس منهجية، فالسائد هو تقليد دراسة المجتمع العربي وقضايا ومشكلاته في إطار وجهة النظر المادية^(٥)، فقد صاغوا ما سمّوه «علم الاستشراق السوفييتي» المبني على موروث الاستشراق الروسي، والمعدل وفق النظرية الماركسية التي تجد مؤيديها في بلدان العالم كافة، وانطلق العلم من معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية، التي صارت إلى أكاديمية العلوم الروسية مع مطلع العام ١٩٩٢، أي: بعد أسبوع من استقالة غورباتشوف. وشرع المعهد إلى

جانتب هيئة تحرير «العلوم الاجتماعية والعصر» بإصدار سلسلة كتب من هذا العلم منذ عام ١٩٨٣ حتى عام ١٩٩٠ عند تعثر العمل في هذا الاتجاه كلاً. وقد اعتمد المعهد على إنتاج المؤسسات الأكاديمية في موسكو ولينينغراد (سان بطرسبورج) وعدد من عواصم الجمهوريات الاتحادية آنذاك، مثل باكو ودوشنبه ويرفان وطشقند وتبيليسي. ومن الصعب، حسب أول كتاب في هذه السلسلة «أن نجد بلداً عربياً إلا وانعكس تاريخه واقتصاده في أعمال الكتاب السوفييت. ويُشر في الاتحاد السوفييتي سنوياً عددٌ كبيرٌ من الكتب ذات المواضيع العربية، ويُترجم جزء منها، أو يعاد نشره في البلدان العربية»^(٦).

وحمل الكتاب الأول في السلسلة عنوان (التطور المعاصر للبلدان العربية)، وحوى موضوعات متعددة لباحثين متعددين مثل: انتشار أفكار الاشتراكية العلمية في جنوب الجزيرة العربية، الديمقراطيون الثوريون والتقاليد الدينية، تونس في الستينات، السياسة والأيديولوجية، دور العامل النفطي في تطور الجزائر، الرساميل العربية في السبعينيات، التحوّل الرأسمالي للاحتكارات النفطية، التحوّل السياسي - الاجتماعي في مصر خلال السبعينيات، بعض خصوصيات تطوّر دولة الإمارات العربية المتحدة.. الخ.

ثم ظهرت في السلسلة كتب كثيرة، مثل:

- بلدان الشرق الأدنى والأوسط: الاقتصاد والسياسة، موسكو ١٩٨٣.
- القضية الفلسطينية: العدوان والمقاومة وسبل التسوية، موسكو ١٩٨٣.
- بلدان الشرق: السياسة والأيديولوجيا، موسكو ١٩٨٥.
- أبحاث جديدة للمستعربين السوفييت، موسكو ١٩٨٦.
- الشرق في القرون الوسطى: النظام الاقتصادي والاجتماعي، موسكو ١٩٨٧.

- شمال أفريقيا: التطوّر المعاصر، موسكو ١٩٨٨.

- عالم البدو الرّحل، موسكو ١٩٨٨.

وغيرها...

لقد كانت حصيلة استشرافية بعامة واستعرافية بخاصة ضخمة ومفيدة، نتوقّف عند جانبٍ منها، وهو قضية تطوير الأجناس الأدبية العربيّة بعد الإشارة إلى تاريخيّة الاستشراق الروسيّ.

كان قرار القيصرة كاترين (بتاريخ ٢٧ أيلول ١٧٧٢) القاضي بإلزامية تدريس اللّغة العربيّة في المدارس المختصّة بتعليم اللّغات الشّرقية تطوّراً في تاريخ الاستعراب الروسيّ، مثلما كانت جهود علماء ومستشرقين أمثال فرين وسينكوفسكي وكاظم بيك وبرتولد وغرغس ورازين وكريمسكي أساساً لبناء تراث الاستعراب الروسيّ، ودفعه إلى الاستقلال النّسبي عن (المركزية الأوروبيّة) من جهة، وتخليصه النّسبي من المحاولات العدائية غير العلمية تجاه التّراث العربيّ - الإسلاميّ، وإنجازته المشهود في المخطوطات العربيّة، ونشر الثقافة العربيّة الإسلاميّة، على أنّ جهد كراتشكوفسكي هو الأكثر تميّزاً في تثمين إسهام هذا الاستعراب، فقد كان كراتشكوفسكي حلقة انتقال من الاستشراق الروسيّ إلى الاستعراب السوفييتي بآفاقه الإنسانيّة التّقدميّة الواضحة^(٧).

١. الاستشراق الروسيّ والأدب العربيّ:

عُني الاستشراق الروسيّ مبكّراً بالأدب العربيّ الحديث، كما هو الحال مع كتابات جرجس مرقص (١٩١٢ - ١٨٤٦)، ولكنّ جهود كراتشكوفسكي هي الأبرز في مسار هذا التّاريخ الاستشراقيّ، فهو أوّل من تناول الأدب العربيّ الحديث من المستشرقين الرّوس، وأحد قلائل المستشرقين العالميين الذين عُنوا به منذ بدء النّهضة الحديثة في القرن التّاسع عشر^(٨) ممّا جعله - بحق - رائداً لدراسات الأدب العربيّ الحديث في الاستشراق الروسيّ، مهّد فيما بعد للاهتمام

الثّر والفريد في الاستعراب السوفييتي، فصار للأدب العربي الحديث أساتذته و مترجموه وأقسامه ومكتباته في مراكز الاستعراب السوفييتية، وربما كانت (آنا دولينينا) أوّل مستعربة سوفييتية متخصصة بالأدب العربي الحديث وحده، ولها فيه عشرات المؤلفات والمترجمات، ومئات البحوث والمقالات المنتشرة في الدّوريات، ونذكر من هذه الأعمال:

- الأدب الروسي في القرن التاسع عشر في البلدان العربية، ١٩٥٣.

- جوجول في الأدب العربي، ١٩٥٤.

- جوركي في اللغة العربية، ١٩٥٥.

- شولخوف في سورية ولبنان، ١٩٥٦.

- ترجمة قصص محمود تيمور إلى الروسية، ١٩٥٦.

- الثّر العربي، ١٩٥٦.

- توفيق الحكيم، ١٩٥٧.

- ما قبل تاريخ الواقعية في الأدب العربي الحديث، ١٩٥٩.

- روايات جرجي زيدان، ١٩٦٩.

- روايات فرح أنطون، ١٩٧١.

- تولستوي في الأدب العربي، ١٩٧٣.

- القصّة في الأدب العربي، ١٩٧٤^(٩).

ونناقش في هذه المقالة بعض أبحاثها الأخرى.

نلاحظ في ميدان الاهتمام بالأجناس الأدبيّة العربية أنّ الاستعراب السوفييتي قد وجّه اهتمامه إلى دراسة تطوّر الأدب العربي الحديث واستمرار تقاليده، والتّعريف بالتّطور الداخلي والمؤثرات الخارجية لهذا التّطور، والمقارنة بالأداب القومية والعالمية التي تماثله أو تبادلت معه التّأثير. وإذا كان الاستعراب السوفييتي قد خصّ الأجناس جميعها باهتمامه، فإنّ عنايته بالقصّة

والمرح فائقة، ولا ننسى في هذا المجال كتاب بوتنيسقا المهمّ عن تاريخية المسرح العربي واستمراره الحيّ (ألف عام وعام على المسرح العربي)^(١٠)، على أنّني سأركز في هذا المقال على القصّة العربيّة وحدها.

نجد أنّ مستعربين سوفيت كثيرين قد اشتغلوا بهذه القضية بإحصاء بسيط، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، ومن مختلف الأجيال: عبد الرحمن سلطانوف، وفلاديمير سولوفييف، وشاربا توف، وفلاديمير شاجال، وبوريسوف، ونيكورا، ويوسوبوف، والميرا على زاده، وفاليريا كيربيتشكو، ويونسوف، وميكولسكي، وأولغا فلاسوف، وإيغور يرماكوف.

وأكتفي هنا باستعراض بعض كتابات وآراء دولينا وكيربيتشكو حول تطوّر القصّة العربية كما وردت في الكتب التّالية، على أنّنا سنشير إلى مقالات المستعربين الآخرين كلّما دعت الحاجة:

١. بحوث سوفيتية في الأدب العربي، موسكو ١٩٧٨.

٢. بحوث سوفيتية جديدة في الأدب العربي، موسكو ١٩٨٦.

٣. أبحاث جديدة للمستعمرين السوفيت.

تعكس كتابات هاتين المستعربتين وجهات نظر الاستعراب السوفيت برمّته إزاء قضية تطوير الأجناس الأدبية، ولا سيما الحديثة على وجه العموم، والقصّة على وجه الخصوص.

لقد قدّمت كيربيتشكو للكتابين الأوّل والثّاني، وعرضت في مقالتيها الافتتاحيتين فكرةً موجزةً وسريعةً عن مدرسة الاستشراق الروسية، ثمّ توقّفت ملياً عند الاستعراب السوفيتي منذ قيام الثورة الاشتراكية العظمى حتّى الآن، ولاحظت أيضاً أنّ كراتشكوفسكي كان أوّل عالمٍ أوروبيّ التفت إلى الأدب العربي الحديث؛ حيث وضع في عام ١٩٠٩ دراسةً بعنوان «الرواية التّاريخية في الأدب العربي المعاصر».

وذكرت أنَّ أوَّل ما صدر في العشرينات بالروسية في مجال السرد هو كتاب «الاعتبار» للأمير الشامي أسامة بن منقذ (١٠٩٥ - ١١٨٨) الَّذِي عاصر الحروب الصليبية، وعن طريق هذا الكتاب اطلع القراء الروس لأوَّل مرَّة على لوحة لذلك العصر مرسومة بلغة سلسلة خالية من التكلّف على لسان راوية عجوز هو الكاتب الفارس الصياد.

ثمّ ترجم كتاب «البخلاء» للجاحظ على يد بارنوف واضح أضخم وأفضل قاموس عربي - روسي، وصدر كتاب ضخّم لكرمски بعنوان «تاريخ الأدب العربي الجديد»، والترجمة الكاملة لحكايات ألف ليلة وليلة باللغة الروسية عن الأصل العربي، ونقلها ميخائيل ساليه الَّذِي ترجم أيضاً «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسي، و «وعودة الروح» لتوفيق الحكيم (١٩٣٥)، وقبله بعام، ترجم كراتشكوفسكي الكتاب الأوَّل من «الأيام» لطفه حسين.

وبعد الحرب العالمية الثانية، وبفضل كلثوم عودة - فاسيليفا، وهي من أصل عربي فلسطيني، وتلاميذها، وترجمت عشرات المؤلفات العربية المعاصرة إلى اللغة الروسية. وخلال العقود الثلاثة الأخيرة ترجمت غالبية السير الشعبية العربية كسيرة عنتر، وسيرة بن ذي يزن (ترجمة شدفار وفيلشتينسكي)، وسيرة الظاهر بيبرس (ترجمة كيربيتشكو)، ثمّ ترجمت الأعمال القصصية لأهمّ القصّاصين العرب كنقيب محفوظ، ويوسف إدريس، وتوفيق الحكيم، وعبد الرحمن الشرقاوي، ويوسف السباعي، وحنا مينة، والظاهر وطار، ويحيى يخلف، والطيب صالح، وتوفيق يوسف عواد، وغائب طعمه فرمان، وسواهم. ووصل الاهتمام إلى ترجمة مئات الأعمال القصصية لموجات القصّاصين الجدد في الأفطار العربية كافة، مع الإشارة إلى أنَّ اهتمام الاستعراب السوفييتي حتى مطلع السبعينات كان منصباً على الأدب العربي الحديث في مصر؛ إذ ترجمت باتساع أعمال رواد القصة العربية من مصر، كالأخوين محمّد ومحمود

تيمور، والأخوين عيس وشحاتة عبيد، وطاهر لاشين، وأعمال القصاصين الجدد كيجي الظاهر عبد الله، وجمال الغيطاني، وسليمان فياض، وغيرهم. وتبدي كيريتشنكو تفسيراً لهذا الاهتمام، فتري أنَّ الأدب العربي الحديث في مصر «يشغل مكانته في الطليعة بين البلدان العربية الأخرى، والذي عادت عليه بأعجام لا تدرى مؤلفات أحمد شوقي وطه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحيى حقي ويوسف إدريس، ودراسات الأدباء والنقاد الجادّين المبدعين مثل: سلامة موسى ومحمد مندور ولويس عوض ومحمود أمين».. وتعلل الباحثة سرَّ الإقبال على القصّة العربية الحديثة في الاتحاد السوفيتي، فتجد تقارباً بين الرّوح العربية والروح الروسية، ذلك التقارب الَّذي تحدّث عنه محمود تيمور الَّذي أعجب بالأدب الروسي أشدَّ إعجاب، ولعلَّ السبب يكمن في روعة السرد العربي المتأني الَّذي يباغت القارئ بالتشبيه المدهش والمرادفات المبتكرة، أو لعله يكمن في مستلزمات الفنّ الحيّ هذه وفي كثيرٍ غيرها. مثلما رأت إنسانيّة في هذا الأدب تعنى بمصير الثقافة الوطنية وتجسّد بصدق مشكلات المجتمع والصّراع بين الخير والشرّ، وانتصار الخير في سبيل الإنسان. لقد شارك عثمانوف الباحثة افتتاحيتها، أمّا الثانية فقد شاركها أيضاً ألكسندر كوديلين، وفيها تطرح آراءها بوضوح أكثر وجسارة أكبر، ونكتفي هنا بعرض فكرة الباحثة عن: قومية الأدب العربي الحديث وتطوير القصّة والرواية:

تتوقّف الباحثة عند قومية الأدب العربي الحديث، وتؤكد وحدته وتمائله في القرون الوسطى، والسؤال الآن برأيها «عَمّا إذا كان الأدب العربي سيكون بوسعه على مدى فترةٍ تاريخيةٍ أخرى الحفاظ على وحدته المعززة بجامع اللغة والتراث والمصائر التاريخية، أم أنّه مستقبلٌ شبيهٌ بمصير ونصيب الآداب الرومانية التي خرجت عن الجذر اللاتيني المشترك والتي تطورت إلى آداب

وطنية مستقلة ومنفصلة عن بعضها البعض، مرتبطة بالعدد العديد جداً من العوامل غير الأدبية ومحاولات إعطاء ردّ وحيد المضمون عنه تبدو حالياً غير مجدية».

لا شكّ في أنّ السؤال مطروح، وقد رهنت الإجابة عليه بجهودٍ مشتركةٍ للعلماء المستعربين في شتّى بلدان العالم، على أنّ ثمة استقصاءات لبحوث التحديث إزاء قضايا الأدب العربي. ولا سيّما قضية تطوير التقاليد الأدبية العربية في وحدتها وتجديدها معاً، تؤكّد السيرة الشاملة والجامعة وغير المنفصلة لوحدة تطوّر الأدب العربي وأجناسه، فليس هناك تطوّر قطريّ وحيد لجنسٍ أدبيّ ما.

ولعلّ الباحثة وجدت إجاباتٍ عمليةً مباشرةً لمثل السؤال في استمرار التقاليد الأدبية في ميدان الشعر والسرد، كما في استلهاً عناصر التراث في القصة والرواية، بشكلٍ يعكس تطوّر التفكير التاريخي لدى خالقيه ومبدعيه من الكتاب المنتمين لأجيالٍ شتى. وكان رأي باحث آخر هو ميكولسكي وردت مقالته «سبل تكوين النثر الروائي الفلسطيني: التقاليد والعصر» في الكتاب الثاني مؤيداً لما ذكرته الباحثة في مقالتها «المؤثرات الأوروبية في النثر المصري»؛ إذ يشغل التراث الكلاسيكي محلاً هاماً.

ويُدخل أميل حبيبي لدى استخدام الأساليب التأليفية التقليدية إلى نصّ الرواية شتّى الوحدات التأليفية الأسلوبية، وتسهم المقتبسات المحوّلة من المؤلفين القدامى في خلق عبارات الرواية الحوارية الداخلية، وتلعب المقتبسات غير المحوّلة والعديد من وقائع التاريخ العربي والثقافة القديمة دوراً مهماً في نشر المحتوى وبسطه، ويمثّل التراث الكلاسيكي بالذات ذلك العنصر [الذي] يعيّن خاصيّته الشاعرية في هذا النتاج.

ويأتي اعتراف المستعربين السوفييت بأهمية استمرار التقاليد الأدبية العربية

في السرد الحديث تأكيداً لاستمرار وحدة الأدب العربي من عصرٍ لعصر، فتناول مقالة فلشيتنسكي «مشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي كنموذج للحكاية العربية في القرون الوسطى» بشكلٍ مختصر تاريخ فنّ القصة العربي والطابع الخاص للقصص التي جمعها التنوخي والقائمة على أساس تقاطع التقليد القصصي الشعبي مع تقليد القصة الأدبي لدى الفئات المثقفة.

وجاءت مقالة شيدفار - حول نشوء وأسلوب السيرة الشعبية العربية - إضاءةً للقضايا المعقدة لمنشأ السيرة الشعبية كنوع أدبيّ بنيت فيها عناصر النزعة الأسطورية والفولكلور والأدب الديني، وحلّلت خواصّ أسلوبها الذي كان عرضةً لتأثير التقنية الملحمية للأداء الفنيّ.

يُستفاد من عرضنا السابق لموقف الاستعراب السوفييتي من قضية تطوير الأجناس الأدبية العربية الأمور التالية:

١. درس تطوير الأجناس الأدبية العربية الحديثة على أنّها قضايا ذات أهمية في تاريخ الآداب القومية ترتبط بمضمون العملية الأدبية العالمية وحركتها في المرحلة الراهنة، وبمضمون العملية الفكرية والثقافية والنضالية لأمةٍ من الأمم ولشعبٍ من الشعوب، وفي هذا كُله، تظهر عناية بحوث المستعربين السوفييت بقضية الأصول الأدبية واستمدادها في الأجناس الأدبية الحديثة: النظريات الفنية، الأشكال الفنية، المشكلات الجمالية والمعرفية في رؤية العالم. فدرست الحكايات والسير وبعض أشكال السرد الأخرى، ودرس الثراء الهائل للأدب الشعبي السرد، وجرى تمحيص عناصر القصة الباقية فيها.

٢. العناية بقضية المؤثرات الأجنبية، وبقيمتها الموضوعية ضمن أطرها التاريخية بالنظر إلى دور التراث الثقافي باعتباره من أهمّ العناصر المكونة للنظام الفنيّ العربي الحديث، وتكشف أبحاث فرولوا ودولينينا حول الشعبية والتقاليد والاتجاهات الفنية، عن خصوصية التطور الأدبي للأجناس الأدبية

الحديثة، فالرومانسية العربية تتميز بخصائصها الذاتية في شتى مراحل التطور، عن الرومانسية الأوروبية. ويؤيد هذا التقارب النمطي، أو وحدة التطور للعديد من الظواهر والعمليات التي يستدعيها تشابه الظروف الاجتماعية والتاريخية في البلدان التي تحررت مؤخراً من التبعية الاستعمارية، والتي تملك تراثاً ثقافياً ضخماً ممتد الجذور إلى أعماق الزمن السحيق.

٣. العناية بتكوين الأجناس الأدبية الحديثة ضمن مهادها التاريخي وعملية التطور الأدبي العربي العام، كما في البحوث المتعددة حول قضايا تطور القصة العربية الحديثة على سبيل المثال. ونستكمل عرضنا لموقف الاستعراب السوفييتي من قضية تطوير الأجناس الأدبية العربية الحديثة من خلال مقالات دولينا، وهي:

أ- حديث عيسى بن هشام «خطوات من المقامات إلى الرواية».

ب- عند منابع الرومانسية العربية.

ت- تحقيق الأصول في موضوعات مقامات الحريري وتأليفها.

ث- فرح أنطون وروايته الأخلاقية «الوحش، الوحش، الوحش».

نشير إلى أن دولينا دكتوراة في اللغات والآداب، وأستاذة في جامعة ليننغراد، وأخصائية في دراسة الأدب العربي الحديث، والصّلات الأدبية الروسية العربية، وهي مديرة القسم العربي في مكتبة ليننغراد الشرقية، ولها دراسات عديدة عن الأدب العربي الحديث.

تحلّ دولينا في مقالها الأولى مواءمة التركيب الفني للمقامات بين العنصرين الفلسفي الوعظي والفني، وتطرح مسألة استخدام المويلحي لتقاليد المقامات الكلاسيكية إلى جانب تقاليد القصة الغربية، وتكشف عن الجوانب الإيجابية في كتابه وطابعه التنويري وسخريته الانتقادية من النزعة المحافظة والتقليد الأعمى، ونشير في الوقت نفسه إلى محدودية استخدام أسلوب

المقامات للتعبير عن أغراض العصر.

ترى الباحثة المستعربة دولينا أنّ كتاب المويلحي ظاهرة هامة في تطوّر الأدب العربي الحديث؛ لأنّه أوّل بادرة للأدب الواقعي الجديد، وأوّل أثر أدبي كبير لكاتب مصري اجتمع فيه العنصر الفنّي عفويّاً مع العنصر الفلسفي والاجتماعي، وهذا ما يميّز أدب عصر التنوير.

وتقول لدى عرض محتوى الكتاب وخصائصه الثقافية والفنية:

«ونحن لا نريد أن نلصق من كلّ بد النعوت» بحديث عيسى بن هشام «فيما يتعلّق بالنوع الأدبي الذي ينتمي إليه، ولكننا نرى من الضروري أن نكفّ فيه بوضوح أكبر عن العناصر التقليدية التي تربطه بالمقامات، وعن السمات الجديدة التي جعلت باحثين كثيرين يعتبرونه رواية، وسنحاول في الوقت ذاته تبيان السبب الذي حال دون تطوّر الرواية الواقعية المصرية في طريق تكييف المقامات للمضامين الجديدة».

إنّ الباحثة على حقّ في رأيها الختامي، فقد دلّ نجاح حديث عيسى بن هشام على الصّعيد الأدبي العام في تلك الفترة، ليس على إمكانيّات استخدام المقامة للأغراض العصرية بقدر ما دلّ على محدودية هذه الإمكانيّات، وهذه هي المشكلة بين إعادة المقامات والاستفادة منها في السرد العربي الحديث، ولنا أن نُشير إلى أنّ المقامات صارت فيما تلا من مراحل إلى عنصر في السرد لدى قصاصين كثر فيما بعد كيّاميل حبيبي، وإن لم يضعها قصاصون كثر جانباً حتّى وقتنا الحاضر كالعجيلي وحسيب كيالي.

أمّا المقالة الثّانية «عند منابع الرومانسية العربية» فقد كُتبت بمناسبة صدور كتاب في عام ١٩٨١ يضمّ ترجمة نماذج من النثر الرومانسي العربي، ومثّل فيه إبداع الرومانسيين العرب المرموقين أمثال المنفلوطي وجبران خليل جبران ومي زيادة وغيرهم:

تنظر دولينا إلى الرومانسية العربية باعتبارها اتجاهاً أدبياً مقترناً بالرومانسية الأوروبية والأمريكية، ولكنه تطوّر في فترة زمنية أكثر تأخراً عنهما، وكشف عن صلة أكثر قرباً مع التنويرية مما تجلّى في الآداب الأوروبية، وتلاحظ أيضاً العناصر الواقعية في المؤلفات الثرية للرومانسيين العرب أمثال أمين الريحاني وميخائيل نعيمة، لتؤكد أيضاً ميوعة الحدود ما بين الرومانسية والواقعية، الأمر الذي يتطابق مع ملاحظات باحثي آداب الشرق الأخرى الذين يلاحظون التغلغل المتبادل كالحلول والتنافذ بينها، وكذلك الاختلاط والتمازج فيها لشتى مراحل التطوّر، وهي أكثر انسيابية من حيث الزمن منها في الآداب الأوروبية. وتؤكد الباحثة أنّ الفترة الرومانسية في تاريخ الأدب العربي هي الأكثر سطوعاً وخصوبة، «وقد وقع في نصيب الرومانسيين بالذات القضاء المبرم نهائياً وتاماً على التقاليد البالية، وبتجديد الطرائق المألوفة للأسلوب الكلاسيكي في سبيل الحفاظ على ثراء اللغة العربية الأدبية وجمالها، وما تزال - كما في السابق - قريبة إلى نفوس القراء العرب، أفكار الرومانسيين الوطنية وعنايتهم بتبسيط الضوء على العالم الداخلي لنفس أيّ إنسان كان، بصرف النظر عن انتهائهم الطبقي؛ ولهذا لم يتقادم العهد لحدّ الآن على الدّموع الحار في عبرات المنفلوطي، ولا على الاندفاعات العاطفية في كتابات جبران خليل جبران. إنّ هذا التأكيد حول أهميّة الرومانسية العربية، وخصوصية نشأتها وتطوّرها وخصائصها في تاريخ الأدب العربي الحديث يكشف عن مكانتها الكبيرة في التحديث وفي التّأصيل معاً، تحديث الأساليب الأدبية وتأصيل ظواهر تأليفية وفنية كثيرة، كالتمسك باللغة العربية والاعتزاز بالتراث القومي وتعميق وظيفة الأدب الاجتماعيّة، وهذا كلّه رسخته الرومانسية العربية في منبعها وتطوّرها فيما بعد. على أنّ بحث دولينا «تحقيق الأصول في موضوعات مقامات الحريري وتأليفها» يكشف أيضاً عن جوهر فكرة هذه المستعربة في بحث الأجناس

الأدبية ومكانيات الاستفادة من تقاليدها، فهي ترى أنَّ هذه المقامات من نوع «الفنّ الَّذي يؤمّن مواصلة تطوّر الأدب القصصي العربي، وتتضمّن المقامات انتقادات العالم المعاصر للمؤلف، فالسخرية من حماقة السّدج الَّذين يخدعهم أبو زيد، وهو تحقيقٌ للمبدأ الهزلي السائد في علم الجمال العربي في القرون الوسطى، يُجَدّد الوظيفة التربوية للمقامات إلى جانب النّصائح التي ترد على لسان الأبطال».

تدرس الباحثة صنفين من الموضوعات في مقامات الحريري: هما موضوعات النّصب والاحتيال (في ٣٥ من ٥٠ مقامة)، وموضوعات البلاغة (في الـ ١٥ مقامة الباقية)، وتشير إلى أنَّ هذا التّقسيم شرطيّ بدرجة معيّنة؛ لأنّ العنصر البلاغي متوفّر في جميع المقامات الخمسين، ففي كلّ واحدة منها تكون الذروة عبارة عن حديث البطل الرّئيس المنمق بغزارة نثراً وشعراً.

وتُظهر الدّراسة الإحصائية للمقامات: أنَّ بلاغيتها تتميز بأصناف إنشاء أكثر بساطة، وكأنّها تعوّض بساطتها بحذاقة التّعبير الكلامي عن الفكرة، وفي الوقت ذاته فإنّ مقامات الخداع التي لا تتميز غالبيتها بتعقّد اللّغة أميل إلى البناء الموضوعي والإنشائي الأكثر تعقيداً.

وتصل الباحثة إلى القول: إنّ معطيات بحثها لا تدعم البتّة الرّأي القائل إنّ الشّيء الأساسي في المقامات هو سعي المؤلّف إلى إظهار مهارته الكلاميّة.

إنّما تدلّ على الأرجح على عدم وحدانية وظيفة الفنّ المقامي في الأدب العربي للقرون الوسطى، وغنيّ عن البيان أنَّ الموضوع ومغامرات البطل وتأملاته وردود أفعاله على العالم المحيط به تشغل الحيز الأكبر من مقامات الحريري حول النّصب والاحتيال.

وتختتم دولينا بحثها لمقامات الحريري «بأنها ثمرة عصرها الَّذي كان يتميز بالإعجاب بالعقل البشري، وبالكلمة القادرة على التّعبير عن أدقّ خلجات

الفكرة وأكثرها تنوعاً، حقاً إنَّ السَّعي إلى تزويق الأسلوب يحوّل أحياناً إلى هدفٍ بحدّ ذاته، بيد أن هذه ليست الوظيفة الوحيدة والرئيس للمقامة كفنٍّ أبداً كما تظهر ذلك الأرقام».

أمّا مقالتها «فرح أنطون وروايته الأخلاقية: الوحش، والوحش، والوحش» فتفصح على نحوٍ عميقٍ إيمان المستعربة دولينا بخصوصية تطوّر القصة العربية من خلال تطوّر الفكر التنويري العربي، أي: فكر النهضة بالمصطلح السائد في الكتابات العربية؛ إذ تصرّح في مطلع مقالتها الأنفة الذكر: أن الرواية والقصة القصيرة نهضتا الأدب العربي في تحوّل القرنين التاسع عشر والعشرين من جانب الانجذاب إلى أفكار التحديث الإسلامي وبعث التقاليد التراثية (الميلحي وحافظ إبراهيم وغيرهما)، ومن جانب آخر هو التوجّه نحو أفكار التنوير الأوروبية واستيعاب الأساليب الأدبية الأوروبية (جرجي زيدان، وفرح أنطون، ويعقوب صروف، وغيرهم).

ورأت أن تأثير الفكر الأوروبي الأدبي قد تجلّى بشكلٍ ساطع في أدب فرح أنطون (١٨٧٤ - ١٩٢٣) الذي يمثّل حسب أقوال كراتشكوفسكي طراز الفيلسوف العربي الحديث، مع الاهتمام الغالب بقضايا دينية - فلسفية أكثر منها اجتماعية - اقتصادية، ويفسّر هذا تمسك فرح أنطون - شأنه شأن التنويريين النهضويين من معاصرين - بوجهات النظر المثالية حول دور التنوير، معتبراً إصلاح المجتمع يكون عبر ترقية الشخصية الإنسانية، ومن هنا ينبع اهتمامه الخاصّ بالدور التربوي للأدب، وبالأخصّ وظيفته الأساسية التي تتمثّل - حسب رأي فرح أنطون - بفضح العيوب وتعليم الناس، بينما يضع القيمة الفنية في المرتبة الثانية.

ثمّ تخلص دولينا إلى أن لا ضرورة لدراسة هذه الرواية وفق قوانين تحليل الأعمال الفنية وحدها، فالجانب الوعظي أو الوعظي - الإدراكي يضطلع بدور

هام جداً في الرواية التاريخية لفترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (سليم البستاني، وجرجي زيدان)، وفي الروايات - المقامات (المولحي وحافظ إبراهيم). وتعلل هذا التأثير باستمرار تقاليد الأدب التهذيبي الفنية جداً لدى العرب.

ومن وجهة النظر هذه، يمكن أن نصف الرواية النهضة العربية بأدب القرن التاسع عشر. والحق أن هذه الاستنتاجات تتناسب مع الظروف التي أحاطت بنشأة الرواية نحو التأكيد على وظيفة القصة والرواية بالدرجة الأولى، لقد استخدمت على الدوام العناصر الفنية وطوّعت لصالح الوظيفة التعليمية والتربوية بالدرجة الأولى.

إنّ استعراضنا لموقف المستعربين دولينا وكيربيتشكو من قضية تطوير الأجناس الأدبية الحديثة ولا سيما القصة والرواية، يعكس التعمق الأمين لفهم التطور التاريخي الثقافي والاجتماعي الذي نظر المستعربون السوفييت إلى تطور الأدب العربي الحديث من خلاله، وهذه الأمانة العلمية النقدية في فهم تاريخ الأدب العربي الحديث هي في أساس الفائدة المعرفية والإنسانية للتقاليد الأدبية العربية التي حاول الاستعراب السوفييتي أن يسهم في الكشف عنها وتثمينها لصالح البحث في التطور القومي للأدب العربي الحديث، ووحدة العملية الأدبية العربية المستمرة مستنداً إلى إنجازات الأدب العالمي وثناء الإبداع الخلاق الذي يطوره القصاصون والروائيون العرب من مرحلة لأخرى.

٣. نجيب محفوظ في مرايا الاستشراق السوفييتي:

حسناً فعل القاصّ والنّاقد أحمد الخميسي بإصداره كتاب «نجيب محفوظ في مرايا الاستشراق السوفييت»^(١١)، وهو المقيم في موسكو منذ قرابة ثلاثة عقود من الزمن. فمثل هذه الدراسة تحقّق فيما تحقّقه أمرين: معرفة مكانة الثقافة والرواية العربية في عيون الخارج، وصورة واضحة لما بلغه المستشرقون من

إحاطة وعمق، وهو ما لاحظته الخميس في حالة الاستعراب السوفييتي الذي رَسَخَ تقاليدَه متميِّزاً عن حالات اشتراق أو استعراب أخرى. ويهتم الكاتب بمكانة نجيب محفوظ، كأبرز روائي عربي في الاستعراب السوفييتي ومكانة الأدب العربي بعد ذلك.

يتناول هذا الكتاب ما كتب نجيب محفوظ في الاتحاد السوفييتي، قبل فوزه بجائزة نوبل وبعده: دراسات المستشرقين وردود أفعال الصحافة وما اشتملت عليه الموسوعات الكبرى حول أدينا ومقدمات ما ترجم من رواياته ورسائل الدكتوراه التي أعدها المستشرقون عن العالم الروائي لكاتبنا الكبير.

ويشتمل الكتاب على مجموعة مختارة من المقالات التي كتبها المستشرقون السوفييت، أو عن أعماله، ولا يجمعها في الأصل كتاب واحد. وهناك كتب كثيرة تناول مختلف نواحي الأدب العربي الحديث بالدراسة والتحليل، وتعرض كل تلك الكتب، بدرجة أو بأخرى، لما كتبه نجيب محفوظ وأثره الفكري والأدبي، ولكن الخميس اختار المقالات المكرسة لأدينا الكبير وحده، ومن هذه الدراسات ما كتبه (فالتينا تشير نوفسكايا) تحت عنوان «الانتلجنسيا المصرية في رواية المرايا»، وهي قراءة خاصة وممتعة لرواية المرايا، والدراسة مأخوذة من كتاب لهذه المؤلفة بعنوان «تكوّن الانتلجنسيا المصرية، صدر عام ١٩٧٩ بموسكو عن دار نشر العلم. وهناك بحث مطوّل يتألف من عدة مقالات للمستعربة المعروفة (فاليريا كير بتشكنو) بعنوان: «البحث عن الطريق: دراسة في روايات نجيب محفوظ القصير»، وأخذت الدراسة من كتاب صدر في موسكو عام ١٩٨٧ للمؤلفة بعنوان: «الأدب المصري في الستينات والسبعينات».

ويضم الكتاب عرضاً وافياً لرسائل الدكتوراه التي أعدها المستشرقون في أدب نجيب محفوظ، ونالوا عنها درجة الدكتوراه، وهي خمس رسائل:

- الثلاثية، إبداع الواقعية النقدية، للمستشرق الروسي روشين عام ١٩٦٧.
- الروايات الاجتماعية الأولى لنجيب محفوظ، للسيدة كاش محمد وفا عام ١٩٧٠.

- قضية البطل في روايات نجيب محفوظ، للسيدة أ. ج. ناد عام ١٩٧١.
- رسالة السيدة (لوتس بوراجيفا)، وعنوانها: الروايات التاريخية في أدب نجيب محفوظ عام ١٩٨٦.
- تنامي النزعة المعادية للبرجوازية في أدب نجيب محفوظ، للسيد علي زاده زاردوشت عام ١٩٨٦.

ويشير الخميسي إلى أنَّ ثمة رسائل دكتوراه أخرى كتبها الباحثون العرب في جامعات الاتحاد السوفيتي ومعاهده، ولكنه تجاهلها لوقوعها خارج نطاق الاستشراق.

وفي عرض الخميسي مقدمته الطويلة لكتابه للمقدمات المكتوبة لروايات نجيب محفوظ بالروسية، وهي مقدمات أشبه بالدراسات النقدية، تتوخى عرض جوانب من تاريخ مصر الحديثة وتاريخ الثقافة فيها، ودور كاتبنا فيها، وتشمل إحدى تلك المقدمات على حوار أجراه (أناتولي أجاريشيف) مع نجيب محفوظ، ولم ينشر إلا بالروسية.

ومن ثم، فإن هذا الكتاب، كما يعترف الخميسي نوع من التجميع والترجمة والعرض، وكان يود لو أسبقه بمقدمة مطوّلة عن تاريخ علم الاستشراق السوفيتي، ولكنه أرجأ هذه المحاولة لوقتٍ آخر؛ لئلا يعطل هذا الكتاب عن الصدور طويلاً.

وأثار الخميسي في مقدمته حول جائزة نوبل الأسئلة التالية:

- هل يستحقّ محفوظ الجائزة بالفعل؟
- هل منحتة الأكاديمية السويدية الجائزة لموقفه السياسي من (كامب

ديفيد) وتأيدته لها؟

- الانطلاقة من موقف نجيب محفوظ السياسي للقول بأنه أديبٌ رجعيّ يدفع للتساؤل: هل تنسخ مواقف الأديب السياسيّة قيمة أعماله الأدبية؟ وفي صياغةٍ أخرى: هل يمكن للأديب أن يكون رجعيّاً وتقدماً في آنٍ واحد؟

ثمّ ننقل هذه الأسئلة المنهجية إلى صياغتها على النحو التالي:

- هل لدينا أدباء عرب يستحقّون الجائزة؟
- هل جائزة نوبل تتويجٌ من الغرب لمن يرضى عنهم من الكتّاب والأدباء.

- ما علاقة الأدب بالجانب الإيديولوجي السياسي؟ والنتيجة هي أنّها أسئلةٌ عامّة وجدت في حالة نجيب محفوظ وسطاً ملائماً للانتعاش والحركة.

وخلص الخميسي بعد تمحيصه لإجاباته عن هذه الأسئلة إلى ما يلي:

وأيّاً كانت الفلسفة التي يعتنقها نجيب محفوظ، وآراؤه عن طرق حلّ الصراع العربي الإسرائيلي، فإنّها لن تمسّ ما قدّمته عبقرية العين الموضوعيّة للفنان الكبير من نماذج فنية واقعية، ومن تصويرٍ للحالة الفكرية للمثقفين على مدى نصف قرن، ولن تمسّ دوره، وهو دورٌ كبير، فقد أرسى نجيب محفوظ دعائم الرواية العربية الحديثة، وأغناها بنوعٍ لم تكن تعرفه، وهو الرواية الملحمية، وأقام أشكالها المختلفة، فكتب الرواية التاريخية، والاجتماعية، والفلسفية، والنفسية، وبلغ بمنهجه الواقعي ذرى لم يعرفه الأدب العربي من قبل، وجمل لغتنا، ودافع عن النظرة الموضوعية للعلم، والرؤية العقلانية والديمقراطية، وعكس على مدى نصف قرن انكسارات الانعطافات الاجتماعية في وعي المثقفين العرب في مصر.

ووجد الحميسي من هذا التّقيّم مكانة نجيب محفوظ تسويغه للاهتمام الكبير لأدينا في المجتمع السوفيتي. وإنّ الطّغيان الإيديولوجي أو النّظري في فهم الأدب هو الغالب على دراسات المستعمرين السّوفييت، ولكنّ رياح التّغييرات تظهر جليّة في دراسة (كيريتشكو) الصّادرة عام ١٩٨٧، ويكشف هذا المقطع عن أسلوبها كلّها، وعن مدى الانفتاح والعمق الّذي صارت إليه دراسات المستعربين السّوفييت:

«لقد استطاع نجيب محفوظ في حدود رؤيته الفكرية والفلسفية للمجتمع والإنسان والعالم أن يطرح في نماذج رائعة العديد من القضايا الإيديولوجية التي أضنت الإنتلجنسيا المصرية، وأن يُقدّم الحلول الجزئية لتلك القضايا، كما خاص جدلاً فكرياً جاداً مع الفكر الإسلامي السّلفي، الدّاعي إلى التّواكلية، والقائل بأنّ الإنسان مسير في حياته، وخاض أيضاً جدلاً فنياً وفكرياً مع القائلين بأنّ الوجود عبث، وقام في رواياته بعملية مسح اجتماعي فنيّ للواقع المصري، قلّما يستطيع أديب أن ينهض بها، ومن هذه الرّواية فإنّه يذكّرنا بالعمالقة الكبار: ديكنز وبلزاك».

لقد عومل نجيب محفوظ في المجتمع السّوفييتي منذ بداءة الاهتمام به في السّتينيات على أنّه أحد ممثلي الواقعية التّقديّة الكبار في عالمنا المعاصر، ودخل اسمه مع أهمّ الشخصيات الأدبية والسّياسية في العالم في أكبر موسوعتين سوفيتيتين قبل فوزه بجائزة نوبل بزمّنٍ طويل.

ويُشير ثبت المترجم من رواياته إلى تعزيز هذا التّقدير؛ إذا ترجمت روايات نجيب محفوظ إلى أغلب لغات الدّول الاشتراكية، وترجمت إلى الروسية رواياته التالية: اللص والكلاب عام ١٩٦٤، السّمان والخريف ١٩٦٥، حبّ تحت المطر ١٩٧٥، ميرامار ١٩٧٥، المرايا ١٩٧٩، وغيرها..

قرّرت دار رادوجا للأدب الأجنبي، بعد فوزه بجائزة نوبل، أن تُصدر كتاباً

يضمّ مختاراتٍ من رواياته، بالإضافة إلى ترجمة روايته الكبرى: (أولاد حارتنا) التي ما زالت ممنوعة في مصر. أمّا مقدمات رواياته المترجمة إلى الروسية فتحصر في مقدمتين:

الأولى: كتبها ستينوف عام ١٩٧٥ لكتاب جمع ترجمة ميرامار، وحبّ تحت المطر.

والثانية: كتبها أجاريشيف عام ١٩٧٩ لترجمة المرايا، وتشتمل على حوارٍ مع محفوظ لم ينشر إلا بالروسية.

وما عدا ذلك، فإنّ اللص والكلاب الصادرة ١٩٦٤ سبقتها مقدمة مطوّلة للشاعر الراحل جيلي عبد الرحمن (السودان)، وهو من أهمّ الشعراء العرب، ومقيم في موسكو آنذاك، أي: أنّها بقلمٍ عربيّ، فلا تدخل في الاستشراق. ومن الملاحظات الذكية في هذه المقدمات، ما كتبه أجاريشيف:

«من ناحيةٍ أخرى، فإنّنا نرى في المرايا تقاليد كتب الأخبار العربية القديمة، وهي كتبٌ كانت تجمع سير حياة النّاس والشّخصيات الهامة، مثال ذلك: كتاب أبي حيان التوحيدي (القرن الحادي عشر)، الذي جمع فيه ذكرياته لمن عاصره من الشعراء والمفكرين الذين عرفهم، وفي كتاب أبي حيان - كما في مرايا محفوظ - عرضٌ للمشكلات والقضايا الهامة الفلسفية والفكرية والسياسية للعصر، وبينما يخفي نجيب محفوظ وجوه أبطاله الحقيقية بأقنعةٍ فنيّةٍ، فإنّ أبا حيان يتحدث عنهم بأسمائهم الحقيقية وتواريخ حياتهم الفعلية».

وتوقّفت (شيرنوفسكايا) عند رواية المرايا نفسها ملياً في كتابها (تكوّن الانتجلنيسا المصرية) الصادر عام ١٩٧٩، وتقول بعد تحليلها المعمّق للرواية: ونلاحظ في ذلك المجال، أنّ أبطال نجيب محفوظ التّقدّمين جميعاً هم مفكرون يعتقدون آمالهم على حيويّة الدّوائر المثقّفة في العاصمة: الطّلبة أساساً ثمّ الموظفين، ولكنّهم لا يعتقدون آمالهم على الجماهير الشعبيّة، ولهذا يقتصر

نشاطهم السياسي على المنظّمات السّرية المعزولة. ولعزلتهم عن الجماهير، فإنّهم يرتكبون ويضطربون عشية الثورة عام ١٩٥٢.

من الواضح، أنّ الاستعراب السوفييتي قد وجّه جهده الأساسي لنقد فكر نجيب محفوظ وتحليلاته الاجتماعية اتفاقاً مع التّطبيق الماركسي اللينيني للأدب والفن، متجاهلاً إلى حدّ ما التّفكير الأدبي بالتّقنية والصنعة والتركيب الفني، ولا ترد مثل هذه الاهتمامات النّقدية إلّا في السنوات العشرة الأخيرة. أمّا الدراسات المقارنة حول أدب نجيب محفوظ فالإشارات إليها أقل.

إنّ عناوانات ما كتب عن محفوظ تعكس بوضوح هذا التّزوع إلى دراسة موضوع روايات نجيب محفوظ بالدرجة الأولى، وثمة ملاحظة أخيرة، هي أنّه لا يوجد كتاب شامل عن مسيرة نجيب محفوظ الأدبية والروائية، كما يكشف عن ذلك كتاب الخميسي.

إنّ كتاب الخميسي (نجيب محفوظ في مرآة الاستشراق السوفييتي) تعبيرٌ بالغ الدلالة عن الشّأو الذي بلغه الاستعراب السوفييتي في تعزيز حوار الثقافات بروح الأصالة واحترام العربي على أنّه وثيقة حيّة عن الإبداع العربي في هذا الزّمن في عيون الآخرين.

٤. الأدب الجزائري في مرآة الاستشراق الروسي:

وننظر في نموذج آخر، هو الأدب الجزائري في مرآة استشراقية روسية^(١٢)، فقد جمع عبد العزيز بوباكير من مصادر مختلفة مقالاتٍ لمستشرقين روس عن الروائيين والقصاصين: مولود فرعون، مولود معمري، ومالك وحداد ومحمد ديب، وكاتب ياسين والطاهر وطار، وعبد الحميد بن هدوقة، ورشيد بوجدرّة، ثمّ ترجمها، وقدم لها وأرفقها بقائمة أعمال هؤلاء الكتّاب، وهم من أبرز الكتّاب الجزائريين المعاصرين. ويثير الكتاب الجدل حول تحوّل الاستشراق الرّوسي في راهنيته - أيضاً - إلى تنمية الحوار الحضاري من خلال عنايته بقضية تطوير

الأجناس الأدبية والقيم الوطنية في الوقت نفسه، وفي مقدّماتها: قيم الحرية والدفاع عن الوطن وإرادة الاستقلال.

عُرِفَت الإبداعات الثقافية والفكرية الجزائرية في روسيا على نحوٍ مبكّر بفضل حركة الترجمة والبحث، وصدر كتاب (ثقافة الجزائر المعاصرة) عام ١٩٦١، ممّا مهّد لتنامي اهتمام النّقد الروسي بالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية؛ لغلبته على المكتوب بالعربية، ثمّ توسّع الاهتمام إلى الأدب المكتوب بالعربية منذ أواخر ستينيات القرن العشرين إلى اليوم. وعدّ النّاقّد والباحث فيكتور بلاشوف أوّل من التفت في روسيا إلى الأدب الجزائري، وأوّل من وجّه أنظار كوكبة من الباحثين والطلبة نحو هذا الأدب، وكتب عدّة مقالات عن أعمال الكتّاب الجزائريين، مثل: مالك حداد ومولود فرعون، ودخل الأدب الجزائري بفضل الموسوعة الأدبية الموجزة عام ١٩٦٢.

وشرع المستشرقون الروس بنشر أبحاثهم عن الأدب الجزائري وتطوّره واتجاهاته الإيديولوجية وخصائصه الجمالية - الفنية، وإنّ غلب على هذه الأبحاث النّظر إلى الأدب الجزائري مستقلاً بذاته أو ضمن بحوثٍ متعلّقة بتطوّر الأدب في منطقة المغرب العربي، أو جزءاً من السّيرورة الأدبية في القارة الأفريقية.

وأسس لهذه الدراسة الشاملة للأدب الجزائري في روسيا المستشرقات: إيرينا نيكيفوروا وسفيتلانا وبراجوكينا وغالينا جوغا شفييلي حفية ستالين. وقد وضعت الأولى كتبها: الرواية الجزائرية المعاصرة ١٩٦٧، وأدب النّهضة الوطنية ١٩٦٨، والرواية الأفريقية، ومنها الرواية في المغرب وتونس والجزائر ١٩٧٧.

وسجّلت الباحثة ملامح الفن الروائي الجزائري وخصائصاته عن مبدعيه، مثل محمّد ديب، وتعبيره في روايته (من يذكر البحر)، عن رؤيةٍ جديدةٍ للعالم

وطريق جديدة للكتابة، ورأت في إبداع مالك حداد طفرةً جديدةً في الرواية الواقعية الجزائرية. وذكر القليل عن الرواية العربية في الجزائر، وعدت رواية (ريح الجنوب) لابن هدوقة رواية تنويرية.

وكانت برجوكينا الأكثر عناية بالأدب المغربي ولا سيما الجزائري في كتبها: (أدب بلدان المغرب المكتوب بالفرنسية ١٩٧٣، وبلدان المغرب: الكتاب المعبرون بالفرنسية في الستينيات والسبعينيات ١٩٨٠، وحدود الثقافات - حدود العصر ١٩٨٤^(١٣)). وترجم بوباكير العنوان: (تحوم عصرين - تحوم ثقافتين)، والكتاب الأخير هو الأهم؛ لانطلاقته من تقدير الأدب الوطني الجزائري ومكانته الفنية العالية في الحوار الحضاري، فقد اهتمت هذه الباحثة بإجلاء مواقف الكتاب وعقائدهم الجمالية. وحللت في الأجزاء الخاصة بالأدب الجزائري مؤلفات رشيد بوجدره ونبيل فارس، مبرزة الخصوصيات المميزة لتطور الأدب، وكاشفة عن اشتراكه من الناحية التصنيفية بالسيرورة العامة لتطور الأدب العالمي. ولا يفوتنا هنا التنويه بأهمية كتابها الثالث: (تحوم عصري - تحوم ثقافتين)، والذي صدر عام ١٩٨٤، فهذا الكتاب يحمل طابعاً تعميمياً، ويمثل عصارة اهتمام الباحثة بتطور الأدب المعبر بالفرنسية في منطقة المغرب العربي، وهو يحمل نظرة جديدة مستندة إلى معلومات استعملت لأول مرة في نظرية الأدب في روسيا؛ لإبراز خصوصية تصنيف الأدب في منطقة متجانسة تاريخياً وحضارياً، هي منطقة المغرب العربي. وأولت الباحثة اهتماماً خاصاً لمراحل تشكّل الثقافة الوطنية في أحشاء المجتمع الاستعماري، وفي مرحلة الكفاح المناهض للاستعمار، وتطور السّيرورة الأدبية بعد نيل الاستقلال. كما درست سفيطلانا براجوغينا في هذا الكتاب مغزى توجه الأدباء في الجزائر وتونس والمغرب إلى نموذج السّيرة الذاتية في الرواية، وارتباط بحوثهم الفنية بتطور الوعي الوطني وبالتحوّلات الاجتماعية. وأفردت قسماً مهماً من كتابها

لبحث مفهوم الهوية في إبداع الكتّاب المغاربة، وطرق حلّهم لصدام الشرق والغرب، ولقاء الحضارات.

وخلصت (براطوكينا) إلى النتائج التالية:

- استقرار العلاقات التصنيفية رغم تنوع الأشكال بسبب استعمال لغة واحدة (الفرنسية) وتشابه إيديولوجية الكتّاب.

- مقارنة الظواهر الجمالية المشتركة تدلّ على تشابه تطوّر نوع رواية السيرة الذاتية في النثر والمغربي.

- تميّز تطوّر المنهج الأدبي بنوع من التركيبية، نتيجة لاستيعاب التيارات والاتجاهات المختلفة في الأدب العالمي.

- إخضاع عناصر الفولكلور الوطني إلى مبادئ الأدلجة.

وعنيت جوغاشفيلي بالأدب الجزائري في مؤلفاتها (السحري والواقع في الرواية الجزائرية المعاصرة ١٩٧٥، والرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي ١٩٧٦، وأصول الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي ١٩٨٠، وأدب الجزائر ١٩٨٠). واهتمّت في مؤلفاتها بجمالية الرواية الفرنسية ومشكلة الهوية الوطنية في أعمال الروائيين الجزائريين، وقسمت تطوّر الأدب الجزائري إلى ثلاث مراحل: قبل الحرب، أثناء الحرب، بعد الحرب. ووضعت خصائص كلّ مرحلة من حيث الشكل والمضمون.

وأجمل بوباكير آراء النقاد الروس في الأدب الجزائري فيما يلي:

- عدم التفريق بين الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية والأدب الجزائري المعبر بالعربية، واعتبارهما فرعين من ظاهرة واحدة رغم اختلاف اللغة والوسائل الفنية.

- اعتبار الأدب الجزائري بفرعيه - العربي والفرنكوفوني - إسهاماً رفيعاً في كفاح الشعب الجزائري من أجل الاستقلال وبناء مجتمع جديد.

- مفهوم الأدب الجزائري لا يضمّ أعمال الكتّاب ذوي الأصل الفرنسي أو أدب المتجزئين (كامو، بليغري، رواء، أوديزيو، روبلس، وآخرون..) رغم اعتبار هؤلاء الجزائر موطناً لهم وموضوع إلهامهم.

- إنّ المظاهر الخارجية للأدب الجزائري المعبر بالفرنسية وتشابهه الشكلي مع الأدب الغربي لا ينزع عنه مسألة تعبيره عن القضايا الوطنية وأدائه للمهمّة التاريخية المتمثلة في تحوّلِهِ إلى صوتٍ للشعب الجزائري أثناء نضاله المناهض للاستعمار.

- وجود فرعين لأدبٍ واحدٍ - بالعربية والفرنسية - يدلّ على وجود أصنافٍ مختلفةٍ للوعي الاجتماعي.

ما زالت البحوث الروسية في الأدب الجزائري مستمرة إلى يومنا هذا، وقد اتخذت في الآونة الأخيرة طابع التخصص والتعمّق أكثر في مسائل جوهرية في سيرورة تطوّر هذا الأدب، مثل: التناسب بين التقليد والتجديد والتأريخ لهذا الأدب، ودراسته من الناحية التصنيفية، ومقارنته بآداب أخرى (الآداب المغربية والإفريقية)، وتحليله كأدبٍ موجّه للنخبة وأدبٍ موجّه للجماهير. كما بدأت تظهر المحاولات الأولى لوضع تاريخ عام للأدب الجزائري.

وتبدو هذه الآراء جليّة لدى استعراض الدراسات حول هؤلاء الروائيين والقصاصين المميزين، فذكرت براجوكينا في دراستها عن مولود فرعون أنّ العبرة من مصيره هي درس مواطن وممثل أُمّة، أدرك في وقتٍ حاسم من تاريخها أنّ واجب الكاتب وواجب المواطن هما كلّ لا يتجزأ. وانتقل في هذا الطّرف بالذات إلى خطّ النار؛ لأنّ الحدّ لم يعد يعني، بالنسبة إليه، التقاء عالين وإمكانية توحيدهما بخطّ الخير والأخوة، لكنّه اكتسب مغزاه الأصلي: نخوم عالين، أحدهما كان عالم المستعمرين، والآخر عالم معذبي الأرض. وبقدر ما كان صعباً على الكاتب القيام بهذا الاختيار، وبقدر ما كان طريق الثورة أبعد وأعقد

بالنسبة إليه، بقدر ما يُرى، بشكلٍ مقنعٍ، بالنسبة للمعاصرين، هذا الدرس في الشجاعة الوطنية.

ووجدت (نيكيفوروا) في أدب مُحَمَّد ديب خلقاً أسطورياً على مثال الغرينقا، كتوريةٍ من أجل تسمية الأشياء التي ليس لها أسماء دقيقة، وكمضمون ما يستند إلى اللاوعي الجمعي، ويصبح ملكية لقابلية التأثير الجماعية الحادة بعد أن يصيغه الفنان بطريقةٍ ملائمةٍ. ومع ذلك، فإنَّ مُحَمَّد ديب لم يستعر ذلك الإحساس بالمأزق المسيطر على روايته، والذي صاغه الفنان طبقاً للمبادئ العامة للمنهج العقلاني في الخلق الأسطوري، من المنبع الجماعي، بل هو نتيجة للميزات الخاصة للمؤلف، والتي برزت في بواكير كتبه. ويتضح أنَّ التحام الكاتب بالمنطلق الجماعي وهم، رغم سعي مُحَمَّد ديب إلى الاحتكاك به على امتداد دربه الإبداعي؛ ذلك أنَّ المؤلف يبتعد عنه حينما يعتقد أنَّه قريبٌ منه.

وحللت (جوغاشفيلي) الجانب الرمزي في رواية (نجمة) لكاتب ياسين، وكشفت بنيتها العميقة: الجانب الأول المادي، ويخص تقاليد المقاومة عند كلِّ البلوتين، والذي انعكس في وقائع حقيقية في حياة الأبطال الأربعة للكتاب. ابتداء من انفجار الاحتجاج العفوي: قبل مراد لريكار، الغني السادي، وصفعة لخضر للسيد ارنست، مسؤول ورشة البناء، وانتهاءً بالمظاهر الواعية للمقاومة المنظمة. مشاركة رشيد في تنظيمات وطنية مختلفة، ولحضر ومصطفى في مظاهرات ماي ١٩٤٥ بسطيف.

وأخيراً الجانب الآخر، وهو رمزي فلسفي، ويخص الحبَّ القاتل للرفاق الأربعة لنجمة، التي هي ليست امرأة فاتنة فحسب، وإنما هي رمز للوطن الرائع والمعذب، بتاريخه البسيط والمأساوي على حدٍّ سواء.

وأتفق ستيبانوف مع النقاد على أنَّ الجازية عند عبد الحميد بن هدوقة في روايته الجازية والدرأويش، عملٌ فنيٌّ شعبيٌّ حقيقيٌّ بكلِّ ما تحمل هذه الكلمة

من معنى. وهو يتضمّن مشاهد ساطعة ورائعة، تنقل روح القرية الجزائرية نفسها بتقاليدها وطقوسها. ما أروع الزّردة ورقصات الدرويش ولحسهم المناجل المتوجهة. وتحوي الرواية - أيضاً - الكثير من الأمثال السائرة والحكم المأثورة والنكت المعبرة الهادفة، التي يعقبها أحياناً هجاء قادح. وتبرز الطبيعة الجبلية الموحشة كخلفية للأحداث العاصفة، وكأثماً شخصية قائمة بذاتها في العمل الفني.

وأفصح روبرت لاندا في دراسته لأعمال الطاهر وطار عن دلالات القيم النّضالية؛ إذ تعرّف روايته (اللاز والزلزال) القارئ بالثورة الجزائرية في مختلف مظاهرها، وبمرحلتين هامتين من حياة الجزائر المعاصرة، وبأفكار ومشاعر الشعب الجزائري. وفضلاً عن ذلك تقدمان فكرة عن مكاسب الثقافة الجزائرية، وعن الاندماج النّشيط للأدب الفنّي المعبر بالعربية في حياة الشعب. وحين نفرغ من قراءة الروايتين نتعرّف، بلا شكّ وبشكل أفضل، على العالم الروحي والفني للجزائريين وثقافتهم الأصلية.

وتثير كتابات المستشرقين الروس حول الأدب الجزائري الجدل حول نظرة الآخر الروسي، غير أنّ مقاصد هذه النظرة لا تخفى في تعضيد الحوار الحضاري بين الثقافات.

يتضح من هذا البحث أنّ الاستشراق ينتقل خلال العقود الثلاثة الأخيرة بجلاء إلى الحوار الحضاري، ولاحظنا أنّ الاستشراق الروسي وتطوّراته السوفيتية ثمّ عودته إلى مداراته الروسية، ذو نزعات مبكرة في هذا المجال، فغداً شديد التعبير عن حوار الثقافات والحوار الحضاري.

* * *

الهوامش:

- (١) سالم حميش: الاستشراق في أفق انسداد: ٢١، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط.
- (٢) منذر الكيلاني: الاستشراق والاستغراب، اختراع الآخر في الخطاب الأثروبولوجي في كتاب: صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه: ٨٢، تحرير: الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت ١٩٩٩.
- (٣) محمد نجيب بو طالب: العلوم الاجتماعية والاستشراق: ٤٤٨، صورة المجتمع العربي الإسلامي، مع مواصفات المصدر السابق.
- (٤) إدوار سعيد: الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ٩٨١.
- (٥) رضوان السيد: ثقافة الاستشراق وعلاقات الشرق بالغرب، في مجلة الفكر العربي: العدد ٣١، كانون الثاني - آذار، ١٩٨٣.
- (٦) عدّة مؤلفين: التطور المعاصر للبلدان العربية: ٦، أكاديمية العلوم السوفيتية، موسكو ١٩٨٣.
- (٧) سهيل فرح: الاستشراق الروسي، نشأته ومراحل التاريخ: ٢٥٥ وما بعدها، في مجلة الفكر العربي، مصدر سابق.
- (٨) نجيب العقيلي: المستشرقون ٣: ٨٣، دار المعارف، الطبعة الرابعة الموسعة، القاهرة ١٩٨١.
- (٩) المصدر نفسه ص: ١٠٧.
- (١٠) ترجم الكتاب إلى العربية توفيق المؤذن، وظهر ضمن منشورات دار الفارابي، بيروت ١٩٨١.
- (١١) راجع: طبعة القاهرة ١٩٩٠.
- (١٢) كتاب لعبد العزيز بو باكير تحت عنوان: الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دار القصبة للنشر، الجزائر ٢٠٠٢.
- (١٣) ظهرت ترجمة هذا الكتاب ضمن منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٣، وقام بالترجمة راتب سكر وومدوح أبو الوي.

قيم وحقوق المرأة في الإسلام

نظرة في القيم الإسلامية التي قامت عليها حقوق المرأة

□ د. رقية العلواني (*)

تقديم

يعدّ الوقوف عند مسألة دور المرأة وحقوقها في الإسلام في وقتنا الراهن من أهمّ القضايا الفكرية والحضارية، فقد باتت قضايا المرأة من أكثر الأمور إثارة للجدل، ولم يزل خصوم الإسلام يواصلون هجومهم غير العلمي على الفكر والتّشريع الإسلامي، مدّعين ظلم الإسلام للمرأة وتكريسه لتبعيتها وإهدار حقوقها.

وقد لعب الخلط الحاصل بين ممارسات بعض المسلمين البعيدة عن تعاليم الإسلام - خاصة فيما يتعلّق بالعلاقات الأسرية وحقوق الزّوجة - من جهة، وبين تعاليم القرآن والسّنة النبوية من جهة أخرى، دوراً بارزاً في توجيه سهام النّقد والتّجريح لتعاليم القرآن والسّنة، ومسؤوليتها عن تلك السلوكيات المنحرفة بما تحمله من جور وظلم في كثير من الأحيان.

من هنا تأتي هذه الورقة لإبراز القيم الأساسية التي قامت عليها نظرة

(*) أكاديمية وناشطة إسلامية في شؤون المرأة / مملكة البحرين.

الإسلام للمرأة وحقوقها في تشريعاته.

أولاً: تعريف القيم

تشتق كلمة (القيمة) في اللغة العربية من القيام، وهو نقيض الجلوس، والقيام بمعنى آخر هو العزم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، أي لما عزم.

كما جاء القيام بمعنى المحافظة والإصلاح، ومنه قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]، وأما القوام فهو العدل، وحسن الطول، وحسن الاستقامة.

و(القيم) جمع قيمة، وهي ما يكون به الشيء ذا ثمن أو فائدة، يقول المثل العربي: «قيمة كل امرئ ما يحسنه». وتُشير القيمة إلى الخصلة الحميدة، والخلّة الشريفة التي تحضّ الإنسان على الاتّصاف بها، كحرصه على اقتناء الأشياء ذات القيمة الثمينة والاحتفاظ بها، والقيمة ثمن الشيء الذي يقوم مقامه.

ومفهوم القيمة (Value) من المفاهيم التي يشوبها نوعٌ من الغموض والخلط في استخدامها، وهذا نتيجةً لأنّها حظيت باهتمام كثير من الباحثين في تخصّصاتٍ مختلفة؛ ولهذا اختلف الباحثون في وضع تعريفٍ محدّد لها، ومردّد ذلك الاختلاف يُعزى إلى المنطلقات النظرية التخصّصية لهم، فمنهم: علماء الدين، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع، وعلماء الاقتصاد، وعلماء الرياضيات، وعلماء اللغة.. فلكلّ منهم مفهومه الخاص الذي يتفق مع تخصّصه.

ونرى أنّ القيم: عبارة عن المعتقدات التي يحملها الفرد نحو الأشياء والمعاني وأوجه النشاط المختلفة، والتي تعمل على توجيه رغباته واتّجاهاته نحوها، وتحدّد له السلوك المقبول والمرفوض والصّواب والخطأ، وتتصف بالثبات النسبي.

وتعدُّ الأسرة المصدر الأوَّل في تكوين قيم الفرد واتِّجاهاته، وعاداته الاجتماعية، فهي التي تمُدُّه بالرَّصيد الأوَّل من القيم والعادات الاجتماعية. ويشترك عددٌ من الجماعات الأخرى مع الأسرة في عملية التَّنشئة الاجتماعية، مثل: المدرسة، وثلة الأقران والأصدقاء، والأندية الرِّياضية، والهيئات الدِّينية، والجماعات المهنية، والهيئات السِّياسية... الخ.

ثانياً: تعريف الحقوق

ثَمَّة استعمالاتٌ عدَّة للفظ «الحق»، استعمالاتٌ مثل الحقِّ الَّذي يعني الشَّيء الموجود والثَّابت، أو الكلام الَّذي يُطابق الواقع، أو الوعد الحتميُّ الوقوع... أمَّا في عرف القانون، فالحقوق: الامتيازات والاختصاصات التي تختصُّ بفردٍ أو جماعة، والتي يجب على الآخرين احترامها وعدم الاعتداء عليها. أو مجموعة القرارات التي تجب مراعاتها، سواء أكانت هذه بشكل تعيين امتيازاتٍ للأشخاص، أم بشكل تعيين واجباتٍ وتكاليف تُفرض على الآخرين، أم كانت تبيِّن أحكاماً وضعيَّة، كشروط صِحَّة العقود والاتِّفاقات. وهي بهذا المعنى ترتبط بحقِّ الأفراد أو بحقِّ المجتمع. كما تعني إثبات واجباتٍ متقابلة على جميع الأفراد أيضاً.

من هنا كان الحقُّ والتَّكليف متلازمين، والإقرار بأحدهما يستوجب الإقرار بالآخر. فإذا كان ثَمَّة تكليفٌ مفروضٌ على أحدٍ، فإنَّه يستلزم ثبوت حقٍّ للآخرين، وإذا كان ثَمَّة تعيينٌ لتكاليف على الأفراد جميعاً، فإنَّه كذلك يعني إثبات واجباتٍ متقابلة، وهكذا. فما كان حقُّ لي فهو واجبٌ على آخر، وما كان حقّاً لآخر فهو واجبٌ عليّ.

ثالثاً: مقاصد الرُّؤية الإسلاميَّة للحقوق والواجبات

لقد جعل الشَّارع حياة الإنسان - رجلاً كان أم امرأة - غايةً عظيمةً ومقصداً

أسمى، متمثلاً في توحيد الله واستخلافه للإنسان لإعمار هذه الأرض وإصلاحها وعبادة الله من خلال القيام بهذا الدور. وتقوم الرؤية الإسلامية لحقوق الإنسان عامّة على هذه المنطلقات، فما هي مقاصد الرؤية الإسلامية من إبراز حقوق المرأة والحديث عن واجباتها؟

- التّوحيد الَّذِي يمثّل رؤية الكون ومناهج التّفكير ومسالك التّفاعل الاجتماعي لكلّ الأفراد في المجتمع.

- الاستخلاف، وهو مبدأ يعتمد على قيام الإنسان بخلافة الله في الأرض، وتسليمه بضرورة إعمارها والمساهمة بإقامة البناء الحضاري عليها. ويستتبع ذلك تكليف الإنسان بضبط حركته وفق المنهج الإلهي الثّابت الَّذِي يُحدّد رؤيته وتصوّراته لطبيعة الدور الَّذِي يقوم به في الكون. فالإنسان مكرّم بنصّ القرآن الكريم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. فأمانة الاستخلاف ملقاة على الرّجل والمرأة معاً، وهما مكلفان بالمسؤوليّة عن طبيعة وجودهما الإنساني على الأرض.

- السّنن التي أودعها الله في الكون والأنفس ليستقيم نظام الخلق على هذه الأرض. وهذه القوانين تحكم نوااميس الطّبيعة والإنسان والمجتمع، ولكنها في الإنسان والمجتمع ليست جبريّات ولا حتميّات، بل هي قائمة على اختيار الإنسان وقدرته على التّمييز بين الخطأ والصّواب. ومن هذه السّنن: اختلاف الطّبيعة الأنثويّة عن الذّكريّة بما يكفل تكامل أدوار كلّ منهما. وأيّة مصادرة لهذه السّنن أو محاولة لتجاوزها، ستؤدّي إلى خلق نوع من الفوضى العارمة التي يمكن أن تُهدّد الكيان البشري وبقاءه على هذه الأرض. إنّ غياب استحضار هذه المقاصد الهامّة يمكن أن يؤدّي إلى عدم التّفارقة بين الرؤية الإسلامية لحقوق المرأة عن غيرها من الرّؤى كالغربيّة مثلاً، التي ترى كثيراً أنّ استغلال الرّجل

للمرأة يُشكّل أحد أبرز أشكال الصّراع الاجتماعي في عالمنا المعاصر .
وقد ظهرت آثار ذلك جليّة في انتقال حركة تحرير المرأة في الغرب من المطالبة بالمساواة إلى ما يُسمّى بالأنثويّة أو التّمرّكز حول الأنثى، التي شكّكت في مضمون الذّكورة والأنوثة، وتأكّدها على ارتباطها بالثقافة والتّنشئة، وليس القدرات والإمكانات، وطرحها لمفهوم الأمومة ونقدها لمفهوم الأبوة ودعوتها إلى الثقافة الأنثويّة المستقلّة، ورفعها لشعارات الصّراع بين الجنسين.

رابعاً: القيم الإسلاميّة الحاكمة لحقوق المرأة وواجباتها

تتمحور الرّؤية الإسلاميّة لحقوق المرأة حول عدّة أمور أبرزها: العدالة، والحرية، والمساواة.

- المساواة:

البشريّة في عمومها أسرةٌ واحدةٌ ترجع في أصل خلقتها ونشأتها إلى نفسٍ واحدةٍ هي نفس آدم عليه السلام أبو البشر. وقد قرّر القرآن الكريم هذا المبدأ في مفتتح سورة النساء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

من هنا جاءت نصوص القرآن الكريم والسّنة النبويّة موجّهةً إلى إحياء الشّعور بالتّعاطف الأخوي الإنساني، مؤكّدة وشائج التّرابط النّسبي بين أفراد الإنسانيّة في شتى الأزمنة والعصور بما يدعم ذلك التّرابط والتّعاون المسوق إلى تبادل المنافع والخير، وتحقيق المحبة والوئام للبشريّة أجمع.

كما قرّر القرآن الاختلاف كحقيقة إنسانيّة طبيعيّة، وتعامل معها على هذا الأساس. فالإنسانيّة واحدةٌ، وقد خُلقت من نفسٍ واحدةٍ. وهذه الوحدة ليست في الأصل فحسب، بل في الهدف كذلك، وهو التّعارف.

والغاية من التَّقْسِيمِ إِلَى شعوبٍ وقبائلٍ إِنَّمَا هِيَ التَّعَارُفُ لَا التَّخَالُفَ، والتَّعَاوُنُ لَا التَّخَاذُلَ، والتَّفَاضُلُ بالتَّقْوَى والأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ التي تعود بالخير على المجموع والأفراد، والله تعالى ربُّ الجميع يراقب هذه الأخوة ويرعاها، وهو يطالب عباده جميعاً بتقريبها وصيانتها، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأكد النَّبِيُّ الكريم هذه المعاني طوال فترة حياته قولاً وعملاً، وفي الخبر عن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة أَنَّهُ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِيبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاضَمَهَا بِأَبَائِهَا، فَالْنَّاسُ رِجَالَانِ: بَرٌّ تَقِيَّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ»^(١).

فليس ثمة شرعية لتعصُّبٍ قوميٍّ أو تمييزٍ عنصريٍّ أو عرقيٍّ. وعلى هذا ألغى الإسلام كُلَّ مصادر الفرقة والحقد والخصومة والنزاع بين النَّاسِ من أيِّ دينٍ كانوا، وكانت السَّيرة النَّبَوِيَّةُ تطبيقاً لهذه المبادئ.

هذه الوحدة تقوم على الاختلاف والتنوع، وليس على التَّماثل والتَّطابق، وإظهار الوحدة في التنوع ودعوة النَّاسِ إِلَى التَّعَارُفِ هُوَ غَايَةُ هَذَا الاختلاف؛ ذلك أَنَّ الاختلاف آيةٌ من آيات عظمة الله، ومظهرٌ من مظاهر روعة إبداعه في الخلق. يقول القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَبَائِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الرُّوم: ٢٢]. واختلاف الألسن واللُّغات المشار إليها في الآية لا يعني اختلاف اللُّهجات كوسائل للتخاطب والتَّفاهم والحوار فحسب، بل ينصرف إِلَى ما تتضمنه تلك اللُّغات والاختلاف في اللُّهجات من معاني وأفكارٍ وتصورات.

ويتمتع كُلُّ مواطن بهذه المساواة أمام القانون، وهو أمرٌ ربانيٌّ لا يحتمل مساومةً، يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا أَلْمَنَتَ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ

بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ [النساء: ٥٨]. وهذه الآية الكريمة تأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، مسلمين أو غير مسلمين، كما تقضي بأن يلتزم العدل في الحكم بين الناس كلهم، دون تمييز بسبب اختلاف الدين، أو العنصر، أو الثقافة، أو الجنس، أو اللون. والمؤمنون مأمورون ديناً أن يكونوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، فلكل مواطن الحق في التملك والإرث والبيع والشراء..

وجاء في القرآن الكريم أيضاً: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ٧١]. وهذا يؤكد على أن الحياة العامة تحكمها الرابطة الإيمانية في إطار الأمة، وأن المساواة بين الإثنين هي الأصل، وتتمثل المساواة في القيمة الإنسانية والحقوق الاجتماعية والمسؤولية والجزاء، وهذه المساواة تتأسس على وحدة الأصل ووحدة المال والحساب يوم القيامة. أما ما ورد من استثناءات على هذه القاعدة، فمرده إلى اختلاف الإثنين في بعض الخصائص التي تخدم تكاملهما في تحقيق الاستخلاف الذي يظل هو الإطار الضابط للمساواة بينهما وفق المفهوم القرآني.

فالمرأة والرجل يتساويان مساواة كاملة في المسؤولية الإنسانية بوصفهما من أصل واحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفَاؤُكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، إلا أنها مساواة تكامل، وليست مساواة تطابق؛ لأن لكل واحد منهما خصائصه التكوينية المختلفة عن الآخر.

وفي آية أخرى يؤكد الله ﷻ هذه المسؤولية ويربطها بالصالح الذي هو

أساس العمل الجادّ المكلف به الرّجل والمرأة على السّواء، وذلك في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١١١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۝١١٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ۝١١٣﴾ رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝١١٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۚ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُلًّا لَهُمْ جَنَدَتِ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا لَا تَهْلِكُ نَوَابِإٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ۝١١٥﴾.

ففي هذه الآيات حُدّد الهدف والغاية من الوجود الإنساني المتمثل في تحمّل الأمانة بتوحيد الله وعبادته دون سواه. كما حدّدت الآيات أَنَّ العمل الصّالح بمختلف مستوياته وأنماطه عبادةٌ يُثاب عليها المرأة والرّجل، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

من هنا فإنّ قيمة المساواة في الرّؤية الإسلاميّة تختلف تماماً عن نظيرتها في الفكر الغربي التي قامت على أساسٍ مغايرٍ تماماً، يفترض فكرة الصّراع بين الرّجل والمرأة، وهو ما ظهر بوضوحٍ في الحركات النسائيّة الرّاديكاليّة في الغرب اليوم.

من هنا فإنّ الإسلام يراعي الحقوق من حيث اهتمامه برعاية الواجبات، فكلُّ حقٍّ للإنسان هو واجبٌ على غيره، وينادي بتكريم المرأة والتّرفّع بها، ومنحها الحقوق والمكانة التي تؤهلها لمشاركة الرّجل في بناء الحياة، والتّعبير عن إنسانيتها على أسسٍ إنسانيّة رفيعة.

وعليه: يمكن القول بأنَّ الإسلام وضع المرأة في مكانها الطبيعي من حيث الإنسانية والتقدير والمنزلة، وعدم اختلافها عن الرجل إطلاقاً، كما أنَّ ما منحه من حقوق لم يكن نتيجة مؤثرات خارجية أو ثورات اجتماعية واقتصادية أو أزمات سياسية وصراعات مسلّحة أو أدوار جديدة مارستها المرأة. وعلى الرغم من أنَّ الإسلام قد جاء ليؤكد وحدة الجنسين وانبعاثهما من نفس واحدة بحيث يتساويان مساواة كاملة في كرامتهما الإنسانية، إلا أنَّ الثقافات الشعبية في كثير من المجتمعات - كما هي الحال في المجتمع العربي - ظلّت تنتقص من قدر المرأة، وتجعل من طبيعة شقيقتها الرجل الأنموذج المثالي الذي يتم الاحتكام إليه كمعيار أساسي في تحديد ما هو محبّد من خصائص وسمات ينبغي أن تنسحب أيضاً عليها؛ حتّى تكون أهلاً لوصفها بالسواء والطبيعة والاكتمال.

- العدالة:

تقتضي قيمة العدالة الحاكمة أن يعطي كلّ ذي حقّ حقه، بصرف النظر عن الموافقة في الدين أم لا. وقد أمر الله المؤمنين أن يلتزموا بهذا المعنى للعدالة، وأن يطبقوه، قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓى اَلَّا تَعْدِلُوْا اَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ [المائدة: ٨].

والعدل والإنصاف منهج دقيق يُمثّل جميع صور القسط والعدل مع القريب والبعيد، المخالف والموافق، دون تمييز بين مسلم أو غير مسلم، بل ينهى عن جميع صور الجور والظلم مع كلّ أحد. فمبدأ الظلم محرّم بكلّ حال، فلا يحلّ لأحد أن يظلم أحداً مهما اختلف معه أو عنه.

وقد أرسى القرآن معالم هذه العدالة وصورها حين خاطب المرأة مع الرجل بتعاليم الإسلام وتكاليفه وتشريعاته، سواء فيما يرتبط منها بمسائل شخصية كالزواج والطلاق، واكتساب المال، والتصرّف فيه، أو ما يتعلّق بالشؤون العامة

كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها.

وثمة إجماع بين علماء الأصول والتفسير والفقه على أن خطاب التكليف يستوي فيه الرجال والنساء، بل قالوا بأن النصوص الإسلامية التي يوجه فيها الخطاب للرجال هي في ذات الوقت موجهة للنساء أيضاً، في كل الأحكام والتكاليف والعظات، ما لم يأت ما يُقيّد الخطاب، أو ما لم يُصرّح في الخطاب بأنه خاص بالرجال دون النساء أو العكس.

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: «كنت أسمع الناس يذكرون الحوض، ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ، فلما كان يوماً من ذلك والجارية تمسطني، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: أيها الناس، فقلت للجارية: استأخري عني، قالت: إنما دعا الرجال ولم يدع النساء، فقلت: إني من الناس...»^(٢).

وفي الحديث: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه نُعلّمنا بما علّمك الله. فقال: اجتمعن في يوم كذا وكذا، في مكان كذا وكذا. فاجتمعن فأتاهن رسول الله ﷺ، فعلمهن بما علّمه الله»^(٣).

وفي إطار هذه العدالة المقررة في الخطاب القرآني والسنة النبوية، وفي إطار المسؤولية الإنسانية والاجتماعية والسياسية، يأتي تأكيد ﷺ ليقرر هذه الحقيقة من خلال قوله: «إنما النساء شقائق الرجال»^(٤)؛ ليكشف عن مطلق وعمومية المساواة والعدالة التي تقتضي المشاركة في تحمل المسؤولية أمام الله عز وجل، وأمام نفسها ومجتمعها وأمتها، وليس مخ مفاهيم الآيات الكريمة التي وردت في اعتبار المرأة مكّملة للرجل، وهو مكّمل لها.

فهذه النصوص تؤكد أنه لا مجال لتقليص نشاط المرأة أو عملها المنضبط بضوابط الشرع المعروفة إذا رغبت فيه، وكانت لها القدرة عليه، ضمن حدود الشرع وآدابه المعروفة، واحتياجات أسرتها والمجتمع الذي تعيش فيه.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

فللمرأة شخصيتها المستقلة، وحضورها الواعي في كل مجالات الحياة العامة والخاصة، والتزامها بحدود الله والآداب الشرعية، سواء كان ذلك في قرارها في بيتها تقوم برسالة أمومتها، أم في العمل المهني بما لا يتعارض مع مسؤوليتها الأسرية ورسالتها الأصلية؛ حيث شاركت في الإفتاء والتدريس والرواية والتّمرّيز والزراعة وغير ذلك من شؤون الحياة.

من هنا قدّم القرآن الكريم المرأة الصّالحة مثلاً عملياً للرجال والنساء، وطالبهم بالاعتداء بها، جاء ذلك في قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ الْفَأْزِقِ الَّذِي كُنْتُ مِنَ الْفَاقِمِينَ﴾ [التحریم: ١١]، الأمر الذي يبرز مفهوماً حضارياً إيمانياً فريداً في عالم الفكر والحضارة الخاصّ بالمرأة الصّالحة؛ فقد جعلها مثلاً أعلى، وقدوة للرجال، كما هي قدوة للنساء في الإيثار والموقف الاجتماعي والسياسي والأخلاقي.

كما سجّل القرآن دور المرأة في حياة الأنبياء ﷺ ودعوتهم، ومشاركتهم لهم في الهجرة والجهاد، مقروناً بدور الرجل، عند حديثه عن الهجرة والبيعة والدعوة والولاء، واستحقاق الأجر والمقام الكريم، وعلاقة الرجل بالمرأة.. في عددٍ هائلٍ من الآيات والنصوص التي لم تفرّق بين الرجل والمرأة في حمل الأمانة والمسؤولية والجزاء عليها.

فالمرأة والرجل في مفهوم رسالة الإسلام يوالي بعضهم بعضاً، ولأى عقائدياً، يقومون بإصلاح المجتمع، ومحاربة الفساد والجريمة والانحطاط، ويحملون رسالة الخير والسلام والإعمار في الأرض، وهذا منتهى العدل بين الناس.

- الحرّية:

تنبثق قيمة الحرّية من القيم الأخرى الحاكمة في القرآن الكريم، وتقوم على أساس الاعتراف بحرّية البشر الفطريّة، فالنّاس أحرارٌ، واستلاب الحرّيات بكافّة صورها أمرٌ طارئٌ حادثٌ، بحكم النزعات العدوانيّة، والرّغبة في السّيطرة على الآخرين، وتحقيق مصالح محدّدة، إلّا أنّها حرّية منضبطة بقيم العدل والمساواة والأخلاق.

والحرّية شرط التّكليف، وهي الأسلوب الاحتجاجي الذي كان يستخدمه القرآن حتّى مع كفّار قريش؛ حيث عرض حجّتهم بمنتهى الموضوعيّة، وجعلها على النّصف من حيث القيمة الاستدلاليّة، كما في قوله: ﴿وَلِنَا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

إلّا أنّ الحرّية في الإسلام مشروطة بمنظومة من الحدود التي تحدّها، وتحقّق فعاليّة هذه القيمة في إطار العدل. فالإسلام ينظر إلى الحرّية ليس باعتبارها حرّية فرد، بل باعتبارها حرّية المجموع، وحرّية المجموع تؤدّي إلى الدّخول في علاقات، ولا تستطيع أن تحكم حرّية الأفراد إلّا من خلال مفهوم العدل. فالحديث الدائر اليوم عن حرّية المرأة بالمفهوم الغربي الدّاعي إلى الانعتاق من أيّ ضابطٍ أو شرطٍ، يغيّر مفهوم الحرّية في الإسلام.

فقد أبرز الغرب العديد من القضايا بناءً على القول بحرّية المرأة، فالمرأة حرّة في التّصرّف بجسدها، كالحريّة الجنسيّة وحقّ الإجهاض، وتشكيل الجسد كما تشاء.. وهو ما ركّزت عليه المؤتمرات وخاصّة مؤتمر السّكان وثيقة بكين. الأمر الذي أودى بهذا النّوع من الحرّية إلى إباحة الزّواج بين مثيلات الجنس، كما حدث في النرويج والدانمرك وهولندا وغيرها. أعاذنا الله من هكذا حرّية..

الهوامش:

- (١) رواه الترمذي في سننه ٥: ٦٤، تحقيق وتصحيح: عبد الرحمن محمد عثمان، الطبعة الثانية ١٤٠٣، نشر: دار الفكر، بيروت.
- (٢) التيسابوري، مسلم، صحيح مسلم ٧: ٦٧، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ، نشر دار الفكر، بيروت.
- (٣) البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري ٨: ١٤٩، كتاب الاعتماد بالكتاب والسنة، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م، مصورة عن طبعة دار الطباعة العامة باستانبول.
- (٤) الإمام ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد ٦: ٢٥٦، دار صادر، بيروت.

ابن شهر آشوب وكتاب المناقب

□ الشيخ محمد العبادي (*)

تجريب

كتاب (مناقب آل أبي طالب) ظهر في ظرفٍ كان الشيعة وغيرهم أحوج ما يكونون إلى مثله، وقد استطاع هذا الكتاب في فترةٍ قصيرةٍ أن يضحى مصدراً ينهل منه كبار العلماء والمسلمون في أكناف الأرض... إنَّ الهدف من وراء تعريف الكتاب هو بيان قيمته ومكانته العلمية، ومنزلة مؤلفه الذي يعدّ أحد أعمدة التشيع في عصره؛ حيث أثرى هذا الكتاب المكتبة الإسلامية عموماً، والشيعة خصوصاً في التعرف على مكانة أهل البيت عليهم السلام وخدماتهم في نشر معارف الدين الإسلامي الحنيف. ولقد استفاد عددٌ من الأعلام من كتاب المناقب واعتمدوه في مصادرهم، نذكر منهم: ابن جبر المتوفى في القرن السابع الهجري صاحب نهج الإيمان، الذي أخذ أكثر المعلومات الحديثية من كتاب المناقب، والعلامة الحلي في تذكرة الفقهاء.

(*) كاتب وباحث إسلامي / العراق.

ويعتبر هذا الكتاب من المصادر المهمة للموسوعتين الحديثتين: (وسائل الشيعة للحرّ العاملي، وبحار الأنوار للعلامة المجلسي). ومن هنا تتجلى أهمية هذا الموضوع الذي انتخبناه في التعرّف على هوية الكتاب وصاحبه، ومرتبته العلمية والاجتماعية، وما أسداه من خدمات لمذهب التشيع، ومن خلال مطالعة هذه المقالة المتواضعة سيتّضح للقارئ حجم الكتاب، ومدى كثرة مصادره التي اعتمد عليها من الفريقين، وغزارة الأخبار والأحداث التي قدّمها المؤلّف الجليل. ونسأل الله تعالى التوفيق في تعريف هذا الكتاب، والحث على مطالعته والاقتباس منه.

ترجمة المؤلّف:

هو الحافظ أبو جعفر محمّد بن علي بن شهر آشوب بن كيايكي، المكنى بأبي نصر بن أبي الجيش السروي المازندراني، الفقيه المحدث المفسّر المحقّق، والأديب البارع الجامع لفنون الفضائل، شهد له بذلك علماء الشيعة قديماً وحديثاً، ونورد فيما يلي قولاً للحرّ العاملي يطريه بعبارات الثناء، قال رحمه الله: «... وكان عالماً فاضلاً ثقةً محدثاً محققاً عارفاً بالرجال والأخبار، أديباً شاعراً جامعاً للمحاسن»^(١).

إن ملاحظة كتاب المناقب تكشف عن معرفته بالمصادر والأخبار التي تضمّنتها، كما أنّ أخباره التي وشّحها بالأشعار تنمّ عن ذوقه الشعري الرفيع؛ حيث تمّ أخباره بالأشعار أو ذيلها بها. وجلالة قدره وشأنه ومركزه الاجتماعي في حوزة الدين والمذهب كلّ ذلك يغنينا عن التوسّع في وصفه، ويقدر السيّد بحر العلوم أنّ ولادته كانت في جمادى الثانية سنة (٤٨٩هـ)^(٢)، وقد عاش مائة سنة إلا عشرة أشهر وتوفي سنة (٥٨٨هـ)، وقبره خارج حلب على جبل

جوشن عند مشهد السَّقَط^(٣) .

مشايخه:

تلقَّى الشَّيْخُ ابن شهر آشوب العلوم على عددٍ كثيرٍ من العلماء الأفاضل، ممَّا يكشف عن مدى جدِّيته في طلب العلم واستعماله، وفيما يلي نذكر بعضاً منهم:

١. السيد المنتهي بن أبي زيد كيابكي الحسيني الجرجاني.
٢. جدّه الشيخ شهر آشوب بن كياكي.
٣. الشيخ أحمد بن أبي طالب الطبرسي.
٤. الشيخ محمد بن علي بن المحسن الحلبي.
٥. محمد وعلي ابنا عبد الصمد.
٦. قطب الدِّين الرَّاوندي^(٤).

تلامذته:

أخذ كثيرٌ من العلماء من درس ابن شهر آشوب، واستفادوا وأفادوا من منابع علومه المختلفة التي ألَّفها إليهم، ونبغ عددٌ منهم، وفيما يلي نأتي على ذكر بعضهم:

١. السيد مُحَمَّد بن عبد الله بن زهرة.
 ٢. الشيخ جمال الدين علي بن جعفر شعرة الحلبي الجامعاني.
 ٣. السيد مجد الدين محمد بن الحسن بن معية.
- وغيرهم من العلماء الذين ساهموا في خدمة الدين الإسلامي.

آثاره:

سَطَّر يراع ابن شهر آشوب مصنَّفاتٍ جليَّة، ذكرها في كتابه معالم العلماء،

وهي:

١. كتاب مناقب آل أبي طالب.
٢. مثالب النواصب.
٣. المخزون المكنون في عيون الفنون.
٤. الطرائق في الحدود والحقايق.
٥. مائدة الفائدة.
٦. المثال في الأمثال.
٧. معالم العلماء.
٨. الأسباب والنزول على مذهب آل الرسول ﷺ.
٩. الحاوي.
١٠. متشابه القرآن.
١١. الأوصاف.
١٢. المنهاج^(٥).
١٣. أنساب آل أبي طالب: هذا الكتاب ذكره السيّد إيجاز في كتابه كشف الحجب^(٦).
١٤. الإنصاف: ذكره الشيخ عبد الله السماهيجي في إجازته للشيخ ياسين في آخر منية الممارسين^(٧).
١٥. بيان التنزيل: من الكتب التي ينقل عنها في البحار، قال العلامة المجلسي في أوّل البحار: إنّه صغير الحجم كثير الفوائد أخذنا منه يسيراً؛ لكون أكثره مذكوراً في غيره^(٨).
١٦. خلاصة الحدود: أحال إليه في كتابه (متشابه القرآن) في باب أصول الفقه^(٩).
١٧. ديوان ابن شهر آشوب^(١٠).

كتاب: مناقب آل أبي طالب

يعتبر كتاب المناقب لابن شهر آشوب من الكتب المهمة التي ساهمت في رفد تراث الشيعة الإمامية، ومن أجل تسليط الضوء عليه سوف نتبع الخطوات التالية:

طباعات الكتاب:

نظراً لأهمية الكتاب فقد طُبِعَ مرّاتٍ عديدة من قِبل دور نشرٍ مختلفة، وقد ذكر السيّد مُحَمَّد صادق بحر العلوم أنَّ الكتاب قد طُبِعَ أوَّلًا في بمبي سنة (١٣١٣هـ) في أربعة أجزاء طبعة رديئة جداً، ثم طُبِعَ في إيران مرّتين في جزئين سنة (١٣١٧هـ) طبعة غير خالية من الأغلاط، ثُمَّ بادر الشّيخ محمد كاظم الكتبي فجَدّد طبعه بمطبعته الحيدرية في ثلاثة أجزاء طبعة متقنة، قام بتصحيحه وشرحه ومقابلته على نسخ خطيّة لجنة من أساتذة النجف الأشرف^(١١)، ونشير إلى أنَّ المطبعة الحيدرية طبعت الكتاب في سنة (١٣٧٦هـ).

وأيضاً طُبِعَ كتاب مناقب آل أبي طالب في إيران من قبل منشورات العلامة، في أربعة مجلدات من القطع المتوسط في (١٥٧٦) صفحة. وكذلك طُبِعَ الكتاب في لبنان من قبل دار الأضواء في أربعة مجلدات، وبلغ عدد الصفحات (١٥٧٦) صفحة أيضاً.

وقد طُبِعَ كذلك في المطبعة العلمية (قم - إيران)، من قبل مكتبة العلامة في قم.

إنَّ تکرّر طباعات الكتاب يدلّ على المكانة العلمية للكتاب ومصنفه، وما يتضمّنه من أخبارٍ مهمّة ومفيدة في رسم صورة أهل البيت عليهم السلام.

تعريف بالكتاب:

لكي نلّم بصورة عن كتاب مناقب ابن شهر آشوب سنتبع الخطوات التالية:

• مقدمة الكتاب

كان الشَّعُور الدِّينِي واضحاً عند ابن شهر آشوب، الذي يَبِّن موقفه بشكلٍ صريحٍ في كتابه قيد الترجمة، فقد احتوت مقدّمته على ما يلي:

- دافع التّأليف:

وقف ابن شهر آشوب على حقيقة مفادها المختصر: هو إخفاء وطمس مكانة أهل البيت (عليه السلام)، فانبرى للتّصدي بوجه تلك الجماعات التي ابتغت تحريف وبتر تلك الحقيقة؛ حيث قال: «فنظرت بعين الإنصاف، ورفضت مذهب التّعصّب في الخلاف، وكتبت على نفسي أن أُميّز الشّبهة من الحجّة، والبدعة من السّنة، وأفرّق بين الصّحيح والسّقيم والحديث والقديم، وأعرف الحقّ من الباطل، والمفضول من الفاضل، وأنصر الحقّ وأتبعه وأقهر الباطل وأقمعه، وأظهر ما كتموا، وأجمع ما فرّقوا، وأذكر ما أجمعوا عليه واختلفوا فيه على مادته»^(١٢).

وعليه يتبيّن الدّاعي لكتابة هذا المصنّف الذي قصد منه خدمة الدّين وهداية من زلّت به رجل التّعصّب عن الحقّ.

- مصادر الكتاب:

اعتمد ابن شهر آشوب في مناقبه على مصادر الفريقين، وقد قسّم مصادره وطرقه للرواية إلى طريقتين:

أولاً: طرق العامة

ونقل فيها من مصادر متعدّدة كالبخاري، ومسلم، والترمذي، والدارقطني، والموطأ للإمام مالك، ومسنّد أبي حنيفة، ومسنّد الشافعي، ومسنّد أحمد، ومسنّد أبي يعلى، وتاريخ الخطيب البغدادي، وتاريخ النسوي وغيرها من المصادر التاريخية والحديثية والتي بلغت ما يناهز ثلاثة وخمسين مصدراً.

أما مصادره التفسيرية وكتب المفردات اللّغوية لأهل السّنة، فكتفسير

الطبري، والقشيري، والزخشي، والجبائي، والواحيدي، والسدي، والماوردي، ونظرائهم، فقد بلغت واحداً وأربعين مصدراً تفسيرياً ولغوياً اعتمد عليها في إقامة البيّنة والحجّة.

وقد ذكر الأسانيد التي اعتمد عليها في رواياته ممّا أضاف على الكتاب قيمة علمية، وجدير بالذكر أنّ ابن شهر آشوب كان محدثاً خبيراً عالماً بالأخبار والرّجال، وقد أجز له الرواية، وأشار إلى ذلك بقوله: «أذن لي جماعة من أهل العلم والديانة، بالسّماع والقراءة والمناولة والمكاتبة والإجازة، فصحّ لي الرواية عنهم بأن أقول: حدّثني وأخبرني وأنبأني وسمعت واعترف لي بأنّه سمعه ورواه كما قرأته وناولني من طرق الخاصة»^(١٣).

وقد نقل الروايات بأمانة علمية، ومع ذلك فقد لاحظنا وجود اختلاف طفيف لا يكاد يذكر في النّقل من بعض المصادر، ربما يكون سببه اختلاف النّسخ.

ونلاحظ أنّه عندما ذكر شمائل النبي ﷺ نقلاً عن بعض المصادر، وهي: الترمذي في الشمائل، والطّبري في التّاريخ، والزّخشي في الفائق، والفتال في الرّوضة لم نعثر على النص بعينه عند أحد هذه المصادر؛ حيث عمل ابن شهر آشوب على مزج ألفاظ من المصادر الآتية الذكر مع بعضها، وأدّت المعنى الذي ورد في صفاته ﷺ.

وهذا لا يمسّ قيمة الكتاب العلميّة، وإنّما يُشير إلى ضرورة تحقيق الكتاب تحقيقاً جديداً، وإرجاع رواياته إلى أصلها.

ثانياً: طرق الخاصة

قد أكثر ﷺ من الاعتماد على كتب الصّدوق، والشّيخ المفيد، والشّريفين المرتضى والرّضي، وشيخ الطّائفة الشيخ الطوسي، وأضرابهم.

وأشار ابن شهر آشوب إلى أنّه نقل أكثر أسانيد كتب الشيعة اعتماداً على ما

نقله الشيخ الطوسي^(١٤).

• منهج الكتاب

لم يعد ابن شهر آشوب الأساليب المتبعة آنذاك، فمنهجه منهج أهل الحديث في النقل، غير أنه تميّز عنهم بالأخذ من كلا الفريقين، وبأمانته العلمية في النقل رغم اختصاره للأخبار، وتتم أخباره بتوشيحها بالأشعار، وتوجيهها بالآيات، وقد ذكر ذلك بقوله: «وقد قصدت في هذا الكتاب من الاختصار على متون الأخبار، وعدلت عن الإطالة والإكثار، والاحتجاج من الظواهر والاستدلال على فحواها ومعناها»^(١٥).

لقد كان ابن شهر آشوب على اطلاع كامل بما يعنيه السند بالنسبة إلى الرواية ومصدرها؛ ولذلك أشار في مقدمته إلى الأسانيد التي اعتمدها من المصادر؛ لإخراجها عن حدّ المراسيل وإلحاقها بباب المسندات، وبعد بذله جهداً في تتبع الروايات أخرج مناقب أهل البيت عليه السلام بصورة جليّة معتمداً على الروايات التي اشتهرت عند أهل السنة وتواترت عند الشيعة^(١٦).

ملاحظات مهمّة حول الكتاب:

حافظ ابن شهر آشوب على أن يكون المحتوى منسجماً مع عنوان الموضوع وهو (مناقب آل أبي طالب)، وتركز الحديث فيه على مناقب أهل البيت عليه السلام، وجعلها محور الكتاب آية ورواية وشعراً وخبراً، ولكن على الرغم من ذلك، فقد تعرّض فيه لغير نسل أبي طالب، فقد ذكر الصحابة والتابعين؛ حيث قال في مقدمته: «وافتحت ذلك بذكر سيّد الأنبياء والمرسلين، ثم بذكر الأئمة الصادقين، وختمته بذكر الصحابة والتابعين»^{(١٧)(*)}.

(*) من الممكن أن يكون قد اختصّ بذكر الصحابة والتابعين بمن يتسبب إلى شيخ البطحاء أبي طالب، بعد طرو السقط على الكتاب كما سيأتي، فلا تكون هذه الملاحظة وجيهة. (التحرير)

وكان الشيخ ابن شهر آشوب موفقاً ومسدداً في توجيه الأنظار إلى مناقبهم، وخصوصاً في أمير المؤمنين وزوجه البتول وولديه السبطين عليهما السلام.

وقد اعتمد الشيخ رشيد الدين على روايات الفريقين، لكنه كلما تقدّم في ذكر باقي الأئمة عليهم السلام انحسرت روايته عن أهل السنة وانحصرت في روايات الشيعة، وإن كان لا يعدم في سند الرواية من رواة أهل السنة.

ويمكن أن ننبه إلى أن روايات ابن شهر آشوب فيما يخص أئمة أهل البيت عليهم السلام، وخصوصاً بعد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، قلت بشكل واضح، وما ذاك إلا نتيجة الضغوط التي كان يعانيها أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم؛ مما يمنع الرواة من نقل الكثير مما سمعوه عنهم.

وتوجد نكتة مهمة لاحظها العلماء، وأشار إليها الميرزا النوري: «وليعلم أن الموجود من المناقب في أحوال الأئمة عليهم السلام إلى العسكري، ولم نعر على أحوال الحجة عليه السلام منه، ولا نقله من تقدّمنا من سدنة الأخبار كالمجلسي، والشيخ الحرّ، وأمثالهما. وربما يتوهم أنه لم يوفق لذكر أحواله عليه السلام، إلا أنه قال: في معالم العلماء في ترجمة المفيد رحمته الله: إنه لقبه به صاحب الزمان عليه السلام، قال: وقد ذكرت سبب ذلك في مناقب آل أبي طالب. والظاهر أنه كتبه في جملة أحواله عليه السلام، فهذا الباب سقط من هذا الكتاب، والله العالم»^(١٨).

وقبل أن يشرع في ذكر مناقب أئمة أهل البيت عليهم السلام عقد مبحثاً مهماً في: باب الإمامة، وفرّع عليه فصولاً في شرائطها، وعرّج في الحديث عن العصمة وإثباتها بالآيات والروايات، ثم انتقل إلى مفسدات الإمامة، كترك الاختيار للأئمة في نصب الإمام، وما أشبه ذلك، وأفرد مبحثاً للردّ على الغلاة والفرق المنحرفة كالخوارج والسبعية، وأورد الأسئلة والأجوبة فيما يخص الإمامة، ثم انتقل إلى باب إمامة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام؛ ليدعمها بالآيات المنزلة فيهم، ويسندها بروايات العامة والخاصة.

فهو لم يدخل في ذكر مناقب أئمة أهل البيت عليهم السلام إلا بعد أن خصّص بابين حول الإمامة والأئمة؛ فكأنه يريد أن يثبت الإمامة لأهل البيت عليهم السلام، ومن ثمّ يتحدث عنهم على انفراد على طريقة (ثبت العرش ثم انقش).

ومن خلال مطالعة الكتاب، نستشرف مدى العاطفة اللطيفة والحسّ المرهف الذي يتمتع به ابن شهر آشوب؛ الذي كان صاحب عاطفة دينية صافية تتطلّع إلى تبليغ الحق وإيصاله إلى الناس.

ومن نقاط القوة الأخرى في الكتاب: أنّه ينقل الأخبار والآثار الواردة عن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، ويستند فيها إلى أكثر من طريق وأكثر من مصدر، ممّا يعني: أنّه كان مطلعاً على الأخبار التي يشترك فيها الرواة، أو تشترك في نقلها المصادر.

وفضلاً عن رواياته ذات الأسانيد المتعدّدة والمصادر المتوافقة على نقل الرواية، هناك روايات أخرى نقلها عن بعض المصادر كلاً على حدة، وكان ابن شهر آشوب يلاحق الأحداث ويتابعها بألستها ومعانيها المتعدّدة، ممّا أضفى على كتابه سعةً حديثة وتاريخية عند استعراضه لمناقب آل البيت عليهم السلام.

ويمكن تدوين بعض الملاحظات على الكتاب منها أنّه لم يتقيّد بمنهج معيّن، فقد تضمّن الكتاب مباحث كلامية، مثل الحديث عن علم الغيب عند الأئمة عليهم السلام، أو مباحث تاريخية كتلك التي تتعرّض لسيرة النبي صلى الله عليه وآله ومغازيه، أو سيرة الأئمة عليهم السلام، أو مباحث تفسيرية عندما يأتي بآيات قرآنية. ويأتي بآراء المفسّرين حول سبب نزولها، أو بيان معانيها، وقد أطر ذلك بأدبه وإنشائه والأشعار التي تتعلّق بكلّ موضوع حسب ما أوردتها المصادر المختلفة.

النتيجة:

كان محمد بن علي بن شهر آشوب فقيهاً محدّثاً ومفسّراً وشاعراً بليغاً، وقد

أطراه العلماء بكلمات الثناء عليه، وترك آثاراً علمية جليلة أصبحت مورداً يغترف منها العلماء على اختلاف مللهم ونحلهم، ومنها: كتاب معالم العلماء، ومناقب آل أبي طالب وغيرها.

ويعتبر كتاب (مناقب آل أبي طالب) من الكتب المهمة التي استند إليها العلماء، حيث ساهم هذا الكتاب في رفد التراث الشيعي، الأمر الذي حدا بدور النشر إلى الاهتمام به وطبعه في بلدان مختلفة.

وقد اعتمد هذا الكتاب على ما رواه الفريقين، وأعاد النصوص المقطوعة عن أصلها، وذلك بنقل الرواية كاملة عن مصدرها الأم، وقد وفق في هذا المنحى، وأعاد الأحداث إلى صورتها الواقعية من دون تحريف كما فعل بعض المخالفين لمذهب الشيعة الاثني عشرية.

لقد استطاع الشيخ ابن شهر آشوب أن يحافظ على صورة أهل البيت عليهم السلام؛ بنقل أخبارهم وآثارهم وبسط مناقبهم بأسانيد متعددة، ومصادر مختلفة هي موضع اعتماد عند الفريقين، وقد عكست المعلومات التي قدمها بيان شخصية ابن شهر آشوب العلمية، ومدى تضلعه في المسائل التاريخية والحديثية والرجالية، والتي كانت محط اهتمام جلّ رجال العلم.

وقد عبّد هذا الكتاب الطريق أمام الباحثين والمحققين في التوجّه إلى قضايا المذهب التي ربما تصبح عرضة للتحريف من قبل المخالفين في المستقبل الآتي، وقد كان المؤلف محققاً فيما نبّه إليه، ومصيباً فيما وقف عليه، وكان سعيه مشكوراً.

* * *

الهوامش:

(١) الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، أمل الآمل ٢: ١٨٥، تحقيق: السيّد أحمد الحسيني، نشر: دار الكتاب الإسلامي ١٣٦٢ هـ. ش، قم.

- (٢) انظر: المقدمة التي كتبها السيّد مُحَمَّد صادق آل بحر العلوم على كتاب معالم العلماء لابن شهر آشوب.
- (٣) انظر: كتاب رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين عليه السلام للسيّد علي خان ١: هامش صفحة ٥١، تحقيق: السيّد محسن الحسيني الأميني، الطبعة الرابعة ١٤١٥، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي.
- (٤) يراجع في ذلك: كُلُّ من مقدمة كتاب معالم العلماء، وبحار الأنوار: ١٠٥-١٠٦، والجزء الأخير من وسائل الشيعة، وأمل الآمل .
- (٥) ابن شهر آشوب، مُحَمَّد بن علي، معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنّفين منهم قديماً وحديثاً: ١٥٤، تقديم: السيّد مُحَمَّد صادق بحر العلوم، الطبعة الثانية ١٣٨٠، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.
- (٦) الطّهراني، آقا بزرك، الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٢: ٣٧٨، نشر: دار الأضواء، بيروت.
- (٧) المصدر نفسه ٢: ٣٩٥.
- (٨) المصدر نفسه ٣: ١٧٧.
- (٩) المصدر نفسه ٧: ٢٢٤.
- (١٠) المصدر نفسه ٩، ق: ٣: ٩٨٧.
- (١١) معالم العلماء: ٢٦، مرجع سابق.
- (١٢) ابن شهر آشوب، مُحَمَّد بن عليّ، مناقب آل أبي طالب ١: ٦، نشر: المكتبة الحيدرية ١٣٧٦ هـ. ق، النّجف.
- (١٣) المصدر نفسه: ٧.
- (١٤) المصدر نفسه: ١٣.
- (١٥) المصدر نفسه: ١٤.
- (١٦) المصدر نفسه: ١٤.
- (١٧) المصدر نفسه: ١٥.
- (١٨) الميرزا النّوري، الشّيخ حسين، خاتمة مستدرک الوسائل ٣: ٥٨، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التّراث، الطبعة الأولى ١٤١٦، قم.

تساؤلات برسم من يهمل الأمر

وثيقة إعلان النوايا لمصلحة مَنْ؟! *

□ الأستاذ: سعيد ماجد البغدادي (*)

تناولت وسائل الإعلام لنصّ اتّفاقيّة يُعَمَل على دراستها والتفاوض بشأن انعقادها بين جمهوريّة العراق والولايات المتّحدة الأمريكيّة، وقد أكّد القادة العراقيّون في بيانهم الصّادر في ٢٦ آب ٢٠٠٧ على التزام الطّرفين بتطوير علاقة «تعاون» و«صداقة» طويلة الأمد بين البلدين: «الكاملي السيادة والاستقلال». وعُرفت هذه الاتّفاقيّة باسم: وثيقة إعلان النّوايا، أو: الاتّفاقيّة الأمنيّة الاستراتيجية بين العراق والولايات المتّحدة الأمريكيّة.

وقد كثر اللّغط والكلام بشأن هذه الاتّفاقيّة وبنودها وتوقيتها والأغراض والنّوايا الكامنة وراء الإصرار عليها، وآثارها والتداعيات التي قد تجرّها على السّاحة العراقيّة، إيجاباً أو سلباً، وعن المستفيد منها والمضطرّ إليها، من هو؟! كما أفرط كثيرٌ من المعلّقين على مختلف جوانب هذه الاتّفاقيّة، المتّقدين والمدافعين على حدّ سواء، في تراشق التّهم وتبادلها، مُستخدمين لغةً أقلّ ما يُقال فيها: إنّها

(*) إعلامي وناشط سياسي عراقي.

لغةً حادّةً مشحونةً بالتوتر والعصبية، لا تصبّ إلّا في صالح القوى الخارجيّة الطامعة والمستكبرة، وهي أبعد ما يكون عن خدمة مصالح العراق والعراقيين، وهكذا، لكيلا يكون ما تجرّه هذه الاتّفاقيّة على العراق وأهله، انعقدت أم لم تنعقد، إلّا الويل والسّؤم والنّزاع، وهذا هو فعل ثقافة التصادم التي يعمل على إذكاء نيرانها كلّ عدوّ متربّصٍ طامع.

ولئنْ كان لهذه الوتيرة المرتفعة في الخطاب السّياسيّ ما يبرّرها - لظروف وعوامل مُختلفة، ليس أقلّها: الأوضاع السّياسيّة والأمنيّة المعقّدة والشّائكة التي سادت عراق ما بعد الاحتلال، وما استتبعه من تكتّلات، وما سبقه من طموحاتٍ وأحلامٍ كانت قد شغلت الذّهنيّة العراقيّة طيلة عهد النّظام البائد، من دون أنْ يتسنّى لهذه الطّموحات أنْ ترى نور الإنجاز والتحقّق، على الرّغم من إسقاط نظام البعث الذي تربّع جاثماً على صدر العراق والعراقيين مدّةً مديدة - لئنْ كان لهذا الخطاب المشحون المتوتر ما يبرّره، نظراً لكلّ هذه العوامل والتعقيدات، وغيرها، فإنّه ليس من المبرّر ولا من الجائز أصلاً، الحفاظ على هذه الطبقة العالية من الخطاب، والاستمرار على هذه الحدّة في العمل السّياسيّ، وذلك نظراً لصعوبة التّحديات، والقضايا الحسّاسة والمصيريّة التي لا تنفكّ تواجهها السّاحة العراقيّة، وهي التي ما لبثت أنْ تعافت من مرضٍ خطيرٍ، هو الدّكتاتوريّة البعثيّة والنّظام الأمنيّ والمخابراتيّ، حتّى مُنيتْ بداءٍ عُضالٍ ومرضٍ أكثر خطورةً، وهو الاحتلال والاستعمار، والذي لا زال يضربها وينخر في جهاز مناعتها حتّى تآكلت، ليحلّ محلّها: الضّعف والتأزّم والهشاشة في كافّة الصّعد والمستويات: السّياسيّة والأمنيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وغير ذلك..

إنّ العراق - بوصفه جزءاً أساسيّاً من الوطن العربيّ والإسلاميّ، وبقعةً متميّزةً في المنطقة الأهمّ عالميّاً: الشّرق الأوسط، والأهمّ من هذا وذاك: بوصفه وطناً يحتاج إليه أبنائه، كلّ أبنائه، ليكون ملجأهم وملادهم الوحيد، يحكمونه

هم باختيارهم ووفقاً لخياراتهم والأولويات التي يتوافقون عليها، وينعمون هم وحدهم بخيراته وثرواته، ويجمعون بكافة أطرافهم تحت ظلّه الوارف الواحد، ويتمازجون بألوانهم المختلفة لينصهروا بمجموعهم في بوتقة واحدة تشكّل بمجموعها العلم العراقيّ الموحد - مُطالبٌ، بمُختلف شرائحه، من النّخب والقيادات والأحزاب والسّياسيين ورجال الدّين والمثّقين إلى عامّة الشّعب والمواطنين، مُطالبٌ بأنّ يحكّم مفردات الحوار والوفاق والتّفاهم والثقة المتبادلة والوحدة ورصّ الصّفوف، على أن تكون هي اللّغة الوحيدة المتداولة والمسموح باستخدامها في مجاميعه المختلفة.

وعلى ضوء ذلك كلّ، لا يسعنا، ونحن - ربّما - على مشارف توقيع اتّفاقية، هي الأخطر والأكثر حساسيةً وأهميّةً، على الإطلاق، في تاريخ عراقنا المعاصر، لا يسعنا إلّا أن نقف وقفة تأملٍ وتحليلٍ معمّقين، نسلط فيها الصّوّء على بنودها التي كشف عنها العديد من وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة، المحليّة والإقليميّة والعالميّة، في محاولة لفهم أبرز ما جاء فيها، والوصول إلى حقيقة ما استتر وراء سطورها، على ضوء ملابساتها والظّروف المحيطة بها.

وما نطمح إليه في هذه المقالة أن نثير تساؤلاتٍ موضوعيّة هادئة، يتعيّن على كلّ مواطنٍ عراقيٍّ شريف يهتمّ لوطنه ويُبالي به، أن يجد الجواب عنها، لنفسه قبل الآخرين. فإنّ الأمر الوحيد الذي يجب علينا، كمواطنينٍ عراقيين، أن نؤيّد وننادي به من دون تباطيٍ أو تحفّظٍ أو مواردٍ إنّما هو هويّة العراق ومصيره ومستقبله ووحدة شعبه وأراضيه.

ومن هنا، وقبل أن نضع هذه البنود تحت مجهر النّقْد، يتوجّب علينا أولاً أن نرسم عدداً من الخطوط الحمراء العريضة التي تشكّل إطاراً لا يجوز لأية اتّفاقية أو معاهدة أو تسوية أن تتخطّاه أو أن تخرج عنه، إذ كلّ اتّفاقية أو معاهدة بين طرفين، يجب أن تُوضع في ميزان الربح والخسارة قبل عقدها وإقرارها، وهذا

حق مشروع مُستَساغٌ لكل طرف؛ لأنّه معنيٌّ بغربة ووزن مصالحه المرجوة بهدوء، وقراءة أبعاد تلك الاتفاقية وتأثيراتها الإيجابية والسلبية قراءة متأنية، على الصّعيدين: المحلي والإقليمي، وعلى المدين البعيد والمنظور، وصولاً إلى قبولها أو رفضها أو تعديلها على وفق ما يقتضيه الصّالح العام..
وذلك كما يلي:

١. أن تصبّ أولاً وأخيراً في نفع العراق والعراقيين، وفي خدمة مصالحهم، أعني: مصالحهم الوطنية العامة، بما هم شعبٌ واحدٌ، لا المصالح الشخصية والفئوية الضيقة، آخذة بعين الاعتبار: المصالح الدائمة التي يبلغ مدى نفعها الأجيال الآتية.

٢. أن لا يكون الإقدام على أيّ من الخطوات المصيرية التي تنسحب آثارها ونتائجها على الجميع، إلّا بعد ضمان الوفاق والإجماع الوطني؛ لأنّ للاستئثار بالرأي عواقبه الوخيمة على السّاحة الدّاخلية.

٣. أن لا تكون ممّا يחדش أو يمسّ بسيادة العراق واستقلاله وسُلطته على كامل أراضيه، ولا بإدارته الحرّة والمباشرة لكافة مؤسساته ومختلف قطاعاته، ومن دون أن تسلبه قدر أنملة من حرّيته وكرامته، حكومةً وشعباً. فكلّ معاهدة أو اتفاقية أو صفقة أو تسوية لا تدور في فلك السّيادة، ولا تمضي في ركاها، فلا يجوز، في أيّ حالٍ من الأحوال، اعتمادها أو إقرارها. وأمّا أن تتحوّل هذه المعاهدات والاتفاقيات لتُصبح شرطاً أو شرطاً من سيادة العراق واستقلاله، فهذا أمرٌ لا يُمكن لعراقيٍّ حرٍّ شريفٍ أن يقبل به.

٤. أن لا تُخرج بالعراق عن دوره الهامّ وموقعيته ومكانته المتميّزة في العالمين العربي والإسلامي.

٥. أن لا تتجاوز، في شيءٍ من جوانبها وتفصيلها وأبعادها، عن إطار

الأولويات الكبرى والخيارات العراقية الأساسية: الوطنية والدينية والشعبية والقومية والإنسانية.

٦. أن لا تشتمل على أيّ نحوٍ من أنحاء التهديد أو الإساءة إلى العلاقات الطيبة للعراق والعراقيين بأيّ من الدول العربية والإسلامية، وبالأخصّ: دول الجوار؛ لأنّ من شأن الهدوء في هذه العلاقات أن ينعكس هدوءاً وإيجاباً في الوسط الداخليّ.

٧. أن يُصار إلى إعلام الشعب، بمختلف أطيافه، بظواهر وبواطن الأمور، فلا تُصاغ المعاهدات والاتفاقيات بلغةٍ مُلتبسةٍ غامضةٍ وبعناوين فضفاضة، بل بلغةٍ صريحةٍ شفافةٍ تسلم من الإرباك ولا تُثير الهواجس، على أن يلتزم بالعمل بها، على فرض الموافقة والإجماع الوطنيّ عليها، بحرفيّتها، وبكلّ دقّة. ونكتفي بهذه النّبذة الموجزة والسريعة عن مجموعةٍ من أهمّ الضوابط الوطنية والخطوط العريضة المتسالم والمتفق عليها - فيما أظنّ - عراقياً. وننتقل الآن لمناقشة وتحليل بعض ما ورد في نصّ الاتفاقية المذكورة. توزّعت بنود هذه الاتفاقية على مجالاتٍ متعدّدة:

أ. المجال السياسيّ والدبلوماسيّ والثقافيّ:

وفي بنده الأوّل:

«دعم الحكومة العراقية في حماية النظام الديمقراطيّ في العراق من الأخطار التي تواجهه داخليّاً وخارجيّاً».

وأمریکا أمّ الديمقراطية الرّؤوم، وحضنها الدّافئ، وهي أوّل من نشرها في كلّ أقطار العالم، ولا زالت تسعى وتبذل جهودها الحثيثة لتعميمها ونشرها في بلدان العالم الثالث، ولا سيّما في منطقة الشرق الأوسط!!! وقد تمثّل تحرّكها الهادف لتحقيق ذلك في مرحلتين: أولاهما: أنّها وفّرت لتلك المنطقة، وبالمجان،

كياناً وادعاً تسوده الديمقراطية الأمريكية الهائلة، وهو: «إسرائيل»، الذي لا يكل ولا يمل المسؤولون في الإدارة الأمريكية عن التسييح بحمدها والإشادة بممارساتها «الديمقراطية» التي تنسجم مع معايير «الشرعية الدولية» في عالمنا المعاصر!! والمرحلة الثانية: أن أمريكا بعد أن وجدت أن المنطقة المسكينة لم تعتبر بالتمودج الإسرائيلي، ولم تتعلم منه، أبت على نفسها، وهي التي تُؤثر - دائماً - مصالح الشعوب المُستضعفة على مصالحها، أبت إلا أن تحضر بنفسها، ليكون لها إشرافٌ مباشرٌ على ممارسة الديمقراطية، ولتصون بنفسها الحريات عن أن تُقيد أو تُكبّل!! فلذلك، ولذلك فقط، أتت إلى عراقنا، بقوتها العسكرية «المسالمة»، وجنودها «المتحضرين»، ولذلك أيضاً: قدمت قبلُ إلى أفغانستان، وأوجدت من قبلُ: قواعدُها العسكرية الدائمة في كل دول الخليج!!

هي الديمقراطية إذن، الهم الأكبر لدى الإدارة الأمريكية! والتي لأجلها تجوب البلدان، وتقطع الفياقي والبحار، والسهول والجبال، فقط، لأجل إحلالها في الدول الفقيرة المحرومة منها!!

ولما كانت الديمقراطية الحلم الأكبر، والغاية القصوى، بالنسبة للرئيس الأمريكي جورج بوش، كان لا بد من العناية والتضحية في سبيلها، وتقديم الغالي والرخيص، ولذلك فقط: دفعت أمريكا من نفسها، من شعبها وأرضها وطاقتها وخيراتها، المبالغ التالية:

- سجن غوانتانامو، وغيره من المعتقلات السرية المبنوثة على امتداد القارة الأوروبية، بعلم من الأنظمة الحاكمة في هذه الدول «المنادية بحقوق الإنسان»، وصولاً إلى سجن أبي غريب، والفضائح التي يندى لها جبين الإنسانية خجلاً.

- ملايين العراقيين بين قتلى ومهجّرين، داخل العراق وخارجه، وأيتام وأرامل، مُضافاً إلى أغلبية مذعورة من جرّاء الفلتان والفوضى الأمنية «الخلاقة والمنظمة».

- الثروات الوطنية والقومية والدينية المهرّبة والمنهوبة إلى المتاحف العالمية الغربية والأمريكية.

- المنابع النفطية والموارد الطبيعية التي باتت اليوم تصبّ في الخزانات الأمريكية؛ لتكون وقوداً لآلات مصانعهم أو طائراتهم ومعدات غزواتهم وحروبهم، وما أكثرها.

هذه قطرة في بحر التضحيات والأثمان التي بذلها: الشعب الأمريكي، وهو يستमित في الدفاع عن ديمقراطية العراق وحرية ومستقبل العراقيين!!!
فليس عجباً، لذلك، أن تتضمن الاتفاقية المرغوب بها أمريكياً: مبدأ الدفاع عن النظام الديمقراطي؛ ليكون أول بنودها!! بل هو أمر طبيعي ومأمول!!
وحول ما تضمنه هذا البند في ذيله: (حماية النظام الديمقراطي من الأخطار الداخلية والخارجية)، لئن كان ما يتعلق بالحماية من الخطر الخارجي واضحاً ومفهوماً بالنسبة إلينا، فليس بواضح أبداً: أن أمريكا، بموجب أول بنود هذه الاتفاقية، ستعمل على حماية (الحكومة العراقية) من الأخطار الداخلية.

فهل ستكون القوات الأمريكية - التي أقل ما يقال فيها: إنها قوى أجنبية - اليد الضاربة للفريق الحاكم، كائناً ما كان انتهاؤه العرقي أو الطائفي أو الحزبي، في خصوماته الداخلية ومعاركه السياسية لفرض رأيه وتحميله على سائر الأفرقاء السياسيين، أشقاء الوطن وأبناء البيت الواحد؟! أم تُراها ستمتدّ لضرب الأجنحة المسلحة للميليشيات والتيارات الحزبية التي قد تتمتع بخلفية جماهيرية وشعبية واسعة؟! وماذا سيُبقى ذلك من مصداقية للحكومة في الوسط الداخلي والإقليمي والقومي؟! وهل يكون استخدام العنف في تجريد الأحزاب والقوى الشعبية من سلاحها حلاً سلمياً من شأنه أن يُولد بيئة اجتماعية هادئة ومجتمعاً مدنياً متفاعلاً؟! أم أن التدخل العسكري لقمع المخاطر الداخلية سيقصر على ضرب الجيوب الإرهابية المسلحة، التي تستهدف المدنيين، أو

تتحرك لأهداف طائفية ومشبوهة؟! ومنذ متى كان المحتل الغازي، وإن تسمى بأسماء آخر، تضره التفرقة أو تؤلمه المشاحنات؟!

هذا ما يتعلق بالبند الأول. وأما سائر البنود التي ذكرت في المجال السياسي والدبلوماسي والثقافي، فهي لم تعد أن تكون وعوداً بتوفير أشكال الدعم المعنوي، بتعابير فضفاضة، وعناوين تسودها الضبابية والغموض، من قبيل: (احترام الدستور) و(الوقوف بحزم أمام محاولات تعطيله) و(دعم جهود الحكومة) و(تشجيع الجهود السياسية)، وصولاً إلى: (تشجيع التبادل الثقافي والتعليمي بين الدولتين)، الذي نتساءل أنه: هل يعني فيما يعنيه: أن المدارس والجامعات والمعاهد العلمية الأمريكية ستدرس بجدية إمكانية اعتمادها على منهج التعليم العراقي؟! وهل يعني: أن المجال سيكون مفتوحاً على مصراعيه أمام الكوادر والمثقفين العراقيين للتعلم في جامعات أمريكا والإفادة من الخبراء هناك، وفي كافة المجالات، دون أن يكون للتعليم والثقافة والتخصص حدٌ لا يُسمح لهم بتخطيه؟! وهل يعني: أن المثقفين الأمريكيين والغربيين سيدأون - ونحن في عصر العولمة - بقراءة ما يكتبه مثقفوننا، ومحاولة فهم وجهات نظر النخب العربية، والاطلاع على المكونات الفكرية والثقافية والحضارية التي تشكل العقل العراقي والعربي والإسلامي، أم أنهم سيستمرون في سياسة الاتهام بالإرهاب والرجعية والتخلف، التي هي أسوأ بكثير من ثقافة الاستشراق القديمة، على علاقتها؟!

ب. المجال الاقتصادي:

أغرقت الاتفاقية البنود ذات الطابع المالي والاقتصادي بالوعود والآمال والمكافآت. وقد تراوحت هذه البنود بين ثلاثة عناوين، هي:
- الوعود بدعم الجمهورية العراقية للنهوض والتنمية وتطوير الانتاجية

وتحسين القدرة الشرائية.

- الوعود بضمّ العراق ودججه في المؤسسات المالية والاقتصادية، الإقليمي منها والدولي، كمنظمة التجارة الدولية، على أن يحصل العراق على ظروف تجارية تشجيعية وتفضيلية تجعله من الدول الأولى بالرعاية في السوق العالمية والأمريكية.

- الوعود بـ «التسهيل والتشجيع» على تدفق الاستثمارات والأموال الأجنبية إلى جمهورية العراق، و«المساعدة» في دعم الأطراف المختلفة للالتزام بتعهداتها تجاهه، و«المساعدة» أيضاً على إطفاء ديونه وإلغاء تعويضات الحروب التي كان قد شنّها النظام السابق.

وفي التعليق على هذه البنود واتخاذ الموقف المناسب منها، فإننا نجد أنفسنا أمام خيارين لا ثالث لهما:

(١) فإما أن نحسن الظنّ بهذه البنود، ونأخذها على ظاهرها، ونغمض عيون أبصارنا وبصائرنا عن آثارها ونتائجها الحتمية، والتي عرفنا حتميتها من خلال تصفّح التاريخ واستقراء كلّ التجارب التي حدثت سابقاً، في العراق أو في غيره، مع أمريكا أو مع غيرها ممّن تسنّى له أن يمارس دوراً كدورها فيما مضى.

(٢) وإما أن ننطلق من الحذر الشديد الذي يفرض نفسه بقوة على كلّ من يقرأ أحداث التاريخ بتمعّن وروية، على كلّ من استطاع أن يتخطّى الأسماء والأشخاص، وأن يسمو فوق كلّ التفاصيل الجزئية والفردية التي تزول بزوال الأفراد، على كلّ من يستخدم حوادث التاريخ ليتعلّم ويستنتج منها القواعد العامة والعلل الكلية التي تسير الظواهر التاريخية وتنتجها وتقف وراء تكون السنن التاريخية. وإذا اتّبعتنا هذه الرؤية وسرنا خلفها: فلن نستطيع أن نبصر أمامنا إلاّ مشروعاً يحاول - عبثاً - أن يرى النور، مشروعاً لن يؤكّد، لو وُلد، إلاّ ميتاً، لا شيء إلاّ لأنّه طلب الوجود في المكان الخاطئ: بين طرفين عقيمين،

أحدهما: محتلٌ مُستَعْمَرٌ (بالكسر)، والآخر: محتلٌ مُستَعْمَرٌ (بفتح)، والتاريخ شاهدٌ على أنّ هذين الطرفين فاقدان للصّلاحية والأهلية لإنتاج أيّ مشروع يعود بالنّفع على الطرفين معاً، أو على المُستَعْمَر على وجه التحديد، بل لا يتولّد عنهما غير المشاريع المشوّهة والمخرّبة، التي تزيد الغازي قوّة ونفوذاً وسطوةً وهيمنةً، والمغزوّ ضعفاً وتخلخلاً وهشاشةً وتخلّفاً. فكيف إذن إذا كان الأول: أميركا: الدّولة الأقوى التي فرضت نظاماً عالمياً أحاديّ القطب؟! أم كيف إذا كان الثاني: العراق: البلد الغنيّ بثرواته الطّبيعيّة والبشريّة والحضاريّة، والذي يحتلّ موقعاً استراتيجياً مميّزاً في الكرة الأرضيّة.

وأما النّظرة الأولى، فهي نظرة طوباويّة حاليّة، تنسجم مع روح التفاؤل التي نعشقها جميعاً ونرغب في وصلها والخطوة بها. فمن منّا لا يرغب في رؤية عراقنا الحبيب دولةً قويّةً محترمةً منافسةً ومُهابةً من العالم كلّ، بين جيرانها وفي وسطها الإقليميّ، وفي المحافل الدّوليّة، على السّواء؟! ومن منّا لا يشتهي أن ينعم كلّ عراقيّ بالأمن والهناء والرّفاهيّة في ربوع بلاده؟! أم هل هناك عراقيّ لا يُعجبه أن ترتفع قدرته الشّرائيّة.. أن تتوفّر له فرص العمل الكريمة.. أن يرى بلهفّة حركةً حيويّةً تدفع بعجلة الاقتصاد والنّموّ إلى الأمام.. أن يخلق بلده عالماً في مُختلف المجالات والميادين؟! إنّ هذه أحلامنا التي عليها نُصبح ونُمسي.. التي نقتات منها.. بل هي وحدها ما يُبقينا أحياء في هذا العالم المهول المُحدق بنا... وستبقى كذلك، على الرّغم من الصّعوبات والتّحديات، التي نكاد نجزم، أنّه لم يُلاقِ نظيراً لها، في كلّ تاريخ الأمم والشّعوب والحضارات الحافل، شعبٌ آخر غير شعبنا العراقيّ، ووطنٌ آخر غير عراقنا الجريح..

نعم، إنّ هذه النّظرة الأولى تجسّد كلّ أحلامنا وطموحاتنا، ولا شكّ، وإنّ لنا لرغبةً ملحّةً عارمةً في تصديقها، وفي رؤيتها تتحقّق أمام ناظرينا. وإنّ العراق والعراقيين، شأنهما في ذلك شأن كلّ بلدان وشعوب العالم الثالث، في حاجةٍ

ماسّة إلى إبرام اتّفاقيّاتٍ حقيقيّةٍ من هذا القبيل ..
هذا ..

ولكنّ عالم الأحلام الوردية، وللأسف، سرعان ما تأفل شمسُه، ويغور ماؤه، والحلم الجميل، مهما كان جميلاً، فإنّه يبقى حُلماً وخرافة، ومهما بدا طويلاً، فإنّ عمره لا يتجاوز الثواني الخاطفة التي تُقاس بلمحات البصر. ناهيك عن أنّه حتّى لو كان بوسعنا أن نبقى في سكرة الأحلام، فإنّ أصوات اليقظة، لا محالة، ستطرق باب آذاننا، وإنّ بصمات الواقع، ستُدركنا، ولن ترحمنا. وناهيك أيضاً، عن أنّه لا يرى الأحلام السعيدة إلّا شخصّ نائم، ولا يدّعي طاقةً على البقاء في عالمها إلّا طفلٌ صغير. فهل نحن، يا شعب العراق الأبّي والغيور، هل نحن شعبٌ نائم، فاقدّ للوعي، ومسلوب المشاعر والأحاسيس؟! أم أنّنا طفلٌ صغيرٌ مدلّل، يغترّ بالمظاهر والألوان الزاهية، ولما تعاركه الحياة ويعاركها بعدد؟! إنّ النظرة الثانية، وإنّ بدت سوداء قاتمة، وإنّ كانت تميل إلى التشاؤم الكريه، إلّا أنّها نظرةٌ فيها من صوْت العقل والحياة والواقعيّة الشّيء الكثير..

إذ هلاًّ تساءلنا، بيننا وبين أنفسنا، عن مساعدةٍ أو هبةٍ قدّمت يوماً إلى أحد البلدان الفقيرة من قبل إحدى القوى العظمى، أو حتّى من قبل البنك الدوليّ، ولم تتحوّل هذه الهبة والمعونة، وفي فترةٍ قصيرة، إلى عبءٍ يُثقل كاهل المواطنين في هذا البلد، ويُمعن في المزيد من إفقارهم وتجويعهم؟!!

إنّ الدّول الكُبرى يسرّها ويُفرحها أن تقدّم لنا القروض والهبات، بمختلف عناوينها وأسائها، كيف لا؟! وهي بذلك تضمن أنّنا سنكون مطالبين بسدادها أو ببذلٍ مقابلها، عاجلاً أم آجلاً، وحيث إنّنا، بالطّبع، لن نتمكّن من التسديد في الفترة المنظورة، فلن يبقى أمامنا إلّا الخيار الثاني، وهو: أن نبذل لها العوض والمقابل، وهو، في الأعمّ الأغلب، شروطٌ سياسيّة وأمنيّة .. ممّا سيجعل كلّ المساعي والجهود التي نبذلها تصبّ في خدمة مصالح تلك الدّول، وعلى حساب

مصالحنا الوطنيّة المشروعة.. وهو ما سينعكس ركوداً وتعطيلاً في قسم كبير من المرافق الاقتصاديّة الحيويّة النّاشطة في بلدنا، ليُنْفِضي فيما بعد إلى أن يُمَيّن على الوجدان الشّعبيّ والوطنيّ شعوراً ساحقاً بالضعف وانعدام الثقة، وبأنّهم في حاجة ماسّة إلى التماس شفقة العالم واستدراار العطف الدّوليّ، ومبادرتهم إلى استقدام الشّركات الأجنبيّة الضّخمة، والتي، وبلا تردّد، ستُعْلَن من جانبها: أنّها تتعاطف مع إرادة الشّعب ومطالبه، وأنّها على أتمّ الاستعداد لتلبية هذه الرّغبة الشّعبيّة العارمة.. وهكذا تأتي هذه الشّركات، برساميلها الضّخمة، إلى أسواق ذلك البلد، بعد أن يكون الاحتلال قد مهّد لمكوّنها فيه مدّة مديدة من دون منازع أو منافس، أو حتّى أمل في القدرة على المنافسة.

والخلاصة: إنّ القروض والهبات والمساعدات والمعونات، كلّها، ستتحوّل إلى ديونٍ ثقيلةٍ يرزح الوطن كلّها تحت نيرها ووطأتها، حتّى لا يبقى له مخرجٌ ومخلّصٌ منها إلّا الرّضوخ التام لإرادة الخارج، والتبعية المطلقة للسياسات الكُبرى، والارتهان وفقدان السيادة، وبعد هذا كلّها، فهل يبقى الوطن وطناً وهو لا يقوم إلّا بسيادة أبنائه وخياراتهم عليه؟!

إنّ المشروع الوحيد الذي يجوز لنا تمريره والسّماح بانعقاده بيننا وبين أيّ طرفٍ دوليّ مُحْتَل، إنّما هو اتّفاقيّة الانسحاب الشّامل الفوريّ واللامشروط. وأمّا مبالغ القروض والمساعدات، ومهما كبر حجمها، فليست، على فرض صدق النّوايا الأمريكيّة، حلاًّ وطنيّاً ناجعاً وموفّقاً، لأنّها وإنّ أسهمت - ظاهريّاً - في رفع بعض المشاكل الآنيّة، إلّا أنّها في معرض أن تستتبع عواقب وخيمة لا يُمكن التغاضي عنها.

ثمّ لماذا يحتاج العراقيّون إلى المساعدات الخارجيّة؟! أليس في خيرات بلادهم، وما أنعم الله عليهم من الثروات الوفيرة والكنوز الثمينة التي جذبت إليها أنظار الطّامعين، أليس في ذلك كلّ رصيدٍ يكفيهم،

ويسدّ حاجتهم، ويكفل لهم النهوض والرقي والتقدّم والازدهار، من دون منّة لأحد، ومن دون ارتهانٍ ولا تبعيّة ولا تأثّر ولا انقياد؟! ولماذا لا توفر أمريكا على نفسها كلّ هذا العناء فتُفرّج للعراقيين عن منابع النّفط وآباره ليتصرّفوا بها كيفما شاؤوا؟!

وأنتى للمحتلّ، الذي عرف القاصي والداني، أغراضه المكشوفة من السيطرة التامة على منابع النّفط وآباره، أنتى له، وهو الذي جاءنا لنهّب موارد الطّاقة عندنا، والتي هي ضمانٌ لمستقبلنا، وحقٌّ حضريٌّ لنا ولأجيالنا الآتية، أنتى له أن يكون صادقاً عندما يزعم لنا، ويحلف الأيمان المغلّظة، بأنّه راغبٌ في مساعدتنا والوقوف إلى جانبنا وتقديم يد العون لنا، وأنّه ساعٍ وراء صداقةٍ وتعاونٍ طويلٍ الأمد؟!!!!

وأما من لم يقتنع بعد بزيف المزاعم الأمريكيّة، ومن يُنظر لنا بدول الخليج، والازدهار والتطوّر والرقي والتمدّن الذي شهدته هذه الدّول ببركة العصر الأمريكيّ، والرّفاهيّة التي تتمتع به شعوبها نتيجة لاتّفاقيّاتٍ مشابهة، فيكفيها أن نُحيله إلى السّؤال التالي، ولْيُجب هو عنه، بما يُمليه عليه ضميره وإنصافه: فأين هو - يا تُرى - الموقع البارز والمنافس الذي تحتله منتجات الصّناعة الخليجيّة في الأسواق العالميّة، أعني: المنتجات التي تليق بها، كدولٍ حرّة، مُعتدلة، نفطيّة، آمنة، مسالمة؟!!! إنّنا لا نرى لها عيناً ولا أثراً... بل في العصر الأمريكيّ، في شرقهم الأوسط الجديد، فيما أن تتحوّل المنطقة إلى قواعد عسكريّة ضخمة، تنطلق منها أمريكا وإسرائيل في هجماتها الوحشيّة الشرسة والمجنونة، وإلى سوقٍ استهلاكيّ ضخمٍ مفتوحٍ على مصراعيه.. وإما أن تُصبح مهبطاً للفدائف الذكيّة، أو ساحةً مفتوحةً أمام خفافيش الظلام والإرهاب..

ولنُسلّم جدلاً بأنّ الولايات المتّحدة صادقةٌ حين تزعم الرّغبة في رؤيتنا نتطوّر ونزدهر ونتقدّم، فهل تُراها تقبل أو تسمح لنا بأن نكبر لوحدا، أو بأن

نتطوّر بمفردنا، بعيداً عنها وعن متناول تدخلاتها السّافرة؟! ثم هل سيكون من حقّ العراقيّين أن يعقدوا الصّفقات أو أن يستدرجوا العروض التجاريّة التي يرونها مناسبة لهم، مع أية دولة أو طرف، قبل أو دون استشارة السيّد الأمريكيّ، أو على خلاف رغبته وما يريد؟! أم أنّ العروض والصّفقات والبضائع الأمريكيّة، التي تستولي على معظمها شركات صهيونيّة، هي الوحيدة المسموح لها بالانتشار في المراكز التجاريّة والأسواق العراقيّة؟!!

ج. المجال الأمنيّ:

إنّ كلّ من يطّلع على بنود هذه الاتّفاقيّة، يلفت انتباهه كيفيّة صياغتها وطريقة ترتيبها، فالألفاظ التي اختيرت فيها ألفاظٌ منمّقة، والترتيب الذي اتّبعت: أنّها قدّمت الكلام في البنود الدبلوماسية والثقافيّة والماليّة والاقتصاديّة على الكلام في البنود الأمنيّة، حتّى إنّها لا يقرأها قارئٌ إلّا ويقول في قرارة نفسه: مسكينة هي أمريكا، كم تقدّم من توضّحات حين عرضت على العراق اتّفاقيّة لن تجلب لها سوى المتاعب والمشاكل والالتزامات!!! حتّى كأنّ العراق لم يُقدّم من جانبه شيئاً، وأنّ كلّ الكرم الذي ستُعده أمريكا علينا، هو كرمٌ مجانيٌّ لا تطلب له مقابلًا.

ولكنّا، وما أن نصل إلى البنود الأمنيّة والعسكريّة، حتّى تتكشف لنا النوايا الحقيقيّة، وتتجلّى أمام نواظرنا الأثمان الباهظة التي تطلبها الإدارة الأمريكيّة مقابل كرمها، الذي لم يتعدّ - كما رأينا في البنود السّابقة - الوعود والشكليات، والثمن بسيطٌ، وهو:

«تتولّى الحكومة العراقيّة طلب تمديد ولاية القوّات المتعدّدة الجنسيات للمرّة الأخيرة، واعتبار موافقة مجلس الأمن على اعتبار أنّ الحالة في العراق لم تعد - بعد انتهاء فترة التمديد المذكورة - تشكّل تهديداً للسّلام والأمن الدّوليّين، وما ينتج

عن ذلك من إنهاء تصرف مجلس الأمن بشأن الحالة في العراق وفق الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، بما يُعيدُه إلى وضعه الدّولي والقانوني السّابق لصدور قرار مجلس الأمن الدّولي رقم ٦٦١...».

وفيما يلي تساؤلاتٍ سريعة نضعها برسم الشّارع العراقيّ:

- لقد شنت أمريكا هجومها العسكريّ على العراق ومن دون أن تبالي أو يرفّ لها جفنٌ لمعارضة (الشّرعية الدّولية) و(الرأي العامّ العالميّ) لها، ولكنّها لاحقاً، وبسبب ثقلها العالميّ وعلاقتها الدّولية الضّخمة وسيطرتها على كلّ المنظّمات الدّولية تقريباً، تمكّنت من فرض الإطار الشّرعّي الدّوليّ الذي يقنّن وجودها في العراق، تمثّلت في إصدار مجلس الأمن الدّوليّ قراراتٍ أطّرت الوجود الأميركيّ في العراق بهالة من الشّرعية، وأدخلت العراق تحت البند السابع، وحوّلت العنوان: من القوّات الأميركيّة المحتلة، إلى: القوّات المتعدّدة الجنسيّات التي جاءت لمساعدة العراق وأبنائه على النهوض.. وهنا نسأل:

ألم يحن بعدُ الأوان الذي يتولّى فيه العراقيّون أنفسهم سلّطة بلادهم ومهمّة حفظ الأمن فيه؟!!

أوليس هذه الاتّفاقية تأطيراً وشرعنةً جديدةً للوجود الأميركيّ المحتلّ في العراق، ولمدّة غير محدودة، وإلى أجل غير مسمّى؟! هل كانت هذه الاتّفاقية امتثالاً لرغبةٍ عراقيّةٍ بحثت كما يقولون؟! أم أنّ مصالح أمريكا وخروجها من المأزق الخانق، الدّاخلّي والعالميّ، الذي أوقعت نفسها فيه، من جهة، واشتداد الضّربات التي تسدّدها المقاومة العراقيّة، على اختلاف انتهاءاتها، والوضع النّفسيّ المأزوم والخرج لجنودها، والصّيحات التي علت وارتفعت مناديةً بضرورة خروجها من العراق، من جهةٍ أُخرى، هي التي فرضت على الإدارة الأميركيّة أن تفكّر في إطارٍ آخر يُكسب قوّاتها واحتلالها والتواجد العسكريّ لها الشّرعية العراقيّة، فكانت هذه الاتّفاقية بتفكيرٍ أمريكيّ،

وصياغة أمريكية، وأغراض ومصالح، هي أيضاً: أمريكية؟! وهل ستكون العلاقة بين العراق وأمريكا بعد توقيع هذه الاتفاقية الطويلة الأمد - لا سمح الله - أفضل وأحسن حالاً من علاقتها بكوريا الجنوبية مثلاً، علماً أنه لا تزال هناك قواعد أمريكية جاثمة على أراضي وشعوب هذا البلد، منذ العام ١٩٤٥ وإلى يومنا الحالي؟! أم سيكون العراق أقوى وأحسن حالاً من اليابان، الدولة العظمى ذات الاقتصاد القوي، التي لا يزال الجندي الأمريكي يتمتع فيها بالحصانة الكاملة، من دون أن يُباح لأهل ذلك البلد وحكومته أن تُخضعها للمساءلة القانونية؟!!

بنود سرّية؟!!

هذا كله.. ولما نلج بُعداً إلى البنود السريّة لهذه الوثيقة، التي قامت بنشرها أكثر من وسيلة إعلامية مطلّعة، أمريكية وغيرها^(١)، وفيها:

- السماح لواشنطن بإقامة قواعد عسكرية دائمة في العراق.
- امتلاك القوّات الأمريكية، والشركات الأمنية والمدنية والعسكرية المتعاقدة معها، الحصانة الكاملة من أية ملاحقة أو محاسبة قضائية وقانونية.
- إطلاق يد القوّات الأمريكية في الحركة والمرور، من دون أن يحقّ للحكومة العراقية بالتدخل في تحديد المساحة المشغولة للمعسكرات الأمريكية أو الطرق التي تستعملها.
- يحقّ للقوّات الأمريكية بناء وامتلاك المراكز الأمنية، بما فيها: السجون والمعتقلات الخاصة، التي تديرها وتُشرف عليها هذه القوّات، حصراً، حفظاً للأمن.
- يحقّ لهذه القوّات اعتقال ومحاكمة أيّ عراقيّ ترى فيه تهديداً للأمن والسّلم، دون الحاجة إلى استشارة الحكومة العراقية، فضلاً عن انتظار إذنها

وإجازتها.

- لهذه القوّات أيضاً: الحرّية باتخاذ القرار في ضرب أيّة دولة تهدّد الأمن والسّلم العراقيّ والعالميّ والإقليميّ العامّ، على أن يُسمح لهذه الضّربات بأنْ تنطلق من الأراضي والأجواء والمياه العراقيةّ.

- لا يجوز للحكومة العراقيةّ أن تُجري أيّة معاهدةٍ أو تؤسّس لأيّة علاقةٍ دوليّة وإقليميّة، إلّا بعد إعلام الإدارة الأمريكيّة والمشورة معها مُسبقاً.

- بقاء وزارة الدّفاع والدّاخلية والاستخبارات العراقيةّ تحت إشراف القوّات الأمريكيّة وسيطرتها لمُدّة عشر سنوات.

- لا سقف زمنيّ لبقاء القوّات الأمريكيّة على أرض العراق، بل المجال لذلك مفتوح وطويل الأمد، وهو رهْنٌ بتحسّن أداء المؤسّسات العراقيةّ الأمنيّة والعسكريّة والقضاء على الإرهاب وعلى أخطار الدّول المجاورة وتوفّر الإجماع السّياسي على خروج القوّات الأمريكيّة.

وختاماً نقول:

إنّ هذه الشّروط المهينة والاتّفاقيّة المذلّة لا يُمكن أن تؤدّي إلّا إلى ارتهان العراق ومصيره بالأطماع الاستعماريّة الأمريكيّة التي لا تنتهي ولا تقف عند حدّ، واستعباد شعبه ورزوحهم تحت خطّ الفقر، وتحول العراق إلى ساحةٍ للصّراعات الدّوليّة والإقليميّة والدّاخلية...

فالله الله في هذا البلد الجريح، والله الله في هذا الشّعب المسكين... وعلى الجميع أن يهبوا لإعلان احتجاجهم ورفضهم على توقيع هذه الاتّفاقيّة وتميرها. وإنّا إذ نُهيب بالشّعب العراقيّ البطّل، وبوعيه، وضميره الحيّ، وقلّبه النَّابض حرّية ومقاومة وإباء، أن يكون على مُستوى التحديّ في هذه المرحلة، كما كان كذلك دائماً، في كلّ مرّةٍ أو حقبةٍ تاريخيّةٍ كان العراق يتعرّض فيها لهجمات الاحتلال وضربات الاستعمار.. نرفع أيدينا بالدّعاء، راجين المولى عزّ

وجلّ، أن يحفظ العراق وأهله من كلّ خطرٍ وسوء، وأن يدفع عنه وعن الأُمّة
جمعاء كلّ غمّةٍ وبليةٍ. إنّه سميعٌ مجيب.

* * *

الهوامش:

(١) ممّن كشف عن تفاصيل هذه البنود في الوثيقة السّريّة: جريدة: الواشنطن بوست، في عددها
الصّادر بتاريخ: ١٢/١٠/٢٠٠٧. وجريدة الشّرق الأوسط: ١٧/٩/٢٠٠٧، وجريدة الحياة:
٢٥/١٠/٢٠٠٧، موقع مؤسّسة راند الأمريكيّة، موقع شبكة أخبار العراق، موقع كتابات هدى
الحسينيّ،...

العواقب الوخيمة

لخارطة طريق الاستبداد

(القسم الأول)

□ الأستاذ: هلال آل فخر الدين (*)

يُرجع بعض المؤرخين والمحلّلين المتنوّرين فكرة السُّقوط العربي من الأندلس إلى بغداد في انهياراتٍ متتاليةٍ للحواضر الإسلامية، وانهيار الحضارة تحت أقدام المغول القدماء والجدد، إلى سببٍ واحدٍ، وهو الاستبداد، وإلاّ فلماذا بتنا نحن دون أمم الأرض لقمةً طريّةً تمزّقها أنياب الغزات، وتقضمها ضروس المحتلّين؟!

وقبل الإجابة على هذا السؤال، لا بدّ أن نعود إلى التاريخ لنستقرئه، ونلاحظ كيف يصنع الاستبداد فينا؟ ومن يصنع الطغاة؟!

وهنا لا بدّ من استرشاف القديم والحديث حتّى نرى صورتنا، لا من أجل استعادة لحظاتٍ قاسيةٍ في عمر هذه الأمة، بل لنضع هذا كُله في مرآة اللّحظة

(*) باحث إسلامي.

الراهنّة؛ لعلّنا نرى ونعرف ونتفهّم ونعي ما نحن عليه من (مدجن مشاكل)...

تشخيص تراثي (الحسن البصري):

لعلّ دليلنا في هذه الرحلة هو العلامة صاحب الباع الطويل المعروف، الحسن البصري.

وواقعنا المرّ التعيس هذا يعزوه الفقيه البصري ويؤكّده بالقول: «أفسد أمر هذه الأئمة اثنان: عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف، والمغيرة بن شعبة حين أشار على معاوية بالبيعة ليزيد، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة»^(١).

وكان الرجلان من أركان دولة معاوية، فالأول: ابن العاص، كان يطمع في إمارة مصر، وعقد صفقة مع معاوية لينقذه في معركة صفين من هزيمة محققة على يد عليّ بن أبي طالب عليه السلام بخدعة رفع المصاحف على أسنة الرّماح، واللّجوء إلى التّحكيم.. وأمّا الثاني: المغيرة ابن شعبة، فقد اختطف لنفسه ولاية الكوفة بعد مقتل عليّ، وأشار على معاوية بأخذ البيعة لابنه يزيد من بعده، وكانت تلك أطول بيعة في تاريخ الإسلام، وكان معاوية يحكم دولة الإسلام من شمال أفريقيا حتّى جورجيا وآذربايجان وخراسان، بعد أن اغتصب الخلافة اغتصاباً بحدّ السّيف، وجاء المغيرة عارضاً خدماته على سيّده معاوية بعدما علم بأنّه سيعزله من ولاية الكوفة، فأراد أن يجابي معاوية حتى يبقيه، فأشار عليه بأمر البيعة التي ظلّت سارية إلى الآن دستوراً جامعاً مانعاً للمستبدّين وأعوانهم، فقد هيأ معاوية المسرح حين توالّت عليه الوفود، وكانت الأدوار موزّعة على الجميع من زبانيّة ومرتزفته؛ إذ اتّفق الضّحّاك بن قيس الفهري على أن يعقّب على كلامه بالدّعوة إلى البيعة، ويحثّه عليها، كأنّ معاوية لا يريدّها، وتحدّث الضّحّاك قائلاً: «يا أمير المؤمنين، إنّ لا بد للنّاس من والٍ بعدك، ويزيد

ابن أمير المؤمنين في حسن هديه، وقصد سيرته على ما علمت، من أفضلنا حلماً، وأعلمنا وأبعدنا رأياً، فولّه عهدك، واجعله لنا علماً بعدك، ومفزعنا نلجأ إليه، ونسكن إلى ظلّه»^(٢).

وكان يزيد سكّيراً مستهتراً، ومع ذلك قام عمر بن سعيد الأشدق ليقول: «أيها الناس، إنّ يزيد أملٌ تأملونه، وأجلٌ تأمنونه، إنّ افتقرتم إلى حلمه وسعكم...»^(٣).

وبعد هذا الإطراء والفتاوى بتوليته من أهل الحلّ والعقد، كان لا بدّ من القوّة الإجرائية المنفّذة المرهبة، فوقف يزيد بن المقفع العذري قائلاً: «هذا أمير المؤمنين - وأشار إلى معاوية - فإن مات فهذا - وأشار إلى يزيد - ومن أبى فهذا، وأشار إلى السيف»^(٤).

كان ابن المقفع صنفاً من رجال الدولة فما بال المثقفين في مثل هذا الموقف؟! فهذا أحد حكماء العرب (الأحنف بن قيس) نموذجٌ دالٌّ على المثقف الذي يمثّل المعارضة الرّخوة، فعندما سأله معاوية عن رأيه في يزيد؟ قال: «نخافكم إنّ صدقنا، ونخاف الله إنّ كذبنا، وأنت أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلايته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه خيراً للأمة فلا تشاور فيه، وإن كنت تعلم غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائرٌ إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول: سمعنا وأطعنا»^(٥).

ومن هنا نرى أنّ مواقف المعارضة الرّخوة تنحاز إلى النظام في أوّل مواجهة بين الحاكم والمعارضين، وتتبين بسرعةٍ مقولة الشرعية الخادعة، وهي في الحقيقة تخشى على مكاسبها ومكانتها القريبة من دائرة الحكم وصنع القرار.. ولا يبقى في الميدان مقارعٌ ومكافحٌ غير الحرّ الأبّي الذي لا يرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظّالمين إلّا برماً..

الذين يهبون بتصميمهم على شهادة الرّوح الحياة للأمة.. لكن ما أندر هؤلاء

في كُلِّ عصرٍ ودهرٍ..

تشخيص عصري لداء الاستبداد

وفي القرن الماضي أواخر أيام الاستبداد العثماني الذي جثم مئات السنين بييد وبقهر، مخيماً بكابوس التخلُّف والتَّحجُّر، ظهر الفيلسوف المتحرِّر الشَّيخ عبد الرَّحمن الكواكبي الذي شنَّ حرباً لا هوادة فيها على الطُّغاة والطَّغيان من خلال كتبه (أمَّ القرى) و(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد).

وهنا يوضِّح العلامة الكواكبي في كتابه (طبائع الاستبداد) من اعتماد المستبدين والاستبداد على لوازمه من الجهل والتَّطرُّف، ويمجِّد العلم والتنوير لكاشف دياجير الظَّلام والظلاميين: «المستبدَّ لا يخاف من العلوم الدِّينية المتعلِّقة بالمعاد؛ لاعتقاده أنَّها لا ترفع غباوة، ولا تزيل غشاوة، وإنَّما يتلَّهى بها المتهوسون.. لكن ترتعد فرائص المستبدِّ من علوم الحياة، مثل الحكمه النَّظريَّة والفلسفة العقلية وحقوق الأمم أو السِّياسة المدنيَّة .. وغيرها من العلوم الممزَّقة للغيوم .. المبسَّقة للشَّموس، المحرَّقة للرؤس».

ويؤكِّد تلميذ الإمام المتنور مُحَمَّد عبده: العلامة الشَّيخ رشيد رضا في مقال له في المنار عدد أغسطس (١٩٠٤)، مشخصاً انحطاط المسلمين وتقهقرهم؛ مُرجعاً إيَّاه إلى عاملين رئيسيين: «إنَّ مرض المسلمين يكمن في أمرين: هما استبداد الحكَّام، والتَّقليد في الدِّين الذي استلزم التَّقليد في كُلِّ شيء. وكلا الأمرين مخالفٌ للإسلام».

فهناك من يذهب إلى التاريخ ولا يعود، وإنَّ عاد فإنَّه يدمرُ حياتنا بمقولات لا تنتمي إلى عصرنا، بأن يغطُّوا على عورات استبدادهم بـ (مجالس الشُّورى) التعيينية في محمَّيات فرسان الاستبداد وأمرء الأعراب؛ ليقال عنهم: إنَّهم يواكبون العصر وتطلَّعاته ومسيرة الدِّيمقراطية .. أو ما تفرزه انقلابات العساكر

و(مجالس قيادة الثورة) البديلة عن الديمقراطية، كما في مفهوم عبد الناصر، أو ما طوّرتة عبقریات الأنظمة الشمولية من مسرحيات زائفة منحطة بحصولهم حتى على أكثر من ١٠٠٪، وحتى على نظم تتشدد بالديمقراطية، وكُلّ مفاصلها غارقة في حضيض الاستبداد والرعب؛ حيث يظلّ الرئيس ونظامه منتخباً ما دام العمر، وإن نزلت به نازلة فالوريث جاهز... وهذا النظام الشرقي للتوريث لا يقف عند الحُكّام فقط، بل إنه يسري حتى على أحزاب وتنظيمات ومؤسسات و.. حيث تبقى الديمقراطية حلماً وأيقونات تزيينية لأقبية الأنظمة.

ولنرجع إلى صلب الموضوع: فقد لجأ معاوية إلى كلّ حيلة ودسيّة، وكُلّ ترغيب وترهيب، حتى كان له ما أراد، وبمباركة (شيوخ الشيطان) لهما؛ لكونه خير سلف لخير خلف.

وليس ذلك إلا لما أتمّم به من الفتات أمثال: (شيخ المضيرة) وأقرانه.. وما أوقره في ركا بهم من أموال جلييلة أعمت بصائرهم في المدينة المنورة وفي المسجد النبوي الشريف..

وفي آخر المطاف له كان له ما أراد من تولية (يزيد) الفسق والفجور والإجرام.. ومَرّت ١٣٧٠ عاماً على هذه البيعة المشؤومة الشهيرة، وما زال الناس يبايعون كلّ يزيد ملكاً أو رئيساً أو أميراً، والسيف على رقابهم.. كلّ شيءٍ تغير، لكنك ستجد في كلّ عاصمة يزيد ومعاوية، ومعاوية قائمٌ يأخذ له البيعة بشراء الدّم وبحدّ السيف...

* * *

الهوامش:

(١) نقل ابن عساكر بإسناده إلى حميد بن منهب، قال: زرت الحسن بن أبي الحسن، فخلوتُ به، فقلتُ له: يا أبا سعيد، أما ترى ما النَّاس فيه من الاختلاف؟ فقال لي: يا أبا يحيى، أصلح أمر النَّاس أربعة، وأفسده اثنان... وأما اللذان أفسدا أمر النَّاس، فعمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف، فحكمت الخوارج، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة. والمغيرة بن شعبة فإنه كان عامل معاوية على الكوفة، فكتب إليه معاوية: إذا قرأت كتابي هذا فأقبل معزولاً، فأبطأ في مسيره، فلما ورد عليه قال له: يا مغيرة، ما الذي أبطأ بك؟ قال: أمرٌ - والله - كنتُ أوطئه وأهينته. قال: وما هو؟ قال: البيعة ليزيد من بعدك. قال: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: ارجع إلى عملك فأنت عليه. فلما خرج من عند معاوية قال له أصحابه: ما وراءك يا مغيرة؟ قال: ورائي - والله - أني قد وضعت رجل معاوية في غرز بغي لا يزال فيه إلى يوم القيامة. قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة». (ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق ٣٠: ٢٨٧، تحقيق: علي شيري، نشر: دار الفكر ١٤١٥، بيروت).

(٢) ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ ٣: ٥٠٧، نشر: دار صادر ١٣٨٥، بيروت.

(٣) ابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي، شرح نهج البلاغة ١٧: ٤٥، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصورة عن الطبعة الثانية ١٣٨٥ للدار إحياء الكتب العربية، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ١٤٠٤.

(٤) القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين عليه السلام ٢: ٢٠٣، الطبعة الأولى ١٣٩٥، مطبعة الآداب، النجف الأشرف.

(٥) ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ ٣: ٥٠٨، مرجع سابق.

ظاهرة الشيعة - فوبيا

أخطر داء يصيب الوعي العربي

□ الأستاذ: ناصر البفيتي (*)

المحور الأول:

من خلال متابعتي المستمرة لوسائل الإعلام المحليّة والعربية، لاحظت أنّها تتعمّد تغييب العقل والواقع في مقابل استحضر العاطفة والأسطورة عند مناقشة أيّ موضوع له علاقة بالشيعة.

حتّى أصبح الشيعة في أذهان الكثيرين كائنات غريبة تختلف طبائعها عن طبيعة بقية البشر. فهم يتميّزون بالقدرة الفائقة على التآمر الجماعي - وعبر مئات السنين - بدون أن ينكشف أمرهم بسبب استخدامهم مبدأ التقيّة. فهم يتظاهرون بالإسلام، ويظهرون الاعتراف بالقرآن، ويحرصون على حيازته ودراسته بهدف التّمويه، إلّا أنّ لديهم قرآناً آخر يُسمّى بمصحف فاطمة، ولكنهم لا يظهرونه لأحدٍ من غير ملّتهم حتّى لا ينكشف أمرهم.

فالشيعة هم سبب بلاء هذه الأمة، نتيجة لأحقادهم الدّينية ومؤمراتهم الخبيثة، فهم سبب كلّ الفتن التي ألمّت بالمسلمين من زمن مؤسس مذهبهم:

(*) ناشط سياسي وحقوقى يمني مقيم في كندا.

عبد الله بن سبأ إلى يومنا الحاضر، وهم أيضاً سبب سقوط بغداد في أيدي المغول، وهم من تعاون مع الصليبيين ضد صلاح الدين، وهم سبب سقوط بغداد بيد الأمريكان.

أمّا ما يُقال عن مقاومة حزب الله الشيعي لإسرائيل، فإنّ ذلك لا يعدو كونه تمثيلية تمّ الاتفاق عليها بين الشيعة واليهود من أجل خداع عامّة أهل السّنة والجماعة، عبر إظهار الشيعة بمظهر المدافعين عن الإسلام من أجل أن يتسنّى لهم هدم الإسلام من الداخل، ونشر مذهبهم الضّال. وعلى فرض صحّة مقاومة حزب الله لإسرائيل، فإنّ الهدف من ذلك ليس تحرير لبنان أو فلسطين، وإنّما يهدف خدمة المشروع الصّفوي. والأمر لا يتعدّى كونه تنافساً بين الصّفويّة والصّهونيّة لفرض سيطرتهم على العرب من أهل السّنة والجماعة. وبما أنّ الصّهانية قد تخلّوا عن فكرة دولة إسرائيل الكبرى من النّيل إلى الفرات، فإنّ المشروع الصّفوي أصبح الآن أخطر من المشروع الصّهوني. وعليه: فإنّ الأولوية أصبحت في مواجهة الصّفوية حتّى ولو تطلّب الأمر التّعاون مع الصّهونية.

إنّ هذه المفاهيم عن الشيعة وإيران أصبحت حقائق راسخة في وعي الكثير من العرب، وأصبحت هي الهاجس الرّئيسي الذي يشغل الوعي العربي ويحرّكه؛ لذلك لم يعد مستغرباً ولا مستهجناً أن يعبر الكثير من المسؤولين والمثقفين العرب عن تخوّفهم من تنامي نفوذ إيراني في العراق وفلسطين، وكأنّ المشكلة لم تعد في الاحتلال الأجنبي، وإنّما في تنامي نفوذ إيران في البلدان العربيّة المحتلّة. وقد لاقت تحذيرات سعود الفيصل من تدخّلات إيران وتزايد نفوذها في العراق قبولاً وتأييداً واسعاً. وهكذا أصبحنا أمام وضعٍ عربيٍّ شاذّ يقبل باستخدام أراضيه لاحتلال دولة عربيّة، ويتقبّل التّعايش مع هذا الاحتلال، كما هو الحال في فلسطين والعراق والصّومال، بينما يتحسّس من

وجود أي نفوذ لإيران في هذه الدول. حتى أصبح دعم إيران لضمود الشعب الفلسطيني أمام إسرائيل جريمة وتهمة تحاسب عليها إيران بدعوى أنها تتلاعب بعواطف الشعوب العربية لخدمة مشروعها ومصالحها، فيا ترى! كيف يكون الموقف من إيران لو أنها هي من احتلت العراق أو أفغانستان أو الصومال؟!

ونتيجة لإصابة الوعي العربي بمرض الشيعة - فوبيا، بمعنى الخوف المرضي من الشيعة، بدأت دول الخليج والدول العربية المعتدلة بعقد صفقات أسلحة بمليارات الدولارات بالتزامن مع الإعلان عن مساعدات عسكرية لإسرائيل، وبمليارات الدولارات أيضاً؛ بهدف إعداد الدول العربية وإسرائيل لمواجهة إيران وحلفائها في المنطقة.

يتضح لنا مما تقدم: أن أمريكا قد نجحت في تغييب خطر المشروع الصهيوني الأمريكي عن الوعي العربي، ونجحت في غرس ما يُسمى بخطر المشروع الصهيوني مكانه. بل إن الأمر وصل حد خلق صورة إيجابية للمشروع الصهيوني - الأمريكي في وعي العرب، بكونه أصبح الوسيلة الوحيدة لحمايتهم من المشروع الصهيوني.

ولعل تصريحات وزيرة الخارجية الإسرائيلية في مؤتمر الدوحة تعبر عن هذا الواقع الجديد؛ حيث قالت: «نحن المعتدلون في المنطقة كُلُّنا أعضاء في المعسكر نفسه لمواجهة التحدي نفسه الذي يرفعه أماننا المتطرفون». والملفت أنها استخدمت كلمة (نحن) للتعبير عن إسرائيل والعرب، أما (الآخر) الذي يجب مواجهته، فتقصد به إيران وحلفاءها؛ حيث قالت: «من المصلحة المشتركة للمنطقة العمل معاً ضد التطلعات النووية لإيران»، وقالت أيضاً: «إيران تحاول تقويض أنظمة أخرى، وتعمل مع عناصر شيعية مثل حزب الله، كما تدعم حماس».

ورغم التعارض الصارخ بين مشهد تصريحات ليفني في مؤتمر الدوحة وهي

تلقن المسؤولين العرب الدروس، وبين مشهد الحصار والقصف الوحشي الذي تتعرض له غزة، إلا أن هذا الواقع الشاذ أصبح مقبولا في الوعي العربي المرعوب من إيران والشيعة.

وهذا يؤكد أن مشروع الشرق الأوسط الجديد الذي أعلن عنه بوش قبل غزو العراق قد تحقق، ولم يفشل كما يعتقد الكثيرون. وقد عبّر الدكتور أبو بكر السقاف بشكل دقيق عن نجاح المشروع الأمريكي حين قال: «لقد نجحت أمريكا في تعريب وأسلمة صراعها مع إيران».

المحور الثاني:

في المحور السابق من هذا المقال، سعت لإبراز وتحديد ظاهرة الشيعة - فوبيا؛ ليتمكن القارئ من رصدها، وفي هذا المحور سوف أحاول رصد العوامل التي ساهمت في تضخيم هذه الظاهرة. ويمكن تقسيم هذه العوامل إلى ثلاث مجموعات: عوامل نفسية مرضية، وعوامل نفسية طبيعية، بالإضافة إلى الخلل المعرفي حول الشيعة.

العوامل النفسية المرضية:

العامل الأول: التبرير

عندما تتعرض أي جماعة إنسانية للهزيمة، وتعمق لديها مشاعر العجز عن المواجهة فإنها تبحث عن مبررات لتبرير هزيمتها وعجزها، في محاولة للهروب من تحمل المسؤولية، وللحفاظ على شعور - ولو زائف - بالكرامة والكبرياء. فمثلاً: علق معظم المواطنين العرب آمالاً كبيرة على انتصار العراق في حرب الخليج الأولى والثانية بدافع العاطفة القومية والدينية. ولأن المواطن العربي كان يجهل أو يتجاهل انعدام مقومات النصر، فقد كان وقع الهزيمة مؤلماً؛ لذلك

تقبّل المواطن العربي بسهولة دعوى تحميل الشيعة مسؤوليّة الهزيمة بسبب خيانتهم رغم أنّ انتفاضة الشيعة في جنوب العراق عام ١٩٩٢ بدأت بعد أيام من توقيع اتفاق وقف إطلاق النار، ورغم أنّ احتلال أمريكا للعراق عام ٢٠٠٣ قد انطلق من البلدان العربيّة التي تحكمها حكومات سنيّة.

العامل الثاني: الحسد

نتيجة للهزائم العربيّة المتكررة، ونتيجة لاستمرار اختلال موازين القوى لصالح إسرائيل، بدأت تنتشر ثقافة العجز الداعية للخضوع وتقبّل الأمر الواقع بحجة استحالة القدرة على المواجهة. وفي ذروة ازدهار الخطاب الاستسلامي أو الانبطاحي - كما يخلو للبعض تسميته - برزت على الساحة قوّة جديدة ممثلة بإيران الثوّرة، استطاعت بإمكاناتها المحدودة وتخطيطها الجيد أن تثبت إمكانية القدرة على الصمود والمواجهة، بل إنّها تحولت إلى كابوسٍ مربعٍ يقضّ مضاجع إسرائيل التي طالما أرعبت العرب، وإلى تحدٍّ قويٍّ يهدد المشروع الإمبراطوري الأمريكي برمته، والقائم على السّيطرة على الشرق الأوسط ومنابع النفط. لقد تسبّب هذا البروز المفاجئ والنّاجح في إثارة نوعين متناقضين من المشاعر في وعي المواطن العربي. فقسمٌ منهم: تغلّبت عليه مشاعر الأمل فأصبح من المؤيدين لإيران ومن الدّاعين لتقليد نموذجها، والقسم الآخر: تغلّبت عليه مشاعر الغيرة والحسد، فأصبح من المعاندين لها، ومن الدّاعين إلى مواجهتها بحجّة أنّها تمثّل خطراً أكبر ممّا تمثّله إسرائيل. ولعلّ أبرز مثالٍ على مشاعر الغيرة والحسد: ظهور فتاوى تحرّم مجرّد الدّعاء لحزب الله في أثناء حربه مع إسرائيل بحجّة أنّه حزبٌ شيعيٌّ مدعومٌ من إيران!!

العوامل النفسيّة المرضيّة:

وهي عوامل ذات أبعادٍ نفسيّةٍ ولكنّها طبيعية إذا لم تتجاوز حدوداً معيّنة،

ويمكن تقسيمها إلى عاملين:

١. نتيجة لدخول العديد من التقنيات الحديثة في صميم حياتنا، من مواصلات واتصالات وإنترنت وتلفاز وصحف ومجلات وكتب وغيرها، فإنها قد ساهمت في زيادة مساحة التماس والاحتكاك المذهبي بين السنة والشيعة. وهذا ساهم بدوره في زيادة نسبة التحوّل المذهبي، سواء من التشيع إلى السنن أم من السنن إلى التشيع. ونتيجة لاختلال ميزان التحوّل المذهبي لصالح الشيعة، وبشكل ملفتٍ، ولأسباب عديدة لسنا في مجال ذكرها، فإن هذا قد ولد مشاعر عدم الرضا لدى السنة. وهذه المشاعر طبيعية حيث إنّها تختلج نفوس أتباع أيّ مذهبٍ أو ديانة. وما يُخرج هذه المشاعر عن حدودها الطبيعية إلى حدودها غير الطبيعية، هو تحوّلها إلى تصرّفات هستيرية. وأبرز مثالٍ على ذلك هو: تلك التصريحات والدراسات التي تحذّر من انتشار المذهب الشيعي، وتدعو إلى فرض حظرٍ على الفكر الشيعي، وتشديد الحصار والرقابة على أتباعه حتى لا ينتشر مذهبهم. وهذه التحذيرات تصدر أحياناً بصيغٍ صريحة، مثل التحذير من الاختراق الشيعي لمناطق أهل السنة والجماعة، من تمدّد الأخطبوط الشيعي، من الهلال الشيعي، من تمدّد نفوذ إيران في المنطقة، وأحياناً أخرى تصدر بصيغٍ مشفّرة غاية في الإبهام؛ بحيث يصعب على المنصفين رصدها، في الوقت الذي يسهل على المتعصّبين فهمها من أجل العمل على تنفيذها، وأبرز مثال على ذلك: هو ما أعلن عنه مجلس الوزراء السعودي، برئاسة الملك عبد الله، قبل أيام: من تصدّي المملكة للأخطار المحدقة ببعض الأقطار العربية، والتي تهدّد وحدتها الوطنية، وتعرضها للهيمنة الخارجية والإقليمية، وتستهدف تغيير تركيبها الاجتماعيّة. والمقصود بالهيمنة الخارجية والإقليمية هي إيران، أمّا التهديد الذي يستهدف تغيير التركيبة الاجتماعية لهذه الدول فهو انتشار التشيع.

٢. عندما تتعوّد آية جماعة إنسانية على امتيازاتٍ معيّنة على حساب جماعةٍ إنسانيةٍ أخرى تشاركها العيش في نفس المحيط، فإنّه يصعب على تلك الجماعة قبول التنازل عن تلك الامتيازات فجأة، حتّى ولو كان ذلك من مقتضيات المساواة والعدالة. لذلك نلاحظ معارضةً شعبيةً لنيل الشيعة حقوقهم، ومساواتهم بغيرهم من المذاهب، سواء في الدّول التي يمثل الشيعة فيها الأقلية أم الأغلبية. وهذه الممانعة هي نتيجة لمشاعر طبيعية، ويمكن تجاوزها بمنح الشيعة حقوقهم بصورة تدريجية. وما يُخرج هذه الممانعة عن حدودها الطبيعية إلى حدودها المرضية، هو تحويلها إلى عُقدةٍ نفسيةٍ ترفض تقبّل إعطاء الآخر أيّ حقوق، حتّى في أضيق الحدود. وأبرز مثالٍ على ذلك هو: امتعاض البعض من وقف حرب صعدة نتيجة لعقد نفسيةٍ ترفض وجود الآخر.

المحور الثالث:

من الأسباب المهمة التي ساعدت على انتشار ظاهرة التشيع - فوبيا هو: الخلل المعرفي في ثقافة المواطن العربي حول الشيعة وإيران. والخلل المعرفي هو نتيجة لندرة المعلومات الصحيحة حول الشيعة، في مقابل انتشار الكثير من المغالطات حولهم، والتي أصبحت من المسلّمات في أذهان الغالبية الساحقة من العرب، ويتمّ تداولها وكأنّها حقائق غير قابلة للنقض، بالإضافة إلى شيوع منهج انتقائي في تقييم الشيعة. وسوف أقصر هنا على تناول المغالطات السياسية والحقوقية، وأتجنب مناقشة المغالطات العقائدية؛ لأنّها تحتاج إلى إطالة.

بعض المغالطات حول الشيعة وإيران:

١. الادعاء بأنّ طهران هي العاصمة الوحيدة في العالم التي لا يوجد فيها جامعٌ واحدٌ لأهل السنة. وقد حيكت حول هذا الموضوع الكثير من القصص الخيالية، والتي يتمّ تداولها كمسلّمات، كالقول بأنّ أهل السنة لا يجدون مكاناً في

طهران لصلاة الجمعة إلا السفارة السعودية والباكستانية إلى أن منعتهم الحكومة الإيرانية من ذلك. أو القول بأن العالم الشيعي المعروف: الشيخ مصباح اليزدي، وفي معرض رده على سؤال حول سبب امتناع الحكومة الإيرانية عن السماح ببناء مسجد لأهل السنة في طهران أجاب قائلاً: «متى ما سمح لنا ببناء حسينية في مكة عندئذ سوف يُسمح لهم ببناء مسجد في طهران».

وكل هذه الادعاءات لا أساس لها من الصحة؛ لأنه يوجد في طهران عشرات الجوامع السنّة، كما يوجد فيها العديد من المدارس الدينية السنّة. ومن الطّريف، أنّ هذه التّهمة تصحّ على البلدان العربية التي ترفض السّماح ببناء مساجد شيعة سواء في عواصمها أم في القرى الصّغيرة، في الوقت الذي تسمح فيه ببناء الكنائس، كما هو الحال عندنا في اليمن.

٢. أصبح ما يُسمّى بالمشروع الصّفوي من المسلّمات في أذهان الكثيرين، رغم عدم توفر أيّ دليل ماديّ أو نظريّ يثبت وجوده. فنحن عندما نتحدّث عن الصّهيونية - مثلاً - فإننا نتحدّث عن تنظيمٍ له مقرّرات ومؤسسات وأعضاء وبرامج ومنظّرون، والشّيء نفسه ينطبق على الماسونية، رغم أنّها تنظيم يشوبه الكثير من الغموض. كما أنّنا لم نسمع إلى حدّ الآن عن أيّ تنظيمٍ أو أيّة شخصيّة تتبنّى الصّفويّة، في الوقت الذي بدأنا نسمع فيه عن تبني الكثير من التّنظيمات والشّخصيات المتطرّفة قضيّة مواجهة الصّفويّة.

يضاف إلى ذلك: أنّ مدّعي وجود الصّفويّة لا يملك تعريفًا محدّدًا لمصطلح الصّفويّة. ومن طرائف هذه الفوضى: هو ترويج البعض لمفهوم جديدٍ يقسم الشّيعيّة إلى قسمين متصارعين: شيعة صفوية، وأبرز ممثليه الخامنئي والسيستاني، وشيعة عرب، وأبرز ممثليه: محمّد حسين فضل الله. وقد سئل فضل الله عن هذا فأجاب بأنّ الصّفويّة لا وجود لها في الواقع.

قد يقول البعض بأنّ الصّفويّة مصطلحٌ يعبر عن المشروع الخارجي للثورة

الإسلامية في إيران.

أقول: إنَّ المشروع الخارجي للثورة الإسلامية في إيران موجود، وبشكل واضح، في أدبيات قادة الثورة ودستورها، وهو يتحكّم في سياسة إيران الداخليّة والخارجيّة، وهذا ما لا تنكره الحكومة الإيرانيّة أو تخفيه. ولكنّي أتساءل: لماذا لا يتمّ دراسة ونقد المشروع الإيراني من خلال أدبيات الثورة ودستورها، ومن خلال سياسة حكومة إيران الداخليّة والخارجيّة، بدون الحاجة إلى استحضار مصطلحات ومفاهيم أسطوريّة؟!

كما أتساءل عن القيمة المعرفيّة التي نحصل عليها بمجرد الاكتفاء بإطلاق مصطلح (الصفويّة) على مشروع الثورة الإسلامية، وكأنّه يفسّر كلّ جوانبها وأبعادها؟! واعتقد أنّ سبب تهرب مناهضي الثورة الإسلامية من مناقشتها بمنهج علمي واقعي يعود لقوّة منهج الثورة في مقابل ضعف حجّتهم. ولإيضاح ذلك، سوف أقدم دراسة نقدية مختصرة حول المشروع الخارجي للثورة الإسلامية في إيران.

يمكن تلخيص المشروع الخارجي للثورة الإسلامية في ثلاثة مبادئ: المبدأ الأوّل: تحقيق الوحدة الإسلاميّة على أساس القواسم المشتركة، وفي إطار الوحدة السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، لا في إطار وحدة المذهب. تقول المادة الحادية عشرة من الدستور الإيراني: «بحكم الآية الكريمة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، يعتبر المسلمون أُمَّةً واحدةً، وعلى حكومة الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة إقامة كلّ سياستها العامة على أساس تضامن الشعوب الإسلاميّة ووحديتها، وأنّ تواصل سعيها من أجل تحقيق الوحدة السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة في العالم الإسلامي».

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، أسست إيران المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة، وفي نفس السياق: تمّ تأسيس جامعة المذاهب في إيران،

وهي تدرّس العلوم الإسلاميّة حسب آراء كافة المذاهب الإسلاميّة، ويدرس فيها أساتذة من مختلف الطوائف الإسلاميّة، وتستقبل طلابها من مختلف دول العالم الإسلامي، ومن مختلف المذاهب، وتتميز خريجوها بإمامهم الكامل بآراء كافة المذاهب الإسلاميّة، رغم احتفاظ كلّ طالب بمذهبه. وهذه الجامعة فريدة من نوعها؛ إذ لا يوجد لها مثل في العالم الإسلامي كلّها. وفي نفس السياق تقدّمت الحكومة الإيرانية في يونيو ٢٠٠٧، عبر سفارتها في مصر، بطلب رسميّ لشيخ الأزهر بإنشاء فرع لجامعة الأزهر في إيران للتقريب بين المذهب السني والشيّعي، وكذلك السماح للطلبة الشيعة بالدراسة في جامعة الأزهر، وكذلك بالسّماح لعدد من أساتذة الأزهر بالتدريس في جامعات إيران، والسّماح لأساتذة الجامعات الإيرانيّة بالتدريس في جامعة الأزهر.

إنّ هذا الانفتاح المذهبي لإيران لا نجد له مثيلاً في بقيّة الدّول الإسلاميّة. فنحن لا نتوقّع أن تسمح الحكومة اليمنية - مثلاً - بإنشاء مدرسة لتدريس المذهب الشّيعي، أو أن تسمح جامعة الإيمان السّلفية لأساتذة شيعة بالتدريس فيها.

المبدأ الثّاني: إنّ مشروع إيران الخارجي، هو نصرة المستضعفين في الأرض ضدّ المستكبرين، بغضّ النّظر عن قوميتهم أو ديانتهم. تقول المادة رقم (١٥٤): «تعتبر الجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة سعادة الإنسان في المجتمع البشري كلّها قضية مقدّسة لها، وتعتبر الاستقلال والحرية، وإقامة حكومة الحق والعدل حقاً لجميع النّاس في أرجاء العالم كافة، وعليه: فإنّ الجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة تقوم بدعم النّضال المشروع للمستضعفين ضدّ المستكبرين في أيّة نقطة من العالم، وفي الوقت نفسه لا تتدخّل في الشّؤون الدّاخلية للشّعوب الأخرى».

وانطلاقاً من هذا الالتزام الأخلاقي لنصرة المستضعفين: كانت إيران في مقدمة الدّاعمين لنضال السّود في جنوب أفريقيا ضدّ نظام التّفرقة العنصرية.

المبدأ الثالث: إنَّ مشروع إيران الخارجي هو تحرير فلسطين، وهذا يقع ضمن أهداف الثورة الإسلامية في إيران.

مما تقدّم، نستشفّ أنّ مشروع إيران الخارجي يتمثّل في تحقيق الوحدة الإسلامية في إطار وحدة الموقف، لا في إطار وحدة المذهب، وفي نصرة المستضعفين ضدّ المستكبرين، وفي تحرير فلسطين. ولأنّ المعادين لإيران لا يستطيعون النّيل من هذا المشروع الأخلاقي؛ لذا يلجؤون إلى اختراع أسماء ومفاهيم أسطوريّة بعيدة عن الواقع، ويحاكمون مشروعها من خلاله حتّى يتمكّنوا من تشويهه. ولهذا الغرض، اخترعوا ما يُسمّى بالصّفوية، رغم أنّ هذا المفهوم ليس له وجود في أدبيات الثورة الإسلاميّة.

٣. الادّعاء بأنّ الدستور الإيراني قد أقصى أهل السُّنّة؛ حيث يتمّ تداول الجزء الأوّل من المادة (١٢) منه، التي تقول: «الدّين الرسمي لإيران هو الإسلام، والمذهب هو المذهب الجعفري الإثنا عشري، وهذا المادة تبقى إلى الأبد غير قابلة للتّغيير». ويتمّ تجاهل بقيّة فقرات نفس المادة القائلة: «وأما المذاهب الإسلاميّة الأخرى، والتي تضمّ المذهب الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي والزّيدي فإنّها تتمتع باحترام كامل، وأتباع هذه المذاهب أحرار في أداء مراسمهم المذهبية حسب فقهم، وهذه المذاهب الاعتبار الرسمي في مسائل التّعليم والتّربية الدّينيّة والأحوال الشّخصية وما يتعلّق بها من دعاوى في المحاكم. وفي كلّ منطقة يتمتع أتباع أحد المذاهب بأكثرية، فإنّ الأحكام المحليّة لتلك المنطقة - في حدود صلاحيّات مجالس الشّورى المحليّة - تكون وفق ذلك المذهب، هذا مع الحفاظ على حقوق أتباع المذاهب الأخرى».

٤. الادّعاء بعدم وجود ممثّل واحد لأهل السُّنّة في مجلس الشورى في إيران، بينما يوجد ممثّلين لليهود والمسيحيين والزاردشتيين. وهذا الادعاء عارٍ عن الصّحّة؛ فإنّ متوسّط عدد النّواب السُّنّة في مجلس الشورى يصل إلى عشرين

نائباً، وذلك حسب نتائج كل دورة انتخابية.

٥. الادّعاء بأنّ القومية الفارسية تضطهد بقيّة القوميات في إيران، ويستدل على ذلك بذكر الجزء الأوّل من المادة رقم (١٥) من الدستور الإيراني، والتي تعتبر أنّ اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية للدولة، ويتمّ تجاهل بقيّة المادة. ونصّ المادة كاملة هو: «لغة الكتابة الرسمية والمشاركة هي الفارسية لشعب إيران، فيجب أن تكون الوثائق والمراسلات والنصوص الرسمية والكتب الدراسية بهذه اللغة والكتابة، ولكن يجوز استعمال اللغات المحليّة والقومية الأخرى في مجال الصحافة ووسائل الإعلام العامة، وتدرّس آدابها في المدارس إلى جانب اللغة الفارسية». وبخصوص اللغة العربية فإنّ الدستور ينص على وجوب تدريسها، كما يلاحظ ذلك في المادة رقم (١٦): «بما أنّ لغة القرآن والعلوم والمعارف الإسلامية العربية، وأنّ الأدب الفارسي ممزجٌ معها بشكل كامل؛ لذا يجب تدريس هذه اللغة بعد المرحلة الابتدائية حتّى نهاية المرحلة الثانوية في جميع الصفوف والاختصاصات الدراسية».

٦. الادّعاء بتعمّد المسؤولين الإيرانيين ومراجع الشيعة الإساءة لرموز أهل السنّة وخصوصاً الخلفاء الثلاثة وعائشة زوجة الرسول ﷺ بدافع إذلال أهل السنّة في إيران. وقد حيكت الكثير من القصص الخيالية حول تلك المزاعم، وهي تتداول كمسلّمات. مثل الادّعاء بأنّ الرفسنجاني عند زيارته لمقام الرسول ﷺ بالمدينة المنورة بصق على قبر أبي بكر وعمر!! ومثل هذه الادّعاءات لا أساس لها من الصّحّة؛ حيث إنّ الحكومة الإيرانيّة تتعامل بحزم مع مثل هذه القضايا نظراً لحساسيتها. وعلى سبيل المثال: حصل خطأ مطبعي في الأوّل من فبراير ٢٠٠٧ في صحيفة «سياست روز» الإيرانية؛ حيث ورد اسم عمر بن الخطاب خطأ في موضوع يتحدّث عن شخصيّة أُخرى، ورغم أنّ الصحيفة اعتذرت في اليوم الثّاني عن هذا الخطأ المطبعي، إلّا أنّ مجلس الرّقابة قرّر حظر

الصَّحيفة وإحالتها إلى المحكمة. وعلى أثر ذلك أصدر خمسة أعضاء من البرلمانين السُّنة بياناً يقول: ما كان ينبغي حظر الصَّحيفة؛ لأنَّها أوضحت خطأها على الفور.

اعتماد أسلوب معرفي انتقائي في دراسة وتقييم الشيعة:

انتشرت في الآونة الأخيرة ظاهرة تصيّد أخطاء بعض المتمين للمذهب الشَّيعي، الأحياء منهم والأموات، وذلك في إطار ما يمكن تسميته بتسجيل النُّقاط. ومصادر هذه الأخطاء: إمّا اجتهادات شاذة لبعض مشايخ الشيعة، أو زلات لسان، أو خطأ في التعبير عن المعنى المراد، أو أقوال صادرة من شخصيات مغرضة، أو من شخصيات جاهلة غير مسؤولة. وبسبب التطوُّر التكنولوجي أصبح من السَّهل الترويج لهذه الأخطاء في كلِّ مكان، وبالصَّوت والصَّورة. وهذه الأخطاء المنتقاة، مضافاً إليها المغالطات التي أشرنا إليها سابقاً، أصبحت هي المصدر المعرفي الرَّئيسي حول الشيعة في ظلِّ الحصار المفروض على الكتب الشَّيعية في معظم البلدان العربية.

خاتمة:

لقد ركزتُ في هذه الدِّراسة على الجوانب السِّياسية والنَّفسيَّة والحقوقية في دراسة ظاهرة الشيعة - فوبيا. ومن أجل إثراء هذه الدِّراسة سوف أتناول لاحقاً عدداً من المواضيع التاريخية التَّالية: سقوط بغداد بيد المغول، عبد الله بن سبأ، صلاح الدِّين والفاطميون، تحريف القرآن، موقف المدرستين من الصَّحابة، وأتمنى أن تفتح هذه الدِّراسة الباب لنقاشٍ موضوعيٍّ حول الشيعة، بعيداً عن العصبيَّة والأحكام السابقة. والله من وراء القصد...

* * *

حقيقة الصراع بين الإسلام والغرب

إطالة على أطروحة هنتجتون

□ الأستاذ: حفيظ الرحمن الأعظمي (*)

لا تزال بعض الأوساط السياسية المقربة من مراكز صناعة القرار في الولايات المتحدة تطلق مقولة صراع الحضارات وصدامها، التي أطلقها صامويل هنتجتون في القرن الماضي، وأنَّ الإسلام هو العدو الحقيقي للغرب... إلخ. مستفيدة من أجواء النَّد لسياسة الولايات المتحدة في العالم العربي بسبب انحيازها المطلق لإسرائيل، وإصرار هذه الأوساط على ما تسميه بحملة الكراهية ضدها، وضرورة فرض الديمقراطية وحقوق الإنسان وتغيير مناهج التعليم في العالم العربي، حيث إنها - كما يقولون - تغذي الإرهاب والعنف عند العرب والمسلمين.

ويرون أنه ما لم يتم تطبيق هذه المضامين، فإنَّ ما طرحه هنتجتون يعدّ طرحاً صحيحاً في إشكالية الصراع بين الإسلام والغرب، في ظل غياب القيم الغربية في الديمقراطية والليبرالية وغيرها من مضامين التَّسامح والانفتاح السياسي والفكري.

(*) باحث أكاديمي، وناشط سياسي باكستاني.

وعندما أصدر البروفيسور (صموئيل هنتنجتون)، أستاذ العلوم السياسية ورئيس أكاديمية هارفرد للدراسات الدولية والإقليمية، كتابه الجديد: (صراع الحضارات وإعادة وضع النظام الدولي)، توقّعت الأوساط السياسية والأكاديمية أن يعيد البروفيسور النظر في أفكاره من خلال أطروحته التي كتبها في مجلة (فورين أفيرز) ١٩٩٣ (الصدّام بين الحضارات)، والتي كانت - بحق - الشرارة الأولى لفتح هذا الملف، وربما الصعوبة في إغلاقه أيضاً؛ والسبب الأقوى: أنّ ما طرحه يعدّ أخطر ما أثير بعد انتهاء الحرب الباردة في هذا القرن. وكان من المفترض أن تتمّ المراجعة بطريقة عقلانية وواقعية، بغضّ النظر عن حاجة بعض المؤسسات في الغرب لمثل هذه الأطروحات وترويجها، والأسباب متعددة ومتوافرة وفق المنظور الاستراتيجي القائم؛ لأنّ ما قيل في هذا الكتاب يعدّ خطراً بكلّ المقاييس، سواء وافقناه فيما طرحه من آراء وتحليلات أم اختلفنا معه.. فالأهمّ أنّ كتاب البروفيسور (هنتنجتون) يسهم في تأجيج الصّراع المفترض، وإعادة طرح العداوات القديمة المدفونة بمفاهيم ونظريات جديدة وافتراسات قد لا تكون صحيحة في الواقع، لكنّها ربما تجد من يصغي لها في ظلّ التوتّر والتنافس في وقت تحتاج الإنسانية إلى التعاون والتعايش والتماسك والوئام.

ومن الافتراضات والاستنتاجات التي تدور حولها أطروحة البروفيسور (صموئيل هنتنجتون): المخاطر المتوقعة على الغرب من التحالف الإسلامي الكونفوشي المقبل، وتهديده للمصالح الغربية وقيمها وسلطتها، وأنّ نهضة الصّين الاقتصادية ستكون أكبر حدث مهدّد لاستقرار بعد انتهاء الحرب الباردة..

لماذا؟!

يقول هنتنجتون: أظهر التاريخ أنّه كلّما تطورت الدّول من النّاحية الصّناعية

أصبحت أكثر قوةً ونفوذاً، وأحياناً تصبح لهذه الدول أطماعٌ توسعية وامبريالية.. ويبدو من المحتمل (لي) أن ترغب الصين في تأكيد نفسها في هذا المجال، فخلال ألفي عام ظلت الصين قوة مهيمنة في شرق آسيا، ولكن منذ عام ١٨٥٠م تفوقت عليها اليابان ودول الغرب؛ ولذلك يشعر الصينيون بالذلل والهوان، ومن الطبيعي أنهم يريدون استئناف ما يرون أنه مكانهم الطبيعي في العالم، وأن الحضارات الكونفوشية والإسلامية تتحدث عن الغرب باعتباره الخصم الرئيس لها.

وعلى الرغم من عدم تماسك هذه الاستنتاجات فإن (هنتنجتون) يؤيد من خلالها أن ينه الغرب ومراكز النفوذ ومؤسسات صناعة القرار، إلى أن هناك قوى صاعدة تحمل مخزوناً حضارياً وتاريخياً عريقاً، وإذا ما توطدت أركانها اقتصادياً واستقرت سياسياً، فإن هذا هو الخطر المحدق بالغرب وثقافته (الكونية). فالغرب لا يريد أن يتنازل عن مكانته وتفوقه وريادته، وبالتالي: فإن الافتراضات التي وضعها (هنتنجتون) ليست صحيحة من الناحية التحليلية الاستقرائية للواقع والتاريخ، بل إن ما قاله هو إعادة (شحن بطارية) الغرب الروحية التي بدأت في النفاد كما يعتقد البعض، ولذلك فإن مقولات (الصدام المقبل) قد تعني أن شيئاً ما ينتظره، وما إذا كان باستطاعة الغرب أن يقود الحضارة في القرن القادم أم لا؟ وهذا أيضاً يقود إلى افتراضين:

- أن مراكز القرار فوجئت بصدور الكتاب الذي أصدره فرانسيس فوكوياما (نهاية التاريخ وخاتمة البشر)، الذي قال فيه ما خلاصته: إن النظام الليبرالي هو أقصى ما يمكن أن يبلغه المجتمع السياسي.. فالديمقراطية الليبرالية انتصرت، ولن نتظر الجديد بعد الآن، فهذا القول وإن كان يدعو إلى الفخر والزهو ببلوغ النظام الرأسمالي الحر انتصاره في الحرب الباردة بعد انهيار الماركسية، إلا أن هذا الطرح قد لا يُفرح مؤسسات صناعة القرار في الغرب، التي يهّمها افتعال

الصِّراع وافتراض الصِّدام القادم، وهذا ما أتت به أطروحة (صدام الحضارات) للبروفيسور (هنتنغتون) في عام ١٩٩٣م.

- أن يكون التَّخَوُّفُ الغربي في محلّه؛ والسبب أن تصاعد بعض الحضارات تقنياً وثقافياً ربما يعني أن الغرب سيتراجع عن الصِّدْارة والمكانة الدولية، وهذا نذيرٌ غير سارٍّ للحضارة الغربية التي تعاني في الأساس من التراجع الروحي والأخلاقي، وهذا ما قاله بعض المفكرين والسياسيين، بينهم الأمير تشارلز في محاضراته في (ويلتون بارك) بلندن، والتي دعا فيها إلى استمداد العون من تراث الإسلام في هذا الخصوص.

والإشكال القائم الآن هو التَّخَوُّفُ من الانتقام ممَّا فعلته الحضارة الغربية بالحضارات والثقافات التي أخضعتها لهيمنتها، وهو ما اعترف به (هنتنغتون) عندما قال: «ابتداء من سنة ١٥٠٠م بدأ التوسع الضخم للغرب مع جميع الحضارات الأخرى، وقد تمكَّن الغرب في أثناء ذلك من الهيمنة على أغلب الحضارات وإخضاعها لسلطته الاستعمارية، وفي بعض الحالات دمر الغرب تلك الحضارات.

إذن هناك شعورٌ بالذَّنب في الغرب، يقابله شعور آخر مما قد تفعله هذه الحضارات في حالة صعودها أو تفوقها أو نديتها مع الغرب، وهو اعتقاد لا مبرر له على الإطلاق، أو على الأصح اعتقادٌ وهميٌّ تبريريٌّ لكوا من نفسية ذاتية في طبيعة الغرب الذي يؤمن بقضية (الصِّراع) حتى مع نفسه؛ حيث ظلَّ يعاني عقدة (الصِّراع)، بين مثاليته التي يؤمن بها ومركزية حضارته، وبين الواقع الذي يعيشه..

والأخطر في أطروحة (هنتنغتون) كما نعتقد، هي تلك الرؤية الأحادية للاختلاف، حيث يرى أن الاختلاف الثقافي دليل الانقسام والتصارع، وهذه - للأسف - نظرة شمولية يفترض أن لا تصدر من الغرب الديمقراطي العقلاني،

بحكم أنَّ الطرح الذي يرفعه يؤكِّد أهمية التعددية والاختلاف والتنوع بين الحضارات الإنسانية، وإذا ما نظرنا نظرة فاحصة إلى تاريخ الحضارات ونشأتها، فسنجد أنَّ التعدد والاختلاف سمة عامة في أغلب الحضارات الإنسانية، عدا محطات قليلة في فترات الانحطاط والتراجع.

لكن عندما جاء الاستعمار إلى الكثير من بقاع العالم استعمل ورقته الرابحة عند الاحتلال، من خلال سياسة (فرق تسد)، حيث عمل على وتر الاختلاف وتناقضاته، والتمايز بين الشعوب لتأليب الإثنيات والمذاهب، وحتى الديانات بعضها على بعض؛ بهدف استمرار احتلاله البغيض، وهذا في إطار الحضارة الواحدة. أمَّا بالنسبة للحضارات المختلفة، فإنَّ صراعها كان لأسباب اقتصادية أو سياسية، ولم يكن الاختلاف الثقافي المبعث الأوَّل للصراع، حتى الحروب الصليبية، لم يكن أساسها الاختلاف الديني كما يعتقد البعض، وإنَّ كانت حملت اللافتة الدينية، بل إنَّ الدافع الأوَّل لتلك الحروب كان سياسياً واقتصادياً بغضَّ النظر عن الكلام الكثير في هذا الجانب الدقيق، والذي يجب أن يوضع في إطاره التاريخي الصحيح.

لكن (هنتنغتون) كما نرى، لا ينظر هذه النظرة الواسعة للحضارات والثقافات الإنسانية، بحكم رؤيته الأحادية وأحكامه المسبقة أو المدفونة، وإنَّ كان قد أعطاهما البعد الاستراتيجي والتخطيط المستقبلي، واستنتاج هذه الفرضية الشمولية لصدام الحضارات والهويات واختلافها الفارق وانقسام الثقافات وتقاطعها.

ولا شكَّ أنَّ الحضارات كيانات ثقافية ضمن عناصر أخرى تدخل في تركيبها الفكرية والثقافية، لكنَّ التمايز الحضاري والاختلاف الثقافي والديني واللغوي، لا يعني بالضرورة الصدام والصراع، وإنَّما العناصر الأهم للصراع والتصادم هي المصالح السياسية والاقتصادية والاستراتيجية التي تسهم في

توظيف هذه التمايزات والاختلافات المصلحية، لكن ما قيل في هذا الصدد عن الصدام الحضاري والثقافي مجرد لافتة أو غطاء لستر المصلحة أو الحاجة الأخرى غير المعلنة، بما يستتبعها من هيمنة وسيطرة، وإن وضع تحت شعار الخطر القادم من الهويات والثقافات المعادية للغرب وحضاراته... إلخ.

صحيح أنَّ صنَّاع القرار في الغرب يقولون: إنَّ الإسلام دين التسامح والسلام، لكن هذا القول لا يستقيم ودرجة العداء في وسائل الإعلام والمؤسسات الاستراتيجية في الغرب، على الرِّغم من أنَّ بعض هؤلاء الذين يُتهمون بالإرهاب الآن، لا يمثلون الغالبية في المجتمعات العربية المسلمة، إلا أنَّ بعض الدوائر المؤثرة في الغرب، ومنذ عقود عدَّة، أعطتهم دعاية أكثر مما ينبغي، وسلطت عليهم الأضواء بطريقة تبعث على الاستغراب، وهذا ربما يؤكِّد ما طرحه بعض القوى في الغرب في إطار البحث عن عدوٍّ وإخراجه إلى السطح؛ لتثبت بالتالي نظرية العدو المفترض كما جاء في أطروحة: «صدام الحضارات»، ثُمَّ يأتي بعد ذلك الحديث عن الخطر الإسلامي والتهديد المقبل للحضارة الغربية، وهذا ما تبرزه الأحداث المتلاحقة والمتابعة منذ وقوع الزلزال السوفييتي وتداعياته في القرن الماضي، حتى وقت التفجيرات في نيويورك وواشنطن.

وقد أكَّد هذا المنظور الاستراتيجي في قضية البحث عن عدوٍّ مفترض العميد السابق لجامعة نيس الفرنسية «روبير شارفان» عندما قال: إنَّ رؤية صدام الحضارات تفترض حاجة بعض الدول إلى خلق عدوٍّ وهميٍّ أو فعليٍّ يكون بمثابة (كبش فداء) تحدّد مهمّته في تبرير المتاعب الداخلية لتلك الدول والتمويه على تناقضاتها الفعلية، فقد لعبت في هذا الإطار مقولات «التهديد السوفييتي» و «الحرب الباردة» و «إمبراطورية الشر» و «مواجهة الشيوعية» دوراً مهماً في تبرير المتاعب الاقتصادية والاجتماعية التي تتخطى فيها الولايات

المتحدة وأوروبا. لكن، ومع تفكك الاتحاد السوفيتي وبروز عهد العولة والشمولية صار من اللازم البحث عن عدو خارجي آخر، وما لبث «مرتزقة المجموعات الصناعية والمالية الغربية» أن عيّنوا هذا العدو : «إنه الشرق عموماً، والإسلام على وجه الخصوص».

إنَّ التَخَوُّفات الكامنة في هذا الصِّدد ترى أنَّ السَّبب الدافع للصِّدام هو نموُّ الحضارة المعاصر نتيجة للدَّور المزدوج للغرب، فرغم أنَّ الغرب في أوج قوَّته، فهو يواجه حضارات ليست غربية، وترغب في تشكيل العالم بطرائق غير غربية في مجال التكنولوجيا الحديثة، فهذه الرُّؤية التي لا تطيق الآخر، أو تقبل الاختلاف معه، رؤية أحادية في العقلية الأكاديمية في الغرب؛ حيث تضع الخطط والاستراتيجيات للسياسيين والقادة في الغرب، بطريقة غير عادلة، لكنَّها تضع ما ينبغي أن يكون عليه الغرب من المكانة وفق تلك المصالح والرغبات، حتى ولو تمَّ التَّعسُّف والقمع والهيمنة في هذه الاستراتيجية. وإلا، فماذا تعني الإشارة إلى أنَّ الغرب سيواجه حضارات ترغب في تشكيل العالم، وعلى الغرب ألا ينام قرير العين على طرح «نهاية التاريخ وخاتمة البشر»، حيث إنَّ تلك النُّظرة تستعدي الآخر، وتضع التصادم قبل الحوار، وتقدِّم اختلال الموازين في تعاملها مع الحضارات والهويات الأخرى.

أما الرُّؤية الأخرى هتنتجتون، فتقول: إنَّ الخصائص والفروقات أقلَّ قابلية للتبديل وغير قابلة للحلول الوسط، وكذلك إنَّ الحضارات تتمايز الواحدة عن الأخرى في التَّاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والدين، وإنَّ هذه الاختلافات أكبر بكثير من الاختلافات الأيديولوجية السياسية؛ إذ كان السُّؤال أيام الحرب الباردة أين نقف؟ ومع من نكون؟ أمَّا السُّؤال الآن فهو من نحن؟ ومن هم؟ وبغضِّ النَّظر عن المبالغة غير الدقيقة في تصوير هتنتجتون للتَّحالفات على أساس الفروقات والخصائص والتأثيرات الثقافية، التي لا نشكُّ في دورها في

تشكيل الوعي الإنساني، إلا أنه من استقراء الواقع، نجد أن هذا التصنيف لم يتحقق في الحرب العالمية الأولى، فقد تحالفت البروتستانتية في برلين مع الكاثوليكية في فيينا والإسلام في إسطنبول، وتحالفت الأرثوذكسية في روسيا مع الكاثوليكية في فرنسا، والبروتستانتية السائدة في بريطانيا، وفي الحرب العالمية الثانية تحالفت الألمان واليابانيون على الرغم من اختلاف أصولهم العرقية وعقيدتهم الدينية.

وما يدحض نظرية (هنتنجتون) في قضية التحالفات على الأسس الثقافية: التحالف الجديد القوي بين الولايات المتحدة وباكستان في الحرب القائمة في أفغانستان، وهذا ما يجعل الافتراضات التي طرحها (هنتنجتون) غير متماسكة، لكنّها في الواقع تبرر للغرب ما يفعله بعيداً عن الدقة والمصادقية، كما أن مقولة تضامن البلد المماثل لا يستقيم مع التحالفات التي جاءت بعد تفجيرات نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر.

ومن القضايا التي أشار إليها صاحب الأطروحة الآنفة الذكر إشكالية العودة للهوية أو البحث عنها في كثير من بقاع العالم بعد انتهاء الحرب الباردة مما أدى إلى نشوب أزمات وحروب عرقية كثيرة في العديد من القارات لم تألفها الإنسانية فترة ما قبل انتهاء الحرب الباردة، ولم يسأل (هنتنجتون) نفسه لماذا هذه الفروقات الثقافية؟ وما هي أسبابها الحقيقية الدفينة؟ فقضية العودة إلى الهوية الثقافية صحيحة، لكنه لم يناقش أبعادها وكوامنها الداخلية المستعصية، لماذا اختلفت الأسئلة بهذه الحدة.. من نحن؟ ومن هم؟ ولماذا صاحبها نزاعات دموية كثيرة، ولا تزال نارها تحت الرماد؟ لقد طرح (هنتنجتون) الوصفة دون أن يشخص الحالة ومسبباتها أو كيفية علاجها.

فالشعور بالهوية والاعتزاز بالثقافة الذاتية عند الكثير من شعوب العالم بعد انتهاء الحرب الباردة، هما مشاعر دفينة وكامنة في الذاكرة الإنسانية، لكنّها

محبوسة بسبب القمع والتهميش، ومعظم مفاصل هذه الإشكالية كان سببها الغرب نفسه بشقيه: الرأسمالي والاشتراكي آنذاك، عندما تمّ تهमيش الكثير من الشعوب والأقليات التي حكمت بعد انتهاء الحربين الكونيتين، إلى جانب غياب العدل والمساواة عندما تمّ التعاطي مع مطالبها، وحرمانها الكثير من حقوقها الذاتية والإنسانية. وما حصل بعد انهيار المعسكر الشرقي من تمزّق وفوضى سياسية كان جزءاً من هذه الإشكالية. إلى جانب أنّ الكثير من اتفاقات الحدود التي رسمت في العالم، كانت نتيجة من نتائج الحرب واتفاقات الإذعان لا التوافق والتفاوض العادل.

ولعلّ ما حصل في فلسطين في ١٩٤٨ كان إحدى تلك المظالم الكبرى التي اشتركت فيها الدول العظمى، وهو قيام إسرائيل على حساب الشعب العربي الفلسطيني، في معايير لم تستند إلى القانون الدولي أو العدل الإنساني، وطرد شعب من أرضه وسلب حقوقه منذ أكثر من خمسين عاماً، وحجّب القرارات الدولية بحق النقص «الفيتو» من قبل بعض هذه الدول لتمير الاحتلال وتسويغ مظالمه.

فالأطروحة أيضاً، من جانب آخر، تخفي الواقع السياسي والاستراتيجي والاقتصادي الذي يعانيه الغرب في داخله، وتبرز فقط ما تسميه بالصراع والصدام، على الرغم من أنّ كثيراً من هذه الصراعات الموجودة أو التي وجدت في الحرب الباردة، لا ترجع إلى الاختلاف الديني أو الثقافي أو الحضاري أو حتى اختلاف المرجعيات العقائدية. فهذا الرفض للآخر وثقافته يرجع إلى عقلية التمرکز الغربي والإقصاء.

إلى جانب أنّ فكرة الصراع كامنّة في عقلية الغرب حتى مع نفسه وعلى قاعدة «الأنا والآخر» و«الغرب ضدّ الباقي» وهي عقدة - للأسف - لم يتخلّص منها الغرب حتى الآن.

والشيء الذي ربما نسيه (هنتنجتون) أو تناساه وبعض الاستراتيجيين في مؤسّسات صناعة القرار في الغرب، فهو أنّ التاريخ أثبت أنّ الإرادات الإنسانية لا يمكن إلغاؤها أو كبحها بصورة نهائية، وأنّ الخوف أو التراجع في زمن أو مرحلة من المراحل قد يؤجّل أو يخمد الرغبة في إبقاء هذه الإرادة حبيسة في الذهن لحين تحريكها، إلى وقت آخر، يكون زوال ذلك الظرف فرصة لانطلاقها، بمعنى: أنّ نضال الشعوب لنيل حقوقها المشروعة سيظلّ قائماً مهما كانت تحولات موازين القوى في العالم، وهذا ما تمّ تجاهله من قبل (هنتنجتون) وبعض الاستراتيجيين في الغرب بعد انتهاء الحرب الباردة، وركّزوا فقط على قضية الصراع بين الغرب والإسلام وبعض القوى الصاعدة في القرن الحادي والعشرين.

فالحضارات تقابلت وتعايشت وتصارعت، لكنّها ظلّت أقرب للتعايش والتسامح، وبقي الصراع والتنافس محدوداً بظروفٍ معينة، فالأهمّ هو الاستعداد للتعايش والنّدية في التعامل، ويجب على الإنسانية أن تفهم بشكل أفضل لغة الحوار مع الأمم الأخرى، ولهذا نحتاج إلى سياسة ثقافية تقوم على فهم طبائع الشعوب بحيث نصبح قادرين على التعامل مع خصائصها المتميزة في التفكير، بدلاً من الحديث عن أنّ خطوط التماس بين الحضارات ستكون خطوط الحروب في المستقبل.. وأنّ الحرب العالمية القادمة - إن نشبت - ستكون حرباً بين الحضارات، وأنّ للإسلام حدوداً ديموية.

وهذا ربما ما تبتغيه أطروحة (الصدام بين الحضارات)؛ لأنّه لا يمكن أخذ هذا الاستنتاج إلّا في هذا الإطار، بحيث أصبحت المقولة واضحة المعنى بكلّ إفرازاتها السلبية: (المناطق.. وتأجيج العداوة.. وصراع الهويات). والحقّ: أنّه لا الإسلام ولا المسيحية في تاريخهما الطويل يأخذان الصدام أيديولوجية مضادة للآخر، إنّما الذي أجج الصّدام عوامل أخرى، يجب أن توضّح في إطارها

التاريخي، وهذه قضية لها تقويمها لدى أهل الاختصاص. لكنّ اللافتة الجديدة للصدام ليس لها مبررٌ على الإطلاق، وإنّما هي تقدّم الهيكل النظري الذي يجعل كلاً من الإسلام والمسيحية يرى في الآخر شيطاناً، وهو بذلك، إنّما يعلن نبوءة ذاتية التحقق.

ويتساءل البعض من المفكرين والمثقفين عن جدية الحوار بين الحضارات، وضرورة تعايشها في ظلّ هذه المقولات، والإصرار على دورها في تعزيز الهويات وتهميش صعود وبروز بعضها مستقبلاً، في ظلّ غياب معايير النّدية والتكافؤ.. وقد لا نغالي إذا قلنا: إنّ جزءاً كبيراً من هذا السُّؤال له من المبررات المقبولة ما يعني أنّ ثمة حاجة ماسّة لوضع أسس واضحة لإنجاح هذا الحوار وتقوية منطلقاته الهامة. والحوار مبدأ أصيل في الإسلام وفي الديانات السماوية، ولكنّ الأهم أن يكون الحوار مجدياً وناجحاً، ولا أعتقد أنّ أحداً سيقول إنّني أرفض الحوار.. لكن من الواضح أنّ الحوار الذي يحقق أهدافه في تعايش ووثام الأمم والحضارات، يجب أن لا يقوِّض بالافتراض المتعارف عليه في عصرنا الحالي، الذي يجعل القوي يفرض ما يراه منسجماً مع نزعاته وقناعاته غير العادلة، فإنّ هذا الحوار يصعب بلوغه النجاح المؤمل منه.

أمّا إن تحققت النزاهة والموضوعية في القضايا الخلافية، وفي إطار التعدّد الثقافي والتمايز الحضاري والنظرة العادلة التي (تعطي كلّ ذي حقّ حقه)، فإنّ هذا الحوار سيعزّز مستقبل الإنسانية بالوثام والتعايش بدلاً من التنافس والصدام وتكريس الكراهية.

* * *

متابعات متنوعة



□ إعداد: هيئة التحرير

منشور الوحدة، نقد ومراجعة:

انعقد في طهران - وبدعوة من المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية - مؤتمر الوحدة الإسلامية تحت عنوان (منشور الوحدة، نقد ومراجعة).

وشارك في هذا المؤتمر أكثر من ستمائة شخصية نخبة من مفكرين وعلماء حضرت من كافة أنحاء العالم الإسلامي، واستغرقت أعمال المؤتمر ثلاثة أيام ناقش فيها المؤتمر ميثاق الوحدة الإسلامية.

وكانت التوقعات تشير إلى أن عدد الموقعين على منشور الوحدة الذي أعدّه المجمع العالمي للفقهاء التابع للمؤتمر الإسلامي، قد يصل إلى ثلاثة آلاف شخصية.

وقد أكد رئيس مجمع التقريب الشيخ محمد علي التسخيري أن الكثير من العلماء أبدوا موافقتهم على المسودة الأولية للمنشور، ومع ذلك سيخضع للمناقشة وإعادة النظر خلال المؤتمر.

وحدّد التسخيري مجموعة من الأهداف التي سوف يسعى المؤتمر لتحقيقها، أهمّها: إيجاد الأرضية اللازمة للوحدة والاتحاد والتعاطف والتعاقد بين أبناء الأمة الإسلامية، والوصول إلى تقاربٍ فكري بين العلماء والمفكرين.

وقد ناقش المشاركون - أيضاً - الأرضيات الثقافية والفقهية والعقائدية. كما وبحث المؤتمر موانع التقريب، وأهمّها: التكفير وإيصال

الخلاف إلى حدود الإخراج من الدين.

وقد حضر هذا المؤتمر رئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام الإيراني الشَّيخ هاشمي رفسنجاني، ومن جملة ما ورد في خطبته فيه قوله: إِنَّ عمليات (تفجير الأنفس) التي تقتل المسلمين، تمثل انحرافاً فكرياً يجب على علماء الأمة الإسلامية معالجته.

ودعا رفسنجاني إلى اعتماد الحوار، والابتعاد عن القوَّة في حلِّ مشاكل المسلمين. وشدد على أهميَّة إيجاد حلولٍ للعالم الإسلامي؛ لتجنَّب ما يحصل في العراق وأفغانستان ولبنان.

* * *

المؤتمر الدولي حول: الإمام الخميني وآفاق الدين:

عقد يوم السبت (٢٥) جمادى الأولى ١٤٢٩ في طهران الاجتماع التمهيدي للمؤتمر الدولي: (الإمام الخميني وآفاق الدين (الدين والتنمية)، بحضور عددٍ كبيرٍ من

الشَّخصيَّات والمفكرين من إيران ودول العالم والضيوف المشاركين في مراسم الذِّكْرى التاسعة عشرة لرحيل الإمام الخميني رحمته الله.

وفي بداية البرنامج قدَّم الدكتور بيكدلي سكرتير اللِّجنة العلمية تقريراً حول إقامة المؤتمر، والتحضيرات لانعقاده التي عملت عليها اللِّجنة المؤكدة برعايته، والمقالات التي وصلت إلى هذه اللِّجنة.

وقد ألقى سكرتير المؤتمر الرئيس السابق السيِّد محمَّد خاتمي كلمةً بمناسبة عقد المؤتمر، أكَّد فيها أنَّ عالم اليوم ينقسم إلى قسمين: العالم النامي، والعالم في طريق التنمية. وأضاف: يعتقد البعض أنَّ التنمية الغربية قد وصلت إلى التَّكامل، وأنَّ الإنسان الغربي هو نموذج التنمية والتطوُّر، وتصبح القضية كارثيَّة عندما يؤمن المسؤولون الغربيون بذلك؛ حيث تعود طبيعتهم الاستعماريَّة للظُّهور، ويتابعون سياستهم في إذلال وتحقير الشُّعوب والحضارات الأخرى،

الأمر الذي سيخلق المزيد من الكراهية والحقّد ضدّ الغرب، وظهور حركاتٍ متطرّفةٍ معاديةٍ لكلّ ما هو غربي.

هذا وقد قدّم كلّ من الدكتور فرشاد مؤمني، والدكتور شهرام نيا، والدكتور محمّد رضا تاجيك، والدكتور مدحت حمّاد من مصر، والدكتور قاضي زادة، والدكتور حبيبي، والدكتور توفيق شومان من لبنان، والشّيخ خسرو بناء، والدكتور جيامبا من زامبيا، مقالاتٍ حول التّمنية في رؤية الإمام الخميني، والبنى التّحتيّة للتنمية في الثّورة الإسلاميّة، والتنمية السياسيّة في إيران في ظلّ العولمة، ودور الدّين في التّمنية، وأساس التّمنية في رؤية الإمام ﷺ. وفي آخر الاجتماع: ألقى حفيد الإمام الخميني، السيّد حسن الخميني كلمةً حول الإمام ودوره في التّمنية والدّين.

* * *

المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام،
وتأبين الشهيد مغنية:

أقام المجمع العالمي لآل البيت عليه السلام في إيران مراسم تأبين للشّهد عماد مغنية في مسجد (أرك) وسط العاصمة طهران، وقد حضر مجلس العزاء: السيّد حجازي ممثلاً عن مكتب ساحة قائد الثّورة الإسلاميّة، ووزراء الحكومة الإيرانيّة، وأعضاء مجلس الشّورى الإسلامي، ومعظم السّفراء العرب في طهران، وفي مقدّمهم: السيّد صلاح الزّواوي سفير فلسطين، عميد السلك الدبلوماسي في إيران وسفير سوريا ولبنان، وممثّلو حزب الله اللّبناني وحركتي حماس والجهد الإسلامي الفلسطيني، وكذلك العميد جعفري قائد قوّات الحرس الثوري، وآية الله التّسخيري رئيس المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، والسيّد رحيمان ممثّل الولي الفقيه في مؤسّسة الشّهد، والسيّد محتشمي بور

الأمين العام لمؤتمر حماية الانتفاضة والقدس.

هذا، وقد ألقى الشيخ صديقي كلمةً بالمناسبة: حيّ فيها النضال من أجل تحرير أرض فلسطين، وأرواح الشهداء.

ومن ناحية أخرى، أقام مكتب حزب الله في العاصمة الإيرانية طهران، مجلس عزاء وتبريك بمناسبة استشهاد القائد الكبير في المقاومة الإسلامية الحاج عماد مغنية بانفجار استهدفه في العاصمة السورية دمشق.

وحضر المجلس عددٌ لا بأس به من سفراء الدول العربية والإسلامية، وشخصيات سياسية إيرانية، حيث قدّموا التّهانّي والتّعازي بمناسبة استشهاد مغنية.

كما أشاد الحضور بشخصية الفقيه ودوره البارز في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وأعربوا عن استنكارهم لعملية اغتياله.

* * *

تعريفٌ بمركز (فقه الإمامة الأطهار عليه السلام):

بتوجيه وإشراف من سماحة المرجع الديني الراحل: الشيخ محمد الفاضل اللكراني، تمّ تأسيس مركز فقه الأئمة الأطهار عليه السلام سنة

١٣٧٦ هـ.ش، المطابق لسنة ١٤١٩ هـ.ق. في مدينة قم المقدّسة؛ وذلك لرفع المستوى العلمي للفقه الشيعي، وللإجابة عن الأسئلة والاحتياجات الفقهيّة لعالم اليوم.

يُعدّ هذا المركز الأوّل من نوعه على مستوى الحوزات العلميّة، ولم يسبقه في ذلك أحد.

ومن الأهداف الأساسيّة للمركز: تربية وتعليم المحقّقين والفضلاء، وتخريج المجتهدين والعلماء القادرين على الإجابة عن متطلّبات العصر.

يتألّف مركز فقه الأئمة الأطهار عليه السلام من خمسة أقسام فعّالة، وهي:

- قسم التعليم.

- قسم التّحقيق والتّأليف.

- قسم التصحيح والتدقيق في النصوص.

- قسم المكتبة التخصصية.

- قسم الموقع على شبكة المعلومات المرئية والمسموعة.

١. قسم التعليم:

إنّ من أهمّ الأقسام النشطة في مركز فقه الأئمة الأطهار عليه السلام هو قسم التعليم، ويتألف من مقطعين هما: السطوح العالية، ودروس البحث الخارج.

في المقطع الأوّل، يقوم المركز بإعداد البرامج المنتظمة تحت شرائط خاصّة؛ حيث يقوم بتقسيم الطلبة المتخّبين على صفوف يشرف على كلّ واحد منها أستاذ من ذوي الخبرة العالية والتجربة الطويلة في مجال تخصّصه.

وفي المقطع الثاني، يستقبل الطلاب المتفوّقين والمتخرّجين من المقطع الأوّل للقسم التعليمي، وكذلك الطلاب الذين قضوا عدّة سنوات في درس البحث الخارج عند

أساتذة كبار في الحوزة العلميّة، وذلك بعد أن يجتازوا امتحانات القبول المتعلّقة بها.

٢. قسم التحقيق والتأليف:

إنّ تطوير الحوزات في هذه الأيام ونجاحها كان نتيجة طبيعيّة للمشقات الكبيرة والسعي اللامتناهي للسلف الصّالح مع انعدام الإمكانيّات والوسائل الحديثة. فالتّحقيقات والتّأليفات القيّمة التي ورثناها منهم تعدّ ذخائر علميّة عظيمة لا غنى عنها، لكنّ حاجة العالم الإسلامي في الوقت الحاضر لفقه يتماشى مع التطوّر الحاصل في العالم جعلت من الضروري جدّاً السعي من قبل العلماء والفقهاء لمواكبة هذا التقدّم التكنولوجي للمعلومات في الوقت الحاضر. وقد جعل ذلك المحقّقين يحسّون بالمسؤوليّة الكبيرة الملقاة على عاتقهم؛ ليواصلوا طريق الماضين، مع الاستفادة من الإمكانيات الحديثة المتوفّرة لديهم لنصرة الدّين الحنيف.

انطلاقاً من الإحساس العميق
بالمسؤولية سلك القائمون على مركز
فقه الأئمة الأطهار عليه السلام طرقاً مختلفة
في مجال التحقيق، من أهمّها:

* الاجتماعات العلميّة:

من البرامج التي وضعها المركز:
إقامة الاجتماعات العلميّة التخصصيّة
الفقهية سنوياً، بحضور كبار
الأساتذة وأصحاب الحلّ والعقد في
الحوزة العلميّة. وفي هذه الاجتماعات
تقدّم المقالات العلميّة في الموضوعات
الفقهية الحديثة، كما تبحث الطرق
العلميّة للاستنباط، ويتمّ التشاور
فيها.

* اللجان العلميّة:

من البرامج التحقيقيّة التحليليّة
لمركز فقه الأئمة الأطهار: تشكيل
الهيئات واللجان العلميّة. وتتألّف
كلّ لجنة من الفضلاء والمحقّقين ممّن
لهم سابقة طويلة في الحوزة، حيث
يقومون بالبحث والتحقيق في
المواضيع التالية:

- ١ - فقه القرآن. ٢ - فقه العبادات.
- ٣ - فقه المعاملات. ٤ - فقه القضاء.
- ٥ - فقه السياسة. ٦ - الحقوق
- الاجتماعية. ٧ - حقوق الأسرة. ٨ -
- فقه التربية والتعليم. ٩ - فقه الطبّ.
- ١٠ - فقه مسائل الحرف والفنون.
- ١١ - فقه النساء. ١٢ - الفقه المقارن.
- ١٣ - معرفة الشبهات الفقهية.

* تأليف وتدوين الكتب:

إنّ ثمة جهود الباحثين
والمحقّقين في الفرق العلميّة، تأليف
الكتب العلميّة والتي تنتقل بدورها
للطبع والنشر لتصل بعدها لأيدي
الفضلاء وطلّاب الحوزة. ومن نماذج
هذه الكتب:

- (أصول فقه الشيعة)، ويتألّف
من عشرة أجزاء، ستّة منها تمّ طبعها
ونشرها. وهذا الكتاب عبارة عن
تقاريرات درس البحث الخارج
لأصول فقه سماحة آية الله العظمى
الشيخ الفاضل اللكراني (باللغة
الفارسيّة).

- (أصول الفقه)، ويتألف من دورةٍ تشتمل على أربعة أجزاء، وهو أيضاً تقارير درس البحث الخارج لأصول فقه سماحة آية الله العظمى الشيخ الفاضل اللنكراني (باللغة العربية).

- (موسوعة أحكام الأطفال)، وتتألف من سبعة أجزاء، ويشمل جميع مسائل وأحكام الأطفال الفقهيّة منذ انعقاد النطفة حتّى مرحلة البلوغ، بأسلوبٍ استدلاليٍّ ومقارن مع فقه مذاهب أهل السنّة، وقد تمّ طبع جزأين منها.

- (الذخر الفاخر في تعارض الأصل والظاهر)، وهي عبارة عن رسالة تمّ تأليفها وتحقيقها، والهدف منها بيان الموارد التي يتعارض فيها الأصل والظاهر، وكيفية التخلّص منه.

- (فقه القضاء الإسلامي)، وهو عبارة عن نظرة في القضاء الإسلامي بأسلوب استدلاليٍّ. ويتألف من جزأين.

٣. قسم التصحيح والتدقيق في النصوص:

في هذا القسم، يتمّ العمل على تصحيح وتدقيق الكتب والمواضيع الواردة على ثلاث مراحل، وهي: استخراج المصادر، المقابلة والتصحيح، ثمّ الإعداد للطبع والنشر تحت إشراف نخبة من المحقّقين من ذوي الخبرة والاختصاص، بعدها تقدّم للنشر.

٤. مكتبة فقه الأئمة الأطهار عليهم السلام التخصّصية:

لمواكبة التطوّر والتخصّص في مجال العلوم، وفي مجال المطالعات والتحقيقات العلميّة، كان من الضروري إيجاد مكتبة تخصّصية وهو أمر لا يمكن التغافل عنه.

ولهذا السبب تمّ تأسيس مكتبة فقه الأئمة الأطهار عليهم السلام التخصّصية؛ لإيجاد الجوّ المناسب للباحثين والمحقّقين في المركز، وتقديم الخدمات لسائر العلماء والفقهاء. وهي في الوقت الحاضر

تعتبر من أغنى المكتبات في مجال تخصصها.

وتظمّ المكتبة أكثر من ٢٥٠٠٠ كتاب، وهي دائماً في حالة توسعة مستمرّة، وتنوّع على موضوعات مختلفة: الفقه الشيعي، الفقه الشافعي، الفقه الحنبلي، الفقه المالكي، الفقه على المذاهب الأخرى (الزيدية، الظاهرية، الإباضية، وغيرها)، القواعد الفقهية، تاريخ الفقه، أصول فقه الشيعة، أصول فقه أهل السنة، الفقه المقارن والموسوعات الفقهية، الحقوق،

الرجال والدراية، مجلّات فقهية تخصصية، وغيرها.

٥. قسم الموقع على شبكة المعلومات (الانترنت): ويرفد هذا القسم المشاهد والقارئ بأهم ما يحتاج إليه من معلومات فقهية، كما ويجب على الأسئلة الفقهية التخصصية. عنوان هذا الموقع على شبكة الإنترنت:

<http://www.lankarani.org>
<http://www.lankarani.net>
<http://www.lankarani.com>

قسمة الاشتراك

الاسم :
العنوان :
المدينة :
البلد :
المهنة :
مدة الاشتراك :
ابتداءً من :
عدد النسخ :

رسالة الثقلين

مجلة اسلامية جامعة

البلد الاشتراك
الإرسال السنوي / لمدة ٦ أشهر
□ الجمهورية الإسلامية في إيران
(بالريال) ٦٠٠٠٠ ٣٠٠٠٠
□ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي
٢٠ ١٠ (أو ما يعادلها)

يرافق اشتراكي: □ صك □ صك بريدي □ حوالة بريدية
أرسل هذه القسمة مع قيمة الاشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:
الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص. ب ٨٩٤ - ٣٧١٨٥

.....

الاشتراكات:

□ داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدد قيمة الاشتراك السنوي (٦٠٠٠٠ ريال) بحوالة مصرفية على العنوان التالي:
الجمهورية الإسلامية في إيران - قم - بنك تجارت / شعبة سميّة، شارع سميّة - رقم الحساب الجاري: ٤٦٢٥٤ - ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونة الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام).

□ خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم - بنك ملي (شعبه مركزي قم) رقم الحساب: ٢٠٠٦٥ - ٢٧٠١ (بالدولار).

ثمن النسخة:

□ الجمهورية الإسلامية في إيران ١٥٠٠٠ ريال.
□ وفي باقي دول العالم ٥ دولارات أمريكية أو ما يعادلها



The ahl – ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 1 5, No . 5 9, Spring 2 0 0 8